

# منهج جديد للدراسات الإنسانية محاولة فلسفية ه.ب. ريكمان

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور محمد علي محمد

استاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة  
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

دكتور علي عبدالمعطي محمد

استاذ الفلسفة المساعد بجامعة  
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

الطبعة الأولى

١٩٧٩

مكتبة سكاوي

تلفون ٢١٦٢٦٦

ص.ب ١٢٢٣ بيروت









# منهج جديد للأساتذة الإنسانية

## محاولة فلسفية

ه.ب. ريكان

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور محمد علي محمد

استاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة  
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

دكتور علي عبدالمعطي محمد

استاذ الفلسفة المساعد بجامعة  
الاسكندرية وجامعة بيروت العربية

الطبعة الأولى

١٩٧٩

مكتبة مكاوي

تلفون ٢١٦٣٦٦

ص.ب ٩٢٢٣ بيروت



## هذه ترجمة كاملة لكتاب

H. P. Rickman ; Understanding and the Human Studies ;  
Heinemann Educational Books Limited – London , 1967 .



## تقديم الترجمة العربية

(١) ماكس فيبر وإسهامه في تطور النظرية والمنهج

(٢) الفهم ومقولة المعنى



## تقديم الترجمة العربية

بقلم

الدكتور محمد علي محمد

(١)

### ماكس فيبر وإسهامه في تطور النظرية والمنهج

لا يكاد يخلو كتاب معاصر في علم الاجتماع سواء تعلق بالنظرية أو المنهج أو الموضوع ، أو كان بصدد تأريخ الفكر الاجتماعي بعامة من إشارة لماكس فيبر ، فلقد تجلت عظمة فيبر في قدرته الفائقة على شمول كافة مسائل علم الاجتماع ، اذ من خلال اطار نظري واضح المعالم ، وباستخدام منهج جديد متميز ثاقب الرؤية واسع البصيرة ، استطاع فيبر أن يقدم مضمونا محددا لعلم الاجتماع ، ذلك العلم الذي يضطلع بمهمة دراسة وتحليل السلوك الانساني لفهم مقاصده ومعرفة دوافعه وغاياته ، فضلا عن استطلاع أسس التنظيمات الاجتماعية ووصف وتشخيص مقوماتها ، وتعيين معالم بنائها ككل .

ومع أن لعلم الاجتماع عند فيبر قسما محددة دقيقة تختلف عن الصورة التي اتخذها علم الاجتماع عند غيره من الرواد ، فأننا نستطيع

أن نستوعب طبيعة علم الاجتماع عنده من خلال معالجة مقارنة لأفكاره سيرا على المنهج الملائم لدراسه النظريات الاجتماعية الكبرى، فماكس فيبر وان اطلق عليه زياتلن «ماركس البرجوازي» استطاع أن يشيد صرح علم الاجتماع في ضوء اعادة النظر التي أجراها للموضوعات التي طرحها كارل ماركس ، تشهد على ذلك مؤلفاته ودراساته المختلفة ، فاهتمامه بتتبع أصول الرأسمالية الحديثة ومن ثم محاولته فحص كافة النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الحضارة الغربية يعكس تأثيره بمنهج ماركس في محاولة لاتخاذ موقف يتعارض معه حول نفس المسائل المطروحة قيد البحث .

ان من يدرس علم الاجتماع عند فيبر يستطيع أن يقف على تيارات عديدة تجمعت وانصهرت فأثمرت نسقا فكريا متكاملا ، فلقد أدخل فيبر العنصر السيكلولوجي ، اذ يعتقد أن علم الاجتماع كعلم يتعين أن يبحث عن تفسير سببي للفعل الانساني قادر على معرفة غاياته ومقاصده ، والتفسير السببي يحقق لعلم الاجتماع صفة « العلم » التي كافح من أجلها أوجييست كونت « العلم الوضعي » واميل دور كايم ، ولكن دراسة السلوك الانساني يتعين عند فيبر أن تبرز بعدا آخر هو بعد « الفهم » الذي يقوم على التعاطف مع الآخرين ، وسبر أغوارهم للتأكد من حقيقة هذا السلوك بدلا من الاكتفاء بمظاهره الخارجية فقط ، ومن هنا برزت نزعة جديدة تدعو الى الاهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية من الداخل أيضا ، مثلما تدرسها من الخارج كما لو أنها أشياء + ولم يقتصر فيبر - كما سنرى - على هذا التصور الجديد لموضوع العلم ، وانما راح ينقب في التاريخ لبحث عن دور الأفكار في تفسير العمليات التاريخية الكبرى ، وبالطبع لجأ فيبر الى المنهج التاريخي المقارن فظهر واضحا جليا في بحثه عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية الحديثة . وبالإضافة



الى ذلك كله كان فيبر رائدا في عدة ميادين هي علم الاجتماع الديني ،  
وعلم الاجتماع السياسي ، وعلم الاجتماع القانوني ، وسوسيولوجيا  
النظيم والادارة .

### ١ - خلفية تاريخية :

لا تكتمل دراسة نظرية علم الاجتماع عند فيبر بدون معرفة السياق التاريخي لأفكاره ، ويمتد بحثنا في هذا السياق التاريخي ليشمل الأسرة التي نشأ فيها ماكس فيبر ، اذ أن الجو الأسري الذي عاشه فيبر كان له أثر واضح في تشكيل افكاره واهتماماته العلمية . فلقد ولد فيبر في ألمانيا عام ١٨٦٤ في أسرة موسرة ، اتسمت بالاهتمام الواضح بالعمل السياسي، اذ كان والده يعمل في ميدان السياسة في عهد بسمارك، وظل لعدة أعوام عضوا في الريشتاخ . واتسمى الى الحزب الوطني المتحرر . ولقد أتاح اهتمام والده بالسياسة والقانون الفرصة لماكس فيبر لكي يلتقي في منزل العائلة ببعض الشخصيات البارزة في هذا الوقت من أمثال ديلتاي Dilthey ومومسن Mommsen ، والشيء الذي يعنينا من ذلك أن هذا الاهتمام المبكر أثار عند فيبر ذلك الوعي المستمر بأهمية العمل السياسي (١) . وفي جامعة برلين تخصص فيبر في الفقه ، وكان من المتوقع أن يكون استاذا للقانون، ولكن اهتمامه انصرف عنه بعض الشيء حيث دعي الى جامعة فرايبورج Fruibwrg عام ١٨٩٣ لكي يعمل استاذا للاقتصاد بها . غير أن اهتمامه بالقانون ظل مع ذلك ملازما له وان دعمته النظرة التاريخية، فقد كان ميالا نحو فحص العلاقة بين القانون والتنظيم الاقتصادي . وتكشف رسالته للدكتوراه عن ذلك فقد جعل موضوعها : « الشركات التجارية في العصور الوسطى » ، وهي توضح

---

Fletcher, R. the Making of Sociology, op. cit, p. 287. (١)

تحوله من التاريخ القانوني الى التاريخ الاقتصادي (١) . ثم انتقل فيبر من جامعه فرايبورج الى جامعة هيدلبرج Heidelberg ، ولكنه اصيب في عام ١٩٠٠ بنوبة عصبية حادة اضطر معها الى ترك منصبه العلمي ، ولم يعد للتدريس مرة ثانية حتى عام ١٩١٨ خلال الحرب العالمية الاولى ، ونوفي عام ١٩٢٠ حينما بلغت أفكاره كامل فزوجها .

ولقد كان فيبر يتسم بنشاط واضح ، الى جانب سحر وقوة فسي الشخصية ، وقدرة عقلية ثاقبة ، احدثت تأثيرا كبيرا عند كل من التفوا حوله ، الأمر الذي دفع البعض الى وصفه بأنه « بنى القومية الألمانية » (٢) . ومما يدل على نشاط فيبر الواسع النطاق أنه زار الولايات المتحدة عام ١٩٠٤ « ودرس اللغة الروسية لكي يطلع بنفسه على الصحف الروسية ، وتابع الثورة التي لم يكتب لها النجاح عام ١٩٠٥ ، كما كان من كبار المناوئين لسياسة القيصر فلهمم الثاني ، وكان أيضا من كبار النقاد خلال الحرب العالمية الأولى في المسائل السياسية والاقتصادية ، كذلك كان فيبر عضوا في اللجنة الشهيرة التي قدمت مذكرة اداة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى » وهي المذكرة التي قدمت لمؤتمر فرساي . ولقد تميزت آراء فيبر السياسية بنزعة تحررية تعكس الجو السائد في حياته الأسرية . لكل هذه الأسباب يمكن القول أن حياة ماكس فيبر تنقسم قسمة متعادلة بين العلم والسياسة (٣) .

(١) Parsons, T. «Max Weber, the Sociological Analysis of Capitalism and Modern Institutions» In Barnes (ed.). *An Introduction to the History of Sociology*, N.Y. Harper, 1947 p. 287.

(٢) Weber, M. *the Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, (Parsons. trans) London, 1956, p. 17.

(٣) Arun Sahay, (ed.) *Max Weber and Modern Sociology*; London, Routledge and Kegan Paul, 1971, p. 2.

ويذهب أغلب علماء الاجتماع الى أنه يتعدّر فهم علم الاجتماع عند ماكس فيبر بدون الاشارة الى المناخ الفكري ، وبخاصة المناخ الفلسفي والعلمي في ألمانيا حتى القرن العشرين ، ذلك أن تكوينه العقلي مرتبط في الواقع بالظروف العامة في عصره ، وبخاصة المواقف والحركات العقلية في ألمانيا . فلقد أقدم على دراسة القانون تحت تأثير المدرسة التاريخية التي كانت تحتل مكانة عالية في جامعات ألمانيا آنذاك . كما أنه وقف موقفاً نقدياً معارضاً لاتجاه النزعة الصورية التي تبدو في الفلسفة الكانطية الجديدة ، القانون ، تلك التي يمثلها ستاملر Stammler وقد جعلته هذه الأفكار بهتم بتاريخ النظم القانونية ، فضلاً عن دراسة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المصاحبة لها ، ولعلّ دراسته المبكرة في هذا الميدان عن تدهور الامبراطورية الرومانية ، ودراسته عن التاريخ الاقتصادي للعالم القديم ، تؤكد اعتماد القانون على القاعدة الاقتصادية والتكنولوجية (١) .

ولم يكن الجو الفكري في ألمانيا في الوقت الذي عاش فيه فيبر مشجعاً على نمو علم اجتماع أكاديمي . فالتاريخ كان محكوماً الى حد بعيد بأفكار كل من هيجل Hegel ورائكه Ranke كما كانت المدرسة التاريخية لا تشجع صياغة نظرية منظمة (٢) . وشهدت ألمانيا في ذلك الوقت أيضاً انتعاش الفلسفة الكانطية التي تؤكد وجود هوة لا يمكن عبورها بين عالم الظواهر المادية وعالم الروح، ذلك الذي يظهر أولاً وقبل كل شيء في القيم ، أما فيما يتعلق بالعالم المحسوس ، فانه من

(1) Weber, *the Theory of Social and Economic Organisation* (Parsons. trans). N. Y. the Free Press, 1947, p. 15.  
(2) Weber; *Essays In Sociology*, (Gerth & Mills, trans), (N. Y., Oxford University Press, p. 45.

المسلم به أن العلوم الطبيعية هي وحدها التي تستطيع أن تقوم بصياغة « قوانين الطبيعة » في قضايا تتعلق بالاطرادات المنتظمة ، بينما يستطيع العلم أن يكتسب معرفة تتعلق بحالات وعمليات العقل الانساني عن طريق فهم هذه الحالات داخليا ، وهو لا يستطيع أن يدرك وجود « اطرادات » في عالم الروح ، ولذلك يجب أن يحصر نفسه في عملية الوصف الدقيق ، وتقويم الاحداث وتائجها في مظاهرها الفريدة غير المتكررة . ويرى بارسونز Parsons أن ألمانيا في ذلك الوقت كانت معقل الفلسفة المثالية ، وما يرتبط بها من محاولة وضع تمييز منهجي محدد بين العلوم الطبيعية ، والعلوم التي تعالج الفعل الانساني Human Action <sup>(1)</sup> بحيث أصبح من المعتد فيه أن هذه العلوم الأخيرة لا يمكن أن تسير على هدى العلوم الطبيعية ، حين كان الاعتقاد بأنه لا يوجد الا في العلوم الطبيعية الفئات النظرية التعميمية . أما الميدان الاجتماعي فهو ينظر اليه على أنه تاريخي أساسا ينهض البحث فيه على تتبع النتائج التكوينية للدوافع والتأثير الثقافي . وعند هذه النقطة يبدأ نقد فيبر للمدرسة التاريخية ، وتمثل نظريته الأساسية في أنه عن طريق استخدام الفئات النظرية التعميمية ، الواضحة أو المستترة ، يصبح من الممكن منطقيا أن يبرهن على وجود العلاقات السببية . وتتطلب هذه النظرة صياغة جديدة للبناء المنطقي للعلوم الاجتماعية ، حيث أنه أصبح من الضروري أن ينصرف الاهتمام الى التساؤلات الخاصة بالنظرية التعميمية المنظمة ، وفي الاضطلاع بهذا البناء الجديد حاول فيبر Weber أن يقدم فكرته عن النموذج المثالي Ideal Type ونظريته في الفعل الانساني .

Parsons, *op. cit.* p. 290

(1)

ولقد بذل فيبر جهداً ممتازاً لكي يتغلب على التعارض القائم بين العلم الطبيعي ، والروحاني ' spiritual ، وأن يقدم لنا نسقاً سوسيولوجياً يحتفظ بأقيم العناصر المتضمنة في كل من الاتجاهين . ويتضح ذلك بخاصة في محاولته التوفيق بين الاتجاهات الكانطية المحدثه ، والمثالية المحدثه . ويمكن أن نتعرف على الفائدة التي جناها فيبر Weber ، حينما تقابل بين مفكرين أحدهما مثالي محدث وهو دلتاي Dilthey ، والآخر كانطي محدث وهو ريكتر Rikert .

يعترض دلتاي ، وهو المثالي المحدث ، على تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الثقافية ، ويحاول على هذا الأساس أن يضع حداً فاصلاً بين العلوم الثقافية والعلوم الطبيعية وهو يرى أن الفكر الانساني يتخذ في كل من العلمين شكلاً متميزاً ومنهجاً مختلفاً . فالعلوم الطبيعية تعالج وقائع Facts ، بينما تعالج العلوم الثقافية المعاني meanings والفكر في العلوم الطبيعية يتخذ صورة التفسير Explanation ، بينما يتخذ في العلوم الثقافية صورة الفهم Understanding . أما التفسير فيقيم العلاقات السببية والقوانين ، ويقترب من موضوعه من الخارج ، على حين يحاول الفهم أن يربط المعنى بالمعنى ، ويدرك موضوعه مباشرة عن طريق الحدس ، ومنهج التفسير في العلوم الطبيعية هو منهج التجربة ، أما منهج الفهم في العلوم الثقافية فهو ذلك الذي يتكون من تفسير عن طريق « نماذج مثالية » أو أشكال وصور للمعاني .

أما ريكتر ، وهو الكانطي المحدث ، فهو يقف موقفاً معارضاً لتصورات دلتاي حين يضع تمييزاته بطريقة مختلفة تماماً ، فالعلم بالنسبة له يهدف الى تفسير الظواهر ، ولا يهتم في هذا الصدد بما اذا كانت هذه الظواهر تتعلق بالفرد أم بالعالم الفيزيقي . فالظواهر هي الظواهر ،

والعلم هو العلم • ان الفارق الأساسي عند ريكتر يكون بين العلم والتاريخ • فالعلم هو تحليل الطبيعة في ضوء القوانين السببية ، والتاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط للأحداث الفريدة • ولعل وجه الاختلاف الأساسي بين دلتاي كمفكر مثالي جديد ، وريكرت باعتباره كانطياً محدثاً ، يتمثل في وجهة نظر دلتاي في أن العلوم الثقافية والاجتماعية تعالج مضموناً متمائزاً ، بمعنى أنها ما دامت تهتم بالمعاني ، فإن هذه المعاني تختلف من فرد الى فرد ، ومن جماعة الى جماعة • وذلك في مقابل فكرة ريكتر في أن العلم يعالج ظواهر ليست متميزة ، أي ظواهر متماثلة تخلو من المعنى • ويعتقد دلتاي أن العلوم الثقافية تعالج الروح الانسانية ، تلك التي تمر في عملية مستمرة من التغير والتطور • وعملية التغير والتطور هذه هي أهم خصائص مضمون العلوم الثقافية ، ولم ينظر اليها ريكتر على أنها خاصية للمضمون ، بل على أنها خاصية للمنهج ، والمثالي الجديد يهتم بالعالم كميدان للفعل ، أما الكانطى الجديد فهو يهتم بالعالم باعتباره موضوعاً للمعرفة • ذلك أن الطبيعة - عند ريكتر - هي كل واحد ، قد تدرس اما عن طريق العلم واما عن طريق التاريخ ، والأمر بينهما مختلف تماماً (١) •

أما موقف فيبر Weber فيتلخص في أنه حاول أن يتوسط آراء كل من ريكتر ودلتاي ، فهو يوافق دلتاي على أن المعاني والقيم هي موضوع علم الاجتماع ، وهو ينظر كما هو الأمر عند ريكتر ، الى العلم باعتباره علماً ، سواء كان يعالج ظواهر عقلية ، أو اجتماعية ، أو فيزيقية • وهو على العكس من دلتاي لا يعتقد أن عزل المعاني المتضمنة في الأحداث الاجتماعية ، يضع علم الاجتماع في فئة مختلفة عن تلك العلوم

التي تحاول إقامة العلاقات والقوانين السببية • كما أنه لا يجعل من العلوم والتاريخ معسكرين منفصلين — على عكس ما يرى ريكتر — إلا أنه يفضل أن يتقبل الفكرة التقليدية من أن علم الاجتماع هو نظام علمي يهتم بدراسة مادة مشتقة من التاريخ • وهو يعتقد أن الاستخدام الدقيق لطريقة التصنيف Typology سوف يساعد على النهوض بهذا العلم من الناحية المنهجية • وهكذا حاول فيبر أن يستفيد من الامكانيات التي تقدمها العلوم « الطبيعية » و « الروحانية » على حد سواء • ويتضح ذلك من أنه يرى أن أعلى مستويات الفهم التي تصل إليها الظواهر الاجتماعية هو الفهم الملائم سببياً Casually adequate والمناسب أيضا على مستوى المعنى (١) ، وهذا يعني أن فيبر يرى في علم الاجتماع دراسة تبحث عن الاسباب ، وفي نفس الوقت دراسة للمعاني ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية من حيث القصد والمعنى المتضمن في الأولى ، والذي يرجع الى طبيعتها الانسانية • وهكذا تختلف العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية من حيث أن النشاط الانساني يتجه في الاولى الى الضبط Control ، ذلك أن من يستطيع معرفة اطراد الوقائع الطبيعية يمكنه أن يربط قوى الطبيعة ، وعلى العكس من ذلك يتجه النشاط الانساني في الثانية الى التقويم Valuation اذ يعتبر مفهوم الثقافة ذاته مفهوم قيمي • فالواقع اذا كان يرتبط بالقيم ، يصبح واقعا ثقافيا ، أما صدق القيم فهي مسألة ايمان وليست مسألة « معرفة » وبذلك ستركز العلوم الاجتماعية على دراسة القيم ، ولكنها مع ذلك لن تحاول أن تقدم معايير ملزمة ، أو مثاليات،

---

(١) Timasheff, op cit.p. 196.

أو طرائق للسلوك والعمل : وتبعاً لذلك يجب أن تتحرر هذه العلوم  
الاجتماعية من القيمة Value-Free \*

وقد شكلت النظرية الماركسية جانبا من المناخ الفكري الذي عاشه  
ماكس فيبر ، وأهم ما لفت نظره هو ذلك الخطأ الذي وقع فيه ماركس ألا  
وهو تأكيد دور عامل واحد هو العامل الاقتصادي ، ومن ثم وقف فيبر  
موقفا معارضا من الماركسية ، حيث هي في نظره « نظرية  
متحيزة في اتجاهها نحو إعادة بناء العلاقات الاجتماعية والتاريخية على  
أساس اقتصادي فريد ، وأهم نقد يوجه للماركسية يتشمل في فشلها في  
التمييز بين ما هو اقتصادي وما هو «حتمي اقتصادي» ، وما هو « ملائم أو  
مناسب اقتصاديا » اذ طغت الحتمية الاقتصادية على كل تفكير كارل  
ماركس (١) . ولقد جعل ماكس فيبر دراسته عن « الاخلاق  
البروتستانتية وروح الرأسمالية » بمثابة اختبار يدحض على أساسه نظرية  
ماركس من أن الاصلاح البروتستانتية هو نتيجة مصاحبة لنشأة  
الرأسمالية . غير أن ذلك لا يجب أن يدفعنا الى حد القول بأن فيبر كان  
هو « العدو اللدود » لماركس على طول الخط ، وانما الأمر على العكس  
من ذلك تماما ، اذ من الممكن تصنيف أعمال فيبر النظرية والمنهجية  
بوصفها تنتمي الى نفس التيار الفكري الذي عبرت عنه الماركسية ،  
ويؤكد زايتمان هذه الحقيقة ، فهو يقرر أننا لا يجب أن نقرأ  
فيبر باعتبار أنه يرفض الاسس المنهجية التي وضعها ماركس ، وانما فيبر قد  
استكمل هذه الأسس وطورها (٢)، وهكذا يمكن القول أن فيبر وماركس

Gerth & Mills, *op. cit.*, p. 46.

Zeitlin, *op. cit.*, p. 112.

(1)

(2)



قد تبني اتجاهها تاريخيا - بنائيا ، وان كان كل منهما قد انطلق من وجهة نظر مختلفة في تفسيره لنشأة النظام الرأسمالي (١) .

والواقع أن الانجاز الفكري الذي قدمه ماكس فيبر يتميز بالشراء والتنوع (٢) بحيث يصعب على الدارس أن يعرضه أو يتناوله مثلما هو الأمر بالنسبة لعلماء آخرين من أمثال دور كايم أو باريتو ، ومع ذلك فقد صنف ريمون آرون أعمال فيبر على النحو التالي :

(١) انظر دراسة بالغة القيمة عن ماركس وفير في : السيد الحسيني ، اتجاهات علم الاجتماع في فهم مشكلات الدول النامية ، في دراسات في التنمية الاجتماعية ، تأليف د. السيد الحسيني وزملاؤه ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٧٤ ، ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) نستطيع ان نعطي القارئ صورة لاعمال فيبر التي ترجمت الى الانجليزية حسب ترتيب ظهورها في أمريكا على النحو التالي :  
*General Economic History*, (trans by Frank H. Knight) New York. Greendeng 1927, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, tr. by Talcott Parsons) New York. Scribner's, 1930, 1958). From Max Weber Essays in Sociology, (Tr. and ed. by Hans Gerth and G. Wright Mills) New York. Oxford University Press, 1946) *The Theory of Social and Economic Organization*, (Tr. by M. Henderson & Parsons). N. Y., Oxford, 1947. *The Methodology of the Social Sciences*, (Tr. by Edward Shils & Henry Finch) Glencoe, 1949, *The Religion of China*, (Tr. by Hans Gerth) Wirtschaft & Gesellschaft Glencoe, 1957, *Ancient Judaism* (Tr. by Gerth & Don Martindale) Glencoe, 1957 *Max Weber on Law in Economy and Society*, (Tr. by Shils & Max Rheinstein) Cambridge; 1944. *The City*, (Tr. by Don Martindale and Gertrud Neuwirth) Glencoe, 1968, *The Religion of India*, (Tr. by Hans Gerth and Don Martindale) Glencoe, 1958, *the Rational and Social Foundations of Music*, (Tr. by Don Martindale, Johannes Riede land Gertrud Neuwirth) Carbondale, 1958.

١ - دراسات في المناهج ، والنقد ، والفلسفة - وهي دراسات تتعلق أساسا بالعلوم الاجتماعية ، وبالتاريخ ، وعلم الاجتماع ، وهذه الدراسات تتميز بأنها دراسات تنتمي الى مجال نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ، أو أنها تسعى الى تطوير مدخل يفسر العلاقة بين العلم والفعل الانساني ، وقد ضمن هذه الدراسات مجموعة أبحاث له بعنوان : دراسة في نظرية العلم \*

٢ - أعمال تاريخية أساسا وتشمل دراسة علاقات الإنتاج في الزراعة في العالم القديم ، دراسة في التاريخ الاقتصادي العام ( وتمثل هذه الدراسة مجموعة محاضرات قام فيبر بالقائها ونشرت بعد وفاته ) ، دراسة متخصصة تتناول المشكلات الاقتصادية في ألمانيا أو أوروبا المعاصرة ، وبخاصة دراسته للموقف الاقتصادي في المقاطعات الشرقية بألمانيا ، والعلاقة بين الفلاح البولندي والطبقات الحاكمة الألمانية \*

٣ - دراسات في علم الاجتماع الديني ، وتبدأ بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية \* ثم قام فيبر بعد ذلك بدراسات مقارنة تناولت الأديان الكبرى والعلاقة المتبادلة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة ، والاتجاهات الدينية من جهة أخرى \*

٤ - هناك بعد ذلك الدراسة الهامة التي قدمها فيبر بعنوان الاقتصاد والمجتمع *Wirtschaft and Gesellschaft* ، وقد نشر هذا العمل الضخم بعد وفاته (١) \*

ومن العسير بالطبع أن نغطي كل هذه الأعمال في هذه المقدمة، ولهذا فسوف نكتفي في الصفحات القادمة بتناول الأفكار الرئيسية التي

(١) راجع : Aron, *op. cit.*, p. 185. See Also. Aron, *German Sociology*, Tr. by Mary and Thomas Bottomore, Glencoe, the Free Press, 1957.

ارتكزت عليها أعماله المختلفة ودراساته المتخصصة ، ومن ثم تكون نقطة البدء هي تحليل مفهوم العلم وتحديد فيبر للمناهج الملائمة للعلوم الاجتماعية . وسيحظى هذا الجانب بالذات باهتمام خاص ، نظرا لاعتقادنا بأن المنهج عند فيبر يشكل اسهاما عظيما من بين الاسهامات التي قدمها ، ويمكن أن ينطوي على توجيه جديد للبحوث الاجتماعية فيه من الاصاله والجدة ما لم يتحقق عند غيره من علماء الاجتماع ذوي النزعات المنهجية . ولم يضع فيبر مبادئه المنهجية وضعا تقليديا في صورة قواعد للبحث ، وإنما صاغ هذه المبادئ من خلال فلسفة خاصة تسعى الى الربط بين العلم والسياسة ، بين النموذج المثالي للعالم ، والنموذج المثالي لرجل السياسة . أما بقية أجزاء هذا التقديم فسوف نكرسها لعرض موقفه من علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي ، ثم دراساته المتخصصة فسي بعض الميادين التي سنختارها للعرض والتحليل لما لها من أهمية خاصة (١) .

## ١ - العلم ومنهجه :

ما العلاقة بين العلم والسياسة؟ وهل يستطيع العالم أن يكون رجل سياسة ؟ لقد كانت هذه المسألة ذات أهمية خاصة عند ماكس فيبر اذ أنه كان مولعا بالعمل السياسي ، ولكنه كان يشارك في هذا العمل من موقع الاستاذ . لقد لخص فيبر موقفه من هذه المسألة في مقالين له

(١) سيجد القارئ ان بعض الميادين لم نعرض لها بالتفصيل ، وإنما نوقشت في ثنايا البحث ، ونذكر بالذات موضوع البيروقراطية والسلطة ، وذلك لاننا عرضنا بالتفصيل لهذا الموضوع في مؤلفين سابقين لنا هما : علم الاجتماع السياسي ، وعلم اجتماع التنظيم ، ويمكن للقارئ أن يرجع اليهما .

هما : « السياسة كحرفة » و « العلم كحرفة » (١) . فالعالم يهدف الى صياغة قوانين تتعلق بالارتباطات السببية بين الوقائع ، أو أنه يسعى الى التوصل لتفسيرات شاملة وصادقة لما يدرسه من ظواهر ، وعلى هذا النحو يصبح البحث العلمي ضربا من السلوك العقلي الذي يصبو نحو تحقيق غايات محددة بوضوح ، وتتمثل هذه الغايات في اكتشاف الحقيقة المطلقة . وهنا يمكن القول ان غاية العلم قد تحددت على أساس حكم قيمي، ذلك الحكم هو ما أطلقنا عليه مصطلح «الحقيقة المطلقة أو العامة» . وهكذا ، أصبح السلوك العلمي هو في جوهره عبارة عن سلوك عقلي له علاقة بهدف معين من جهة ، وبقيمة من جهة أخرى . القيمة هي الحقيقة ، والعقلانية هي القواعد المنطقية للبحث التي لا بد من الاهتمام بها لكي نستطيع أن نثق في صحة النتائج . والواقع أن فيبر يدرك العلم بوصفه جانبا من العقلانية التي أصبحت سمة من سمات المجتمعات الغربية الحديثة ، اذ أن العصر الحديث هو الذي يملك أدوات الفهم العقلي الشامل لكافة الظواهر وطريقة عملها ، على نحو لم يتحقق في أي مرحلة تاريخية سابقة . وعلى ذلك ، فإن فيبر يحدد خاصيتين للعلم هما : (١) أن العلم لا يمكن أن يصل الى درجة الكمال ، (٢) أن العلم ينشئ الموضوعية ، ويسعى الى التحرر من أحكام القيمة . أما الخاصية الأولى

(١) راجع Weber, Politics as a Vocation and Science as a Vocation, in, Weber, *Essays in Sociology*, op. cit., Also see, Aron' op. cit., pp. 189-192. Also, Bennion, L. *Max Webers Methodology*, 1934.

(١) يرى بعض الدارسين أن فكرة فيبر عن الفهم مستعارة من كارل ياسبرز Karl Jaspers ، وبخاصة في الفترة التي كان فيها ياسبرز عالم نفس أو بالأحرى متخصصا في الامراض النفسية ( Aron, op cit., p. 197) . ويقول أرون لقد نشر ياسبرز في شبابه مقالا عن الامراض النفسية ( ترجم الى الفرنسية بواسطة جان بول سارتر ) وجوهر هذا المقال هو التفرقة بين التفسير والفهم . فالمحلل النفسي يفهم الحلم ،



فتعني أن فيبر يعتقد باستمرار أن العلم في تطور بحسب طبيعته الخاصة، فهو لا يتعلق بالقضايا ذوات الغايات المطلقة ، وإنما هو يتحرك نحو هدفه محاولا التجديد باستمرار في التساؤلات التي يطرحها ، وفي الأدوات والمناهج التي يستخدمها . وفيما يتعلق بالخاصية الثانية ، نلاحظ أن العلم يسعى باستمرار الى الالتزام بالموضوعية والى صياغة نسق من القضايا العامة الصادقة ، ولا شك أن ذلك ممكن حينما يستطيع العالم أن يتخلى عن أحكامه القيمة والجمالية وتفضيلاته السياسية ، ويعتقد فيبر أن كلا من العلوم الطبيعية والتاريخية الثقافية متساويان في ذلك ، لكن ذلك بالطبع لا يلغي الفروق بين هذه العلوم .

وهكذا ، ينتقل فيبر الى نقطة أخرى وهي تحديد طبيعة هذين النوعين من العلوم ، اذ يتصور العلوم الثقافية والتاريخية بوصفها ذات خصائص جد فريدة ، وربما ترجع اصالة هذه العلوم الى أنها تنشأ الفهم وتسعى الى تحقيقه ، وأنها ذات طبيعة تاريخية ، ثم هي تعالج مسائل ثقافية . أما مصطلح الفهم Verstehen (١) فان له معنى محدد عند فيبر سوف نتناوله فيما بعد بالتفصيل . ولكن يكفي عند هذه المرحلة أن نذكر أن فيبر يعتقد أن العلوم الطبيعية يمكنها أن تفهم الظواهر فقط من خلال القضايا الرياضية والقوانين التي تكتشفها عن الأحداث والوقائع



او العلاقة بين خبرات الطفولة المبكرة وظهور بعض الاضطرابات العصبية، ويعتقد ياسبرز انه على اول مستوى للشعور يمكن تطبيق نوع من الفهم المباشر للمعاني ، بينما هناك حدود أمام هذا الفهم ، فمن اليسير أن نفهم الأمراض العصبية ، وليس من الممكن دائما فهم الأمراض النفسية ومعنى ذلك كله أن السلوك يفهم داخل سياق معين ، ويعتقد آرون أن هذه التفرقة هي الأساس الذي استند عليه فيبر في فكرته عن السلوك الاجتماعي القابل للفهم نفس الطريقة التي يتبعها عالم النفس حين يفهم الحالة العقلية الكامنة خلف السلوك (Aron, Loc. cit.) .

الثابتة في الطبيعة • وبعبارة أخرى ، ان هذه العلوم عليها أن تصطنع التجربة في كل تفسير تصوغه لظواهرها لكي تحقق فعلا فهما لهذه الظواهر • على حين أن الفهم في المجال السلوكي مباشر وراجع الى الوعي الذي يتحقق عند الانسان والى خبرته بأقرانه في حياته اليومية • وتستطيع العلوم الخاصة بالواقع الانساني أن تصل الى فهم سريع للعلاقات المتبادلة بين الناس ، لكن ذلك لا يعني بالطبع أن الفهم المباشر للسلوك الانساني يلغي البحث في هذا السلوك أو أننا نستطيع أن نصل لأول وهلة الى معرفة كاملة للسلوك • ان الفهم عند فيبر يصل الى تفسيرات السلوك ، لكننا لا تمكن من معرفة حقيقة هذه التفسيرات الا اذا توصلنا الى دليل أو برهان يكشف لنا عن أي هذه التفسيرات حقيقي وأيها زائف •

وقد ذكرنا أيضا أن هذه العلوم ذات طبيعة تاريخية ، وترتبط هذه الطبيعة ارتباطا وثيقا بفكرة الفهم ، ذلك أنه من خلال التاريخ نستطيع أن ندرك خصوصيات الأحداث ، وتفاصيلها الجزئية ، كما تتصور في الوقت ذاته اتصال هذه الأحداث ببعضها في سياق الزمن، مثل هذا الفهم التفصيلي لا يمكن أن يتحقق للعلوم الطبيعية • ومن الملاحظ أخيرا ، أن هذه العلوم الانسانية هي في جوهرها علوم ثقافية ، اذ هي تسعى الى فهم وتفسير منتجات الانسان خلال التاريخ ، وليست هذه المنتجات هي الفنون وحسب ، وانما تشمل أيضا القوانين ، والنظم ، والأنظمة السياسية والاقتصادية والعلم والموسيقى وهكذا، يرى فيبر أن العلوم الثقافية تبذل جهدا لتفسير القيم التي آمن بها الناس ، والأعمال التي أنتجتها البشرية • والسؤال الآن هو كيف يمكن أن توجد علوم موضوعية — متحررة من أحكام القيمة — تختص بدراسة القيم الإنسانية •• ذلك هو التساؤل

الرئيسي الذي وضع فيبر منهج علم الاجتماع ككل للإجابة عليه <sup>(١)</sup> .  
ومن الجدير بالذكر أن القواعد المنهجية عند فيبر ليست مجموعة  
من أدوات البحث أو وسائل جمع البيانات وتحليلها ، وإنما المنهج عنده  
قريب من فلسفة العلم اذ هو يعالج المشكلات الاساسية للمعرفة الانسانية،  
طبيعتها ، حدودها ، امكانياتها . ويقول ارن ساهاي Arun Sahay  
في مقال له عن « أهمية المناهج عند فيبر في التفسير السوسيولوجي »  
( ١٩٧١ ) « ان المناهج التي قدمها فيبر كانت هي الوحيدة خلال تاريخ  
الفكر الاجتماعي التي قدمت حلا واضحا للمشكلات العملية - في مقابل  
المشكلات الميتافيزيقية والعاطفية - للتحليل السوسيولوجي » <sup>(١)</sup> ،  
ومن خلال مناهج العلوم الاجتماعية عند فيبر نستطيع أن نفهم تماما

(١) ان العلوم الثقافية - التاريخ وعلم الاجتماع - تهدف الى فهم  
السلوك البشري. المتبع بالقيم ، والعلم كما نعلم هو نشاط عقلي يهدف  
الى صياغة احكام واقعية ذات صدق عام . وهنا تبدو المشكلة وهي كيف  
يستطيع المرء صياغة احكام واقعية صادقة حول مسائل مثبعية بالقيم ؟  
ويمكن حل هذه المشكلة في التفرقة بين حكم القيمة Value-Judgement  
وبين مرجع القيمة Value-reference . فرجل السياسة أو  
المواطن على سبيل المثال يعتقد أن الحرية بمعنى أو آخر هي قيمة أساسية .  
أما القول بأن الحرية على وجه العموم أو حرية التعبير أو الفكر هي قيمة  
أساسية فهو حكم يعبر عن رأي شخصي ومن حق أي شخص آخر أن يقبل  
هذا القول أو يعتبر حرية التعبير ليست قيمة أساسية . أما مصطلح مرجع  
القيمة فهو يعني ببساطة - في المثال السابق - أن عالم الاجتماع السياسي  
سوف يعتبر حرية التعبير مسألة لم توافق عليها المعلومات التاريخية ، أو  
أنها كانت محور مناقشة بين الأحزاب ، بل هو يستطيع أن يحدد الواقع  
السياسي لها ، هنا يهتم عالم الاجتماع بالحرية كقيمة اجتماعية ينظم على  
أساسها موضوع دراسته . وللقيم بالطبع أهمية خاصة في اختيار وتنظيم  
موضوعات البحوث الاجتماعية . ومن هذا تبدو أهمية ربط القيم بالمادة  
التاريخية والاجتماعية راجع :

Aron, op. cit., p. 194, Alane Dawe, the Relevance of Value, in  
Arun Sahay (ed.), op. cit., p. 28.

Aron Sahay, the Importance of Webers Methodology in So- (٢)  
ciological Explanation, in Sahay, (ed.), op. cit., p. 67.

الكثير من النظريات والمبادئ التي صاغها رواد آخرون لعلم الاجتماع .  
ولعل أول مقولات المنهج عند فيبر هي مقولة الفهم ، والفهم عند  
فيبر ليس مرادفا للحدس التعاطفي الغامض الذي تحدث عنه غيره من  
الفلاسفة ، ولكنه فهم فكري ، وتحليلي ، وتفسير تنبؤي للسلوك . وإذا  
كان فيبر قد حاول أن يتغلب على التعارض بين العلوم الطبيعية والثقافية ،  
وأن يتخذ موقفا وسطا بين آراء كل من ديلتاي وريكرت ، فماذا أراد  
لمصطلح الفهم أن يحققه من أهداف في هذا الصدد ؟ إن الفهم عند فيبر  
يحقق هدفين اثنين فهو ، من ناحية ، يمكننا من معرفة الأسباب والعوامل  
التي تؤدي الى حدوث الظواهر الاجتماعية ، وذلك من خلال صياغة فئات  
سوسيولوجية عامة ، وهو من ناحية أخرى ، يمكننا من ادراك المعاني  
الذاتية التي تنطوي عليها الأفعال الانسانية . وهكذا ، يتعين أن يكون  
الفهم — في رأي فيبر — فهما ملائما سببيا ، وملائما أيضا على مستوى  
المعنى <sup>(١)</sup> . ويتحقق النوع الأول من الفهم من خلال تفسير سلسلة من  
الأحداث في ضوء تعميمات تكشف امكانيات ظهور هذه الأحداث في  
مواقف متعددة . أما الفهم الملائم على مستوى المعنى فهو يستند الى  
الحقيقة التي مؤداها ، أن الكائنات الانسانية على وعي مباشر بأفعالها ،  
وأنا حينما ندرس العلاقات المتبادلة بين الناس نستطيع أن نذهب الى ما  
وراء العلاقات السببية والوظيفية ، اذ نستطيع فهم النوايا والمقاصد الذاتية  
للناس ، وطالما أن « الفعل Action » هو الاطار المرجعي التحليلي

---

(١) يقول جون ركنس ان محاولة فيبر للربط بين مستويين للفهم هي  
في الواقع محاولة لعبور الفجوة بين الفهم والتفسيرات الاجتماعية  
والوظيفية ، وقد عرضت هذه المحاولة أعمال فيبر لانتقادات عديدة . اذ  
انتقده الفلاسفة والمدرسة الفينومينولوجية في علم الاجتماع الحديث على  
أساس انه لم يحاول أن يحدد بشكل علمي مفهوم المعنى ، كما انتقده  
الوضعيون باعتباره يستخدم تصورات ميتافيزيقية غير محققة . ولذلك

←



عند ماكس فيبر ، فإن المعاني تصبح ذات قيمة خاصة ، ويبدو ذلك واضحا من مقارنة سريعة بين مفهوم الفعل ومفهوم السلوك Behavior ، فالأخير يشير الى التصرفات التي يلاحظها المرء من الخارج ، والتي تختلف عن « الدافع » الكامن الذي لا نستطيع أن نلاحظه وإنما نكتفي باستنتاجه من السلوك ، أما مصطلح الفعل فإنه يتضمن كلا من الدافع والسلوك الظاهر ، حينما يرتبطا معا في علاقة بين الوسائل والغايات . ومن ثم يمكن القول ان أي سلوك يصبح عديم المعنى اذا ما جردناه عن الدافع الذي يحركه ، تماما مثلما نقول اننا لا نترك الدافع الا من خلال السلوك الظاهر .

واذن ، فلكي نفهم الفعل الاجتماعي ، يرى فيبر أنه ينبغي أن نربط السلوك المباشر ، بالسلوك التاريخي ، من خلال اطار تحليلي واحدا (١) . ولقد كان هذا الاطار مصدر خلط لدى كثير من علماء



يعتقد كثيرون اننا بحاجة الى نظام فلسفي يمكنه أن يفرق بين السلوك الذي تحكمه قواعد محددة وبين اشكال السلوك الاخرى ، وهذا بالطبع يتطلب ادراكا لتعريف الفاعل للموقف الذي يعيشه . والواقع أن فيبر قد أدخل نفسه في دائرة مغلقة . اذ كيف نستطيع أن نجعل التفسيرات ذوات المعنى عبارات احصائية احتمالية ؟ ولهذا اضطر كثيرون من تلاميذ فيبر بعد ذلك الى اختيار أحد الاتجاهين اما الاهتمام بالمعنى أو السبب نحو صياغة عبارات احصائية تؤكد الناحية العلمية الوضعية . ولا شك أن فيبر نفسه لم يكن يقصد أن يحدث هذا الاختيار ، وإنما كل ما يريده هو ان يحتفظ لعلم الاجتماع بطابعه المميز والا يقبله في الوقت ذاته عن دائرة العلوم الوضعية . راجع :

Rex, Typology and Objectivity; A Comment on Webers Four Sociological Methods, in Sahay, *op. cit.*, pp. 23. 24.

(١) انظر دراسة هامة : and : Robert Noore, History, economics : religion. A Review of the Max Weber Thesis, Thesis in Sahay *op. cit.*, pp. 82. 96.

الاجتماع ، وبخاصة الذين تصوروا أن السلوك المباشر ، هو سلوك حالي ، مصدره سيكولوجي ومستقل تماما عن السلوك التاريخي . بذلك ينفصل علم النفس عن التاريخ تماما . والاكثر من ذلك أن هؤلاء العلماء قد قدموا ثلاثة تعريفات لعلم الاجتماع . النوع الأول من هذه التعريفات صاغه أولئك الذين اعتبروا التاريخ لا يزيد عن مجرد سلسلة من التواريخ والاسماء ، فبينما كان علم النفس عندهم هو المصدر النهائي للتحليل السوسيولوجي ، يصبح علم الاجتماع حدسيا وهادفا الى الفهم التعاطفي لسلوك الناس ودوافعهم ، التي تتمثل في صورة أنماط عامة - ومثالية للفعل . والنوع الثاني من التعريفات هو ذلك الذي يتصور علم الاجتماع على شاكلة التاريخ ، ولكنه يستند أساسا الى قاعدة المقارنة . وهناك ثالثا وأخيرا تلك التعريفات التي ترفض تبعية علم الاجتماع لكل من التاريخ وعلم النفس ، وتعتبر السلوك الاجتماعي يمثل واقعة ، قائمة بذاتها ، يتعين أن تركها تتحدث عن نفسها ثم نعالج النظرية ، والتحليل ، والموضوعية ، والقيم كعناصر مقننة يمكن اخضاعها للقياس الدقيق ، وإذا كانت هذه التعريفات تركز جميعا على الاطار التحليلي أي العلاقة المنطقية بين النظرية ، والموضوعية ، والقيم ، والوصف ، والتفسير ، فإن فيبر يركز أيضا على هذه العلاقة ذاتها ، ولكنه يجعل نقطة البدء عنده هي عملية التفسير. مؤكدا باستمرار أننا لا نلاحظ السلوك ونصنفه لمجرد

---

قدم مور عرضا في هذا المقال للاهتمامات التاريخية عند ماكس فيبر مستعينا بكتابات المؤرخين أنفسهم ، ولقد تبدى البحث التاريخي واضحا في أعمال ماكس فيبر عن الدين والاقتصاد ، إذ يقول فيشكوف Fischoff « أن الأعمال التاريخية عند فيبر تهدف أساسا الى فهم الثقافة الغربية المعاصرة ، وبخاصة الرأسمالية المعاصرة » انظر :

E. Fischoff, the Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, the History of a Controversy» in. 8. No. Eisenstadt, *the Protestant Ethic and Modernization*, Basic Books, 1968. p. 71.

القيام بهذه العمليات الأولية ، وإنما كل دراسة للسلوك يتعين أن تكون دائما في ضوء الدافع السيكولوجي أو الاجتماعي لهذا السلوك ، والا أصبحت دراسة خالية من المعنى •

هكذا تتضح لنا أهمية « المعنى » عند دراسة الفعل الاجتماعي ، وربما كان ذلك هو سبب تأكيد ماكس فيبر لفكرة الفهم الذاتي Subjective Understanding فالسلوك الخالي من المعنى الذاتي يظل دائما على هامش الدراسة السوسيولوجية ، إذ أن الفهم منهج للتفسير ، وهو بهذه المثابة مدخل فريد للعلوم الثقافية لأنه يتعلق بالإنسان أكثر من أي شيء آخر ، فالإنسان هو القادر على فهم مقاصده الخاصة بواسطة الاستبطان ، وهو كذلك الذي يستطيع أن يفسر دوافع الآخرين من خلال معرفة مقاصدهم (١) •

وهناك طريقتان يتحقق بهما الفهم : الطريقة الأولى هي الطريقة العقلية ، وفيها تتبع سلسلة من الأفعال بهدف معرفة القصد الذاتي منها . والطريقة الأخرى هي الطريقة الوجدانية ، ونسير فيها مع تيار العاطفة خطوة خطوة ، لكي نصل في النهاية أيضا الى تفسير لما يقصد اليه الفاعل • على أن كلا الطريقتين يحقق لنا فهما على مستوى المعنى • ففي الطريقة الأولى نعتمد على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتي المتضمن في فعل معين ، كأن ندرك مثلا ما يعنيه شخص معين حينما يردد القضية الرياضية  $(2 \times 2 = 4)$  ، كما أننا نفهم أيضا ثورة غضب حينما تتجلى في تعبيرات الوجه لدى شخص معين • لكن الفهم قد يكون من النوع

(١) راجع في ذلك : Alpert, H. «Robert Macivar's Contributions of: Sociological Theory» in Berger & Page (eds.), *Freedom and Control in Modern Society*, N.Y. 1954, p. 290. Also see, Weber, *Essays in Sociology*, p. 52.

التفسيرى، حينما ينفذ الى الدافع - كما ذكرنا - وهنا نستطيع أن ندرك ماذا يدفع شخصا بالذات الى اتيان سلوك بعينه (١) . ويضرب فير العديد من الأسئلة على استخدام هذه الطرق في الفهم ، فهو يقول : « اننا نفهم فعلا معينا مثل قطع الأخشاب » أو تصويب السلاح نحو هدف ما ، على أساس من الملاحظة المباشرة والدافع معا ، اذا عرفنا أن القائم بقطع الأخشاب انما يقوم بهذا العمل بقصد الحصول على الأجر . أو لاستخدام الأخشاب في مصلحة خاصة ، أو انه يقوم بهذا العمل لمجرد تمضية الوقت ، وقتل الملل . كما أننا نفهم أيضا ، الدافع الذي يحرك شخصا يصوب سلاحه نحو هدف معين ، اذا عرفنا أنه يشترك في الحرب ضد العدو ، أو انه يفعل ذلك بقصد الانتقام من شخص ما » (٢) .

ويختلف ادراكنا للمعاني باختلاف أنماط الفعل الاجتماعى ، ففي حالة الفعل غير العقلي irrational أي الذي تحكمه العاطفة نستطيع أن ندرك المعنى من خلال المشاركة الوجدانية ، وقد يلجأ المرء في هذه الحالة الى الخيال ليتصور نفسه في موضع الفاعل ، « فليس من الضروري أن يصبح المرء قيصر ، لكي يفهم سلوك القيصر » (٣) . ونحن نبلغ أعلى درجات الفهم العقلي للمعاني حينما نكون بصدد القضايا المنطقية والرياضية ، لأنها قضايا واضحة بذاتها، ويقرب من ذلك المستوى فهنا للفعل الهادف عقليا Rationally Purposive ، لكننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن هناك أنماطا من السلوك ذات المعنى قد تبدو في كثير من الأحيان كما لو أنها خالية من المعنى (٤) ، ويتضح ذلك بصفة

Bogardns, E. *The Development of Social Thought*, (N.Y. (1)  
David McKay, inc. 1964) p. 749.

Max Weber; *Theory of Social and Economic Organization*, (2)  
p. 102.

Ibid., p. 90 (٣)

Martindale, *op. cit.*, p. 385. (٤)

خاصة في حالة السلوك التقليدي ، ذلك أن التعود على هذا السلوك يفقده معناه . أضف الى ذلك كله أن هناك خبرات شخصية جدا يتعذر تفسير معانيها ، من ذلك مثلا خبرة أشخاص معينين بالسحر (١) .

غير أن تحليل فيبر للفهم على النحو السابق يثير مسألة العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس بشكل واضح ، اذ قد يتصور البعض أن فيبر على هذا النحو قد طمس الخط الفاصل بين العلمين ، وقد جعل علم الاجتماع بالتالي تابعا لعلم النفس . الواقع أن فيبر لا ينكر الدور الذي يلعبه علم النفس في التفسير السوسيولوجي ، لكن ذلك لا يعني أنه

(١) كتب تيودور ابل Abel مقالا يحلل فيه عملية الفهم في اطار علم نفس أكثر موضوعية ، فذهب الى أن الفهم هو في الواقع تفسير داخلي لعوامل التي نلاحظها ، باعتبار أن أحد هذه العوامل هو المثير والآخر هو الاستجابة ، وهذا بدوره يمكننا من تحقيق تكامل أفضل بين طرق دراسة الحالات الفردية وبين القضايا التي تكشف عن انتظام احصائي ، ويضرب مثالا على ذلك بقوله : « ان البحث الاحصائي قد أسفر عن ربط بين معدل الانتاج السنوي للمحاصيل وبين معدل الزواج » وإذا كنا نسب بأن تكاليف رفع معدل الانتاج تقلل من دخل الفلاح ، وأن ثمة التزامات جديدة مرتبطة بالاقدام على الزواج ، فاننا يمكن أن نفسر الواقعة الاولى داخليا بأنها تشير الى شعور بالقلق ، وأن نفسر الواقعة الثانية بأنها تعكس خوفا من الالتزامات الجديدة ، كما نستطيع أن نطبق في الوقت ذاته قاعدة عامة للسلوك مؤداها ، أن الافراد الذين يشعرون بالقلق يتخوفون من الاقدام على افعال جديدة ، وبتطبيق هذه القاعدة على ما نلاحظه من انخفاض في معدل الزواج المصاحب لنقص المحصول نقول اننا نفهم الارتباط بين الواقعتين »

See, Abel, «the Operation Called Verstehen» J. A. S., November 1948, p. 221 ff.

ولا شك أن فيبر حينما طور تصوره عن الفهم كانت في ذهنه حالات أبسط من هذه الحالة . ولكن الاجراء سوف يظن كما هو سواء كانت هذه الحالات بسيطة أم معقدة ، اذ أننا يجب أن نتخيل الدافع وراء كل فعل صادر عن فرد أو جماعة . وهذا هو ما عبر عنه ماكيفر ؟ بمصطلح إعادة البناء التخيلي Imaginative Reconstruction ( انظر : Macivar, Social Cansation, Boston, 1942, p. 258.

يوافق على تبعية علم الاجتماع لعلم النفس • اذ أن فيبر يعتقد أن تلك الانماط المركبة للعلاقات الجماعية انما تتخذ لها تشكيلا بنائيا خاصا ، بحيث يتعذر علينا فهم خصائصها بتحليل العناصر المتضمنة فيها • وانما التحليل لا بد أن يكون على المستوى الجماعي أيضا ، وهو نوع من التحليل ضروري في الواقع لفهم العناصر المكونة لهذه المركبات • والأمر كذلك بالنسبة للمجتمع وجماعاته وطبقاته ، وأعضائه • وقد كتب فيبر عن ذلك بوضوح حين قال « ان الاجراء الاساسي لا يتمثل في البدء بتحليل الخصائص النفسية ، ثم الصعود بعد ذلك لتحليل النظم الاجتماعية ، ولكن على العكس تماما ، فان الاستبصار بالظروف النفسية والتأثير المصاحبة للنظم يفترض بداءة معرفة محددة بهذه الأخيرة ، وبالتحليل العلمي لبنائها » (١) • ويؤكد فيبر أهمية علم النفس الاجتماعي حيث يقول « في الحالات الملموسة ، يمكن أن يسهم التحليل السيكولوجي اسهاما عظيم القيمة في تعميق معرفتنا بالشروط التاريخية والثقافية ، وبالأهمية الثقافية للنظم • فمن خلال البحث النفسي الاجتماعي ، مع معرفة النظم المختلفة كل على حدة كنقطة بدء ، سوف تتمكن من زيادة فهمنا بالنظم بطريقة نفسية ، لكننا مع ذلك ، لا نستنبط هذه النظم من القوانين السيكولوجية أو أن نفسرها بواسطة ظواهر نفسية أولية » (٢) •

هكذا ، نخلص من تحليل مقولة الفهم عند فيبر الى أنه يستبعد تماما امكانية استخلاص القوانين السوسيولوجية من المبادئ النفسية ، فهو يؤكد أن الخطأ يكمن في تصورنا للظواهر على أنها اما أن تكون نفسية أو فيزيقية ، على حين أن هناك عالما آخر هو عالم المعاني أو الأفكار ، ولا يجب أن نبحت فقط عن المعاني الفردية ، وانما يتعين أن نعرف المعنى

Weber, *the Methodology of the Social Sciences*, p. 88. (1)

٦٨—٨٨ 'dd 'p!q (٢)

الشائع ' average الذي يعزى الى مجموعة من الأفراد • على أن علم الاجتماع يجب أن يربط بين المعاني والأسباب باستمرار ، ذلك أن الاكتفاء بمعرفة الأسباب فقط سوف ينتهي بنا الى صياغة احتمالات احصائية غير مفهومة • فلا مانع اذن من أن ينهض منهج علم الاجتماع على ركزتين هما : البحث السببي ، والبحث عن المعاني • وهذه ضرورة تملئها طبيعية الظواهر الالفاسفية التي تدرسها ، فالسلوك الانساني توجهه المعاني ، وهذه الأخيرة تعتبر سببا رئيسيا من أسباب هذا السلوك • وهنا بالذات يتمثل الفارق واضحا بين العلوم الاجتماعية والثقافية وبين العلوم الطبيعية •

والواقع أن اهتمام فيبر بالمعاني ، واتباعه لطريقة الفهم الذاتي في الدراسة السوسيولوجية ، ثم تأكيده ضرورة الوصول الى تفسيرات سببية ، قد أدى به كل ذلك الى صياغة مقولة منهجية هامة هي النموذج المثالي Ideal Type (١) • ولقد كتب فيبر في هذا الصدد يقول : « ان نموذج العلوم الاجتماعية الذي نهتم به هو العلم الاميريقي بالظواهر الملموسة • وهدفنا هو فهم الخصائص الفريدة للواقع الذي تتحرك فيه • اننا نرغب أن نفهم العلاقات بين الأحداث الفردية ومغزاها الثقافي في صورها المعاصرة من جهة ، وأسباب وجودها تاريخيا من جهة أخرى » (٢) • وهكذا ، تصبح مهمة عالم الاجتماع هي صياغة منهج يستطيع به أن يتوصل الى فهم سببي دقيق للواقع الاجتماعي ، والأشكال الاجتماعية - التاريخية التي تشكل جوهر المعرفة ، ويتمثل هذا المنهج في تشييد النماذج المثالية •

Sahay, op. cit., p. 72.

(1)

Sahay, op. cit. p. 70.

(2)

ولقد استعان فيير بخصائص مفهوم الفهم الذاتي التي طورها كل من ريكتر وديلتاي بوضوح خلال تحليلاتهما الفلسفية المختلفة لصياغة النموذج المثالي • وتنقسم هذه الخصائص الى مجموعتين المجموعة الأولى تشمل الصور الفردية Individualising والمجموعة الثانية تتعلق بالصور التعميمية Ganeralizing • وتتضمن المجموعة الأولى خاصيتين هما : (أ) أن يكون النموذج المثالي قادرا على ايضاح خصائص فعل أو حادثة معينة • (ب) أن يكون النموذج المثالي في المستوى الذي يمكنه من تصوير الأفكار المتضمنة في الفعل تصويرا واضحا ومنسقا • أما المجموعة الثانية فتتطوي على خاصيتين هما (أ) النموذج المثالي هو الذي ينظم الوقائع ويربط بينها على نحو يسمح باستخلاص العلاقات السببية بينها (ب) النموذج المثالي يحدد المفاهيم الأساسية الخاصة بالصفات العامة للفعل الاجتماعي في صورته الخاصة • على هذا النحو حدد ماكس فيير النموذج المثالي على اعتبار أنه « وصف متسق منطقيا ، من وجهة نظر محددة ، قادر على توضيح العلاقة بين الوسائل والغايات بالنسبة للأفعال ، والأحداث ، وعملية تفسير الأفكار ، بحيث يمكن الباحث من ترجمة الأفكار الجزئية المتناثرة والتفسيرات والارتباطات الى مصطلحات علمية مفهومة » (١) •

ولقد كانت النماذج المثالية عند فيير بمثابة التعبير الواقعي لمبدأ العقلانية في علم الاجتماع ، والذي يعد الاسهام الرئيسي الأصيل لفيير في التحليل العلمي • فمحتوى النموذج نسبي دائما ، ومهمة التحليل السوسيولوجي أن يكشف عن أي العناصر النموذجية الموضوعية صادق تماما ، بحيث يمكن استخلاص السبب الحقيقي للأحداث أو الأفعال •

Sahay, op. cit., p. 12.

(1)



ومن ناحية أخرى ، فلاحظ أن النموذج لا يتضمن عناصر مجردة فحسب، ولكنه يحدد النمط المعياري ، وفي ذلك يقول فيبر : « ان بناء نمط عقلي خالص للفعل ... يخدم عالم الاجتماع كنموذج ، ... بحيث أن المقارنة على أساسه تجعلنا نفهم الطرق التي يتأثر من خلالها الفعل الواقعي بعوامل غير عقلية من كل الأنواع . ويجب أن نأخذ في الاعتبار الانحراف عن خط السلوك الذي يمكن توقعه بناء على الافتراض القائل بأن الفعل عقلي خالص » (١) .

ورثة فقرة هامة وردت في مقال فيبر عن الموضوعية في العلوم الاجتماعية يشرح فيها طبيعة النموذج المثالي اذ كتب يقول : « ان هذا النمط التصوري يربط بين مجموعة علاقات وأحداث الحياة التاريخية داخل نسق معقد يتسم بالاتساق الداخلي . ومن الناحية المادية ، يشبه هذا المفهوم اليوتوبيا utopia التي تصل اليها عن طريق تحليل تجريدي لبعض العناصر الواقعية . أما علاقة هذا المحتوى بالبيانات الامبيريقية فتشمل فقط في أن العلاقات التي يشير اليها النمط من خلال مفاهيمه المجردة انما هي مستمدة من الواقع ، وان كانت لا تتحقق بصورة واقعية ، ونستطيع أن نجعل الملامح الخاصة بهذه العلاقات واضحة (٢) ومفهومة عمليا بالرجوع الى النموذج المثالي . ولا يمكن الاستغناء عن هذا الاجراء سواء في أغراض العرض أو التفسير . ويفيد مفهوم النموذج المثالي في تطوير مهارات البحث، وهو ليس فرضا، ولكنه يساعد في تنسيمة الفروض وصياغتها ، كما أنه لا يصف الواقع ، وانما يهدف الى تقديم وسائل واضحة للتعبير عن هذا الوصف ... ويتكون

Weber, Methodology, p. 15

(١)

«Objectivity in Social Science and Social Policy»

(٢)

in Weber, The Methodology, op. cit., pp. 49—112.

النموذج المثالي من خلال تجريد وجهة نظر أو أكثر، والتأليف بين مجموعة كبيرة متنوعة من الظواهر الفردية الملموسة، ثم ترتيبها وفقا لوجهات النظر هذه داخل بناء منطقي تحليلي . وهذا البناء العقلي لا يتحقق في الواقع امبيريقيا بصورته الخالصة ، انه يوتويا كما ذكرت . ويواجه البحث التاريخي مهمة تحديد مدى اقتراب الواقع من النموذج المثالي أو ابتعاده عنه في كل حالة فردية . مثال ذلك الى أي مدى يمكن تصنيف البناء الاقتصادي لمدينة معينة على أساس النموذج المثالي لاقتصاد المدينة . وحينما تطبق هذه النماذج بعناية لتصبح مفاهيم بالغة القيمة في البحث والدراسة » (١) .

- لا شك أن الفقرة السابقة تتضمن كافة العناصر التي يتألف منها النموذج المثالي عمليا ، ويمكن تحديد هذه العناصر على النحو التالي :
- ١ - النموذج المثالي هو بناء فرضي لمجموعة من العلاقات الاجتماعية ( نسق الفعل الاجتماعي ، والتشكيل الاجتماعي ) بحيث يمكن بواسطته تفسير هذه العلاقات سببيا وفهمها .
  - ٢ - ليس النموذج وصفا لتلك العوامل أو القوانين التي نعتقد أنها توجد بشكل « متوسط » ، على الرغم من أن هذه العوامل أو القوانين يمكن التوصل اليها بالاستعانة بالنموذج .
  - ٣ - لا يقصد بالمثالية هنا أي مضمون أخلاقي يتعلق بالخير أو الحق .

٤ - ان النموذج عقلي ومثالي بمعنى أنه أداة تصورية ومنطقية يمكن الاستعانة بها في دراسة حالات واقعية تقارن بالخصائص التي يتضمنها النموذج ، ومن خلال هذه المقارنة تتحدد آفاق جديدة للبحث .

٥ - لا يقدم النموذج وصفا شاملا للظواهر الواقعية ، ولكن النموذج يؤكد وجهة نظر معينة بالذات ، ومن ثم يمكن صياغة عدد كبير من النماذج المثالية التي يختص كل منها بناحية معينة من نواحي الحياة الاجتماعية .

٦ - النموذج المثالي انتقائي لأنه يتكون من مفردات فرضية يحددها الباحث بنفسه لكي تكون أساسا تنهض عليه عملية المقارنة ، هذا فضلا عن أن النماذج المثالية تقدم صورة نموذجية للواقع ومن هنا كانت تحتل مكانة استراتيجية في البحث الواقعي والتفسير ، لأنها توضح في ضوء المعرفة العلمية التي يتحصل عليها الباحث في وقت اجراء دراسته . وفي ضوء المواقف الأمبيريقية التي يحاول أن يفهمها . ويفتقد النموذج المثالي أهميته أو فائدته حينما يستطيع الباحث أن يحقق هذا الفهم ، وتصبح أهميته قاصرة فقط على كونه دليلا يمكن أن يسترشد به باحث آخر في بنائه لنموذج مثالي على شاكلته (١) .

٧ - النموذج المثالي الذي يطالب به فيبر يتسم بأنه عام ومجرد في الوقت ذاته . وليس معنى ذلك أن الباحث يقوم ببنائه في ضوء قدرته على التخيل فحسب ، ذلك أن فيبر لا يطالب بابتداع نموذج نظري أو مثالي مطلق ، وإنما كل ما هنالك هو أن النموذج لا يصف فعلا معيناً بالذات ، وإنما يصف أسلوباً نموذجياً معيارياً للفعل يفترض أهدافاً معينة وطرائق للاتجاه المعياري ، ومعنى ذلك كله أنه يمثل بناءً عاماً تصنف على أساسه الحالات الواقعية ، وهذه الحالات تصنف ما يطلق عليه فيبر « أسلوب الفعل الممكن موضوعياً » (٢) .

Weber, Methodology, p. 94.

(1)

Weber, Methodology p. 43.

(2)

هذا ، وقد استعان فيبر بالنماذج المثالية في دراساته المتخصصة ،  
ونستطيع أن نحدد ثلاثة مجالات برز فيها استخدام النماذج المثالية ،  
وهذه المجالات هي :

(أ) النماذج المثالية التي تختص بمسائل تاريخية مثل الرأسمالية أو المدينة  
الاوربية الغربية . وهذا المثالان يعبران عن نوع معين من النماذج المثالية هو  
ذلك الذي يختص ببناء صيغة مفهومة لواقع تاريخي يتسم بالشمول  
والخصوصية في الوقت ذاته . أما الشمول فيتضح من أن مصطلح  
الرأسمالية يمثل نظاما اقتصاديا عاما ، وتبدو الخصوصية أيضا في أن  
الرأسمالية كما حددها فيبر انما تتحقق في المجتمعات الغربية الحديثة .  
وسوف تظل النماذج المثالية ذوات الطبيعة التاريخية بناءات جزئية فقط  
طلما أن عالم الاجتماع يختار مجموعة سمات من العملية التاريخية الكلية  
لكي يصوغ وحدة مفهومة ، بالطبع لا تستوعب الواقع فسي شموله .  
أما النوع الثاني هو النماذج المثالية التي تتعلق بعناصر مجردة من  
الواقع التاريخي ، وهي عناصر تتحقق في عدد كبير من الحالات . وحينما  
تصاغ هذه العناصر المجردة في بناء نموذجي فهي تمكننا من فهم العمليات  
التاريخية الكلية . والفارق جوهري بين هذه النماذج وبين النماذج التي  
تنتمي الى النوع الأول ، فعلى حين أن الأخيرة تختص بنظم عامة ولكنها  
قاصرة على مجتمعات بعينها أو حقبات تاريخية مخصوصة ، فإن  
نماذج هذه الفئة الثانية تختار نظاما أو جانبا من نظام سياسي أو اقتصادي ،  
يمكن أن نعر على أمثلة له في كافة عصور التاريخ ، وبين مختلف  
أنواع المجتمعات الانسانية ، واذا كنا قد ضربنا مثالا للنوع الاول بالرأسمالية  
الغربية ، فاننا نضرب مثالا للنوع الثاني بطواهر مثل البيروقراطية ،  
والإقطاعية ونماذج السلطة : العقلية ، والتقليدية ، والكاريزمية .

(ب) النماذج المثالية التي تستهدف إعادة البناء العقلي لنوع معين من السلوك ويضرب فيبر مثالا على هذا النوع بكافة فضايا النظرية الاقتصادية التي تعالج السلوك بوصفه سلوكا منطقيا يهدف الى غايات محددة ، وربما كان التساؤل الذي يتعين وضعه عند هذه النقطة هو كيف كان فيبر يقوم ببناء تلك النماذج المثالية التي تختلف باختلاف المضمون الذي تعالجه ؟ ان الاجراء الذي يتبعه فيبر يتلخص بداءة في الكشف عن القيمة الكامنة ، الفعل ومع ذلك بيان أهمية الفعل أو معناها الذي سيتضح للتحليل وهذه الأهمية اما أن تكون شخصية ، أو سيكولوجية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية . ولسوف يتضح ذلك من خلال تفسير الفعل الاجتماعي . وجدير بالذكر أن علم الاجتماع لا يحلل فعلا ملموسا بالذات، وانما يهتم علم الاجتماع بتفسير مجرى الفعل - وهذه النقطة بالذات هي التي جعلت فيبر قريب الشبه في تصوره من باريتو من جهة ، ومختلفا عن السلوكية المعاصرة من جهة أخرى . وطالما أن التفسيرات هي المادة الخام لعلم الاجتماع ، فان ذلك من شأنه أن يجعل المسائل المتعلقة بالقيمة ، والمعنى ، والفهم واضحة كل الوضوح . كما أن ذلك يكشف أيضا عن نوع من التكامل بين مصادر المعرفة الاجتماعية المختلفة التي تمثل أسس التحليل السوسيولوجي وهي : التاريخ ، والبحث الاجتماعي ( السوسيوجرافيا ) والأثروبولوجيا الاجتماعية ، اذ سوف تجتمع هذه المصادر في اطار علم الاجتماع (١) .

والخطوة الثانية في التحليل السوسيولوجي عند فيبر هي تحديد معيار المقارنة في النموذج المثالي ، وعلى ضوء هذا المعيار تقارن بين التفسيرات المختلفة بحيث تتمكن من تحديد ارتباط السبب بالوقائع سواء كان هذا الارتباط داخليا أم خارجيا .

Sahay, op. cit., p. 73.

(1)

والمرحلة الثالثة هي التعميم من هذه الارتباطات السببية بين الظواهر • وعلى أساس ذلك نصل الى الخطوة الأخيرة ألا وهي التجريد الذي يمكننا من التنبؤ بالتغير الاجتماعي • ولهذه النقطة أهميتها لأن علم الاجتماع عند فيبر يتعين أن يوظف لفهم عمليات التغير الاجتماعي، فالتعريفات ، والمفاهيم ، والمقولات ، والتصنيفات كلها أدوات تستخدم لتحقيق هذا الفهم •

هكذا ، أوضح لنا فيبر في دراساته أن النماذج المثالية هي وسائل نستطيع من خلالها أن نفهم العالم الواقعي المحيط بنا ، والذي حظى باهتمام فيبر الأكبر ، بل ان النماذج تستمد أهميتها من هذه الوظيفة ، اذ لا ضرورة لها اذا كان العالم يعرض نفسه أمامنا بطريقة يمكننا من الوصول الى التعميمات بسهولة • والواقع أن الفائدة الأساسية للنموذج المثالي انما تتمثل في كونه أداة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة أو المواقف الواقعية ، كما أنه بما يتضمنه من مفاهيم محددة يمثل أداة تحليلية نخدمنا في السيطرة الفكرية على البيانات الواقعية • في ضوء ذلك أكد فيبر أن صياغة هذه النماذج المثالية ليست في حد ذاتها هدف العلم الاجتماعي • ولكن هذه النماذج تمثل وسائل أو أدوات لتحليل المشكلات التاريخية ، أضف الى ذلك أن هذه الأدوات ليست مطلقة • وانما هي متغيرة بتغير المشكلات التي تدرسها ، وبتنوع القيم والمصالح والاهتمامات العلمية للباحث (١) •

(١) عقد الكسندر فون شلتنج A. V. Schelting مقارنة بين الاسهام المنهجي لماكس فيبر واسهام كارل مانهايم الذي تمثل أساسا في صياغته لعلم اجتماع المعرفة وتطوير الاهتمامات الذاتية والفلسفية في علم الاجتماع ، اذ قدم مانهايم في رسالته للدكتوراه عام ١٩٢٢ بعنوان « التحليل البنائي لنظرية المعرفة The Structural Analysis of Epistemology » - قدم تصويره عن التقنيين Systematization



وثمة ملاحظتان منهجيتان يتعين الإشارة إليهما بعد العرض السابق  
لمنهج العلوم الاجتماعية عند فيبر : الملاحظة الأولى أن طريقة فيبر في  
البحث قد أسفرت عن تطور ما يسمى « بالتجربة التخيلية Imaginative  
Experiment ، ولقد كان لهذا المصطلح دوره بعد ذلك في النظرية  
الاجتماعية المعاصرة ، وبخاصة بعد أن استخدم رايت ميلز مفهوم « الخيال  
السوسيولوجي Sociological Imaginativim » كأداة رئيسية  
في البحث (١) \* والملاحظة الثانية أن فيبر قد دعم المنهج المقارن على نحو



ويقوم هذا التصور على وصف لعملية الاستدلال ، لكن مانهايم ذهب بعد  
ذلك الى القول بأن كل مفهوم أو تصور هو حلقة وصل في سلسلة لا  
متناهية من الافكار ، يضاف الى ذلك أن هناك مجالات مستقلة ثلاث  
للحقيقة هي : الانطولوجية ، والسيكولوجية ، والمنطقية . ولكن طالما ان  
هناك العديد من النظريات التي يقبلها الناس ، فانها جميعا تعتبر صحيحة  
اذ ان معيار الحكم على المعرفة هو الموقف القيمي للفرد بالنظر الى الزمان  
والمكان ، وهكذا أصبح علم اجتماع المعرفة عنده هو تحقيق لتلك الافكار  
المتنافيزيقية والمعرفة مضافا اليها عنصر انساني هام يتمثل في أن  
الانتلجنسيا Intelligentsia هم دعاة المعرفة العقلية . وتنحصر  
اسهامات مانهايم لعلم الاجتماع الحديث في النقاط التالية (١) العبارات  
المسبقة هي صحيحة طالما أن أشخاصا معينين قد وضعوها حول مسائل  
محددة ، و (ب) كافة المعطيات الاجتماعية هي أجزاء من البناء النظري ،  
و (ج) عالم الاجتماع لا يستطيع أن يتحرر من بحثه ، و (د) ومع ذلك كله  
يلتزم مانهايم كما — يزعم — بالموضوعية ، وأن لم يفلح في تحقيقها ،  
و (هـ) علينا كعلماء اجتماع أن نتدخل من أجل إعادة تنظيم المجتمع بشكل  
عقلي ، لان العقلانية معيار هام للسلوك . ويخلص شلتنج من تحليلاته  
الى الالتقاء الواضح بين مانهايم وفيبر ، بل الأكثر من ذلك انه يعتبر  
مانهايم هو بحق أهم من اسهم في تطوير علم الاجتماع الحديث منطلقا من  
صيغات فيبر . راجع :

Sahay, op. cit., pp. 76 — 78. Also see, Mannheim, *Essays On  
Sociology and Social Psychology*, London, 1958; *Man and Society  
in an Age of Reconstruction*, Routledge, London, 1940.

(١) الإشارة هنا بالطبع الى التطورات المنهجية التي ظهرت كنتيجة



يختلف عن الصورة القديمة لهذا المنهج حين كانت المقارنة عامة فضفاضة لا تحفل كثيرا بتحديد وحدة المقارنة \*

أما فيما يتعلق بالملاحظة الأولى فإن فيبر بالفعل كان يدعو الى اصطناع تجربة تخيلية، لكن الذي ينبغي أن نوضحه هنا أن الخيال ليس مرادفا للتأمل المطلق المتحرر تماما من كل القيود الواقعية ، وليس ضربا من الميتافيزيقيا ، وانما الخيال عنده مهمة عقلية تستهدف الفهم ، وادراك المعاني الذاتية التي تنطوي عليها الأفعال الاجتماعية \* وبناء النموذج المثالي ، ما هو في الحقيقة الا نوع من التجربة العقلية أو التخيلية ، لكنها تجربة تستند الى استقراء الأحداث التاريخية والمقارنة بينها ، غايتها في النهاية مساعدة الباحث في استخلاص الارتباطات السببية بين

»»»→

للنماذج المثالية التي طالب فيبر بضرورة تشييدها ، وسوف نشير هنا بإيجاز الى أهم هذه التطورات . ولقد كان ماكيفر من أهم من استعانوا بما يسمى بالتجربة التخيلية وهو نوع من التصور يقوم على أساس تحديد الموقف الذي تحدث فيه الظاهرة في مقابل الموقف الذي يمكن الا تحدث فيه وسوف يشكل ذلك نوعا من الضبط الذي يفيد الدراسة الموضوعية (See, Mac Ivar. Social Causation 259) ، أما ميلز فقد طور مفهوم الخيال السوسيولوجي كتصور شامل بنائي وتاريخي وسيكولوجي يفيد الباحث في تدعيم بصيرته بالأحداث والظواهر الاجتماعية ( راجع Mills Sociological Imagination Magination ) ، واستعان بارسونز بمفهوم متغيرات النمط كبدائل للسلوك وتوقعات اسلادوار (Parrona, Social System) ، أما هوارد بيكر فقد أجرى بعض التعديلات على النموذج المثالي انتهت به الى ما أسماه بالنماذج الفرضية التي اعتبرها متحررة من سلبيات كلمة المثالي (Becker, Through Values Social Interpretation N. Y. 1930, p. 90). to وأخيرا نجد

روبرت ميرتون الذي كان ابرز من استخدم فكرة النموذج المثالي عند فيبر وأن اطلق عليه كلمة Paradigm واستعان به ميرتون في دراسات متعددة Sec, Merton, Social Theory and Social Structure, p. 16. راجع تفاصيل هذه الاستخدامات في : السيد الحسيني ومحمد علي محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية .



الظواهر • والجدير بالذكر أن فيبر كان يؤكد مسألة التجريب ، اذ لا تستقيم النماذج المثالية الا اذا استخدمت في دراسة وتفسير الوقائع ، ولا يمكن بناؤها في الأصل اعتمادا على الخيال وحده • ومعنى ذلك كله أن التجربة التخيلية عند فيبر لا تسبح في فراغ ، ولكنها تعبر عن الفهم الصحيح للعلاقات السببية بين الظواهر (١) •

ويقصد بالملاحظة الثابتة أن فيبر طالب بتبني علم اجتماع مقارن يستخدم في التحقق من صحة النموذج الذي صاغه ، والتوصل الى صياغة تفسير سببي ملموس لأشكال محددة من الفعل الاجتماعي • والمقارنة على هذا النحو بالطبع مختلفة عن المقارنات العامة التي استخدمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لتصنيف المجتمعات وأ الثقافات أساسا ، ثم أن المنهج المقارن عند فيبر وان كان يقترب من طريقة المقارنة التي طالب بها دور كايم كبديل للمنهج التجريبي ، الا أن ثمة فارقا بين تصور كل منهما أيضا ، فعلى حين أن دور كايم أراد من منهجه أن يوصله الى اكتشاف القوانين السببية العامة لظواهر اجتماعية محددة ، كان فيبر يجعل من المنهج المقارن أسلوبا للتحقق من صحة ما تتضمنه نماذجه المثالية، فهي اذن مقارنة محددة بحدود ما ينطوي عليه النموذج المثالي من خصائص لظواهر يعتقد الباحث أن لها أهمية خاصة في الحياة الاجتماعية أكثر من غيرها •

## ٢ - علم الاجتماع ودراسة الفعل الاجتماعي :

اهتم فيبر شأنه شأن غيره من علماء الاجتماع - وعلى الأخص دور كايم - بتحديد الخصائص المميزة لهذا العلم ، الذي يقع ضمن ما أطلق عليه « العلوم الثقافية » ، واعتقد أن الوقوف على هذه الخصائص

---

Weber, *Theory of Social and Economic Organization* p. 79. (1)

بوضوح وتميز هو بمثابة حجر الأساس في وضع قواعد منهجية ملائمة للدراسة الاجتماعية • والخاصية المميزة لعلم الاجتماع هي أنه يدرس الفعل الاجتماعي بهدف فهمه وتفسيره ، ولا تتعلق الدراسة في علم الاجتماع بالمظاهر الحسية الخارجية للسلوك فحسب ، والا أصبحت دراسة فاصرة كل القصور ، وانما يتعين على علم الاجتماع لكي يكون جديرا بهذا الاسم أن يدرك المعاني التي تنطوي عليها الأفعال والصلات المتبادلة بين الناس ، وهكذا حدد فيبر بؤرة الدراسة السوسيولوجية في طائفة من الظواهر وأنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تفهم فهما ذاتيا •

في ضوء ذلك عرّف فيبر علم الاجتماع في الصفحة الأولى من مؤلفه ، الاقتصاد والمجتمع بقوله : « علم الاجتماع هو العلم الذي يسعى الى فهم الفعل الاجتماعي وتفسيره لكي يصل الى تفسير سببي لمساره وتناججه » (١) • ويتضمن هذا التعريف بالطبع عددا من النقاط الرئيسية ، كما يستند الى افتراضات ضمنية ، ومن ثم يصبح لزاما علينا قبل أن نتقل الى معالجة تصور فيبر للفعل الاجتماعي أن نلقي على النقاط والافتراضات من الضوء ما يجعلها واضحة كنقطة انطلاق للتحليلات المقبلة جميعا •

(أ) الفهم الذاتي كتفسير سببي :

عرضنا فيما سبق لمقولة الفهم كأداة منهجية رئيسية ، وغاية يصبو اليها عالم الاجتماع في الوقت ذاته • والذي نود أن نوضحه في هذا الصدد هو أن فيبر لا يؤكد أهمية الفهم الذاتي لمعاني السلوك الانساني كشيء مختلف عن المعالجة السببية لهذا السلوك أو مكمل لها ، وانما يؤكد فيبر ضرورة هذا الفهم بوصفه تفسيرا سببيا للفعل الاجتماعي

Weber, *Theory of Social and Economic Organization* p. 88. (1)

أيضا ، والغايات التي يلتزم بها الناس ، والمطامح التي يتعلقون بها ، والأساليب التي يجتهدون في تحديدها وصولا لتلك الغايات والمطامح ، ثم الدوافع التي تحرك أفعالهم في المواقف المختلفة هي جميعا أسباب فعلية لمسار الفعل ومجره . ولا شك أن أي معالجة للفعل الاجتماعي تستهدف تفسيرا سببيا ، وتظل محصورة داخل الاطار التصوري للعلوم الطبيعية في بحثها عن الأسباب ، دون أن تفلح في استيعاب العناصر السابقة للسلوك ، لن تكون دراسة صحيحة ، بل وستنتهي الى نتائج زائفة مضللة . ان تأكيد فيبر لهذه الناحية يعد بالطبع اسهاما نسجله له ، اذ لم يخاطر فيبر لفهم الانسان من أجل التشبه بطرائق العلوم الطبيعية ، وانما جعل من هذا الفهم بعدا رئيسيا لبناء نظرية تتناسب وطبيعة الموضوع الذي تعالجه .

#### (ب) الانسان في المجتمع : موضوع كفي متميز للدراسة :

الانسان ككل بفكره ، وشعوره ، وارادته ، وسلوكه ، واستجابته هو موضوع الدراسة في علم الاجتماع عند فيبر . وفي هذا الموضوع حاول فيبر أن يصوغ العلم وفقا لمبادئ تجعله ملائما وصالحا لدراسته، سوزاء تعلقته الدراسة بوصف الطبيعة المميزة للانسان أو بتفسير سلوكه . هناك اذن احساس عميق بالمسؤولية الانسانية عند فيبر . ولكن ذلك لا يعني أن فيبر ينكر المعرفة الظواهرية Phenomenal بالانسان في المواقف الاجتماعية المختلفة . وانما باستطاعتنا أن نلاحظ العلاقة بين الظواهر الاجتماعية عند تحليل الجماعات الانسانية في مواقف متباينة، ولكننا حينما نبدأ الحديث عن الانسان وتصرفاته ، واتجاهاته ، وقيمه ، ومشاعره ، ومسؤولياته عند هذه النقطة نكون قد انتقلنا الى تفسير ما لاحظناه من ظواهر في ضوء الفهم الذاتي للافعال كما تحدث في المواقف الاجتماعية . ولا شك أن استيعابا لابعاد الموقف سوف يكون ضروريا

في الوصول الى تفسير سببي لتلك الظواهر •  
 وطريقة دراسة هذه الموضوع ولا شك سوف تختلف عن الطرق  
 المألوفة في العلوم الطبيعية • وأهم دواعي هذا الاختلاف أن الباحث في  
 العلوم الثقافية ( ومن بينها علم الاجتماع ) مستغرق تماما في الموضوع  
 الذي درسه • فهو لا يكتفي بمجرد الملاحظة الخارجية للظواهر كما يفعل  
 المتخصص في العلوم الطبيعية ، وإنما يتعين لكي يفهم الأفعال الاجتماعية  
 أن يكون على وعي بالابعاد الداخلية لهذه الأفعال، ولهذا يجد ضرورة  
 للترقية بين نوعين من الفهم الذاتي في ضوء الحالة الوجدانية ، والفهم  
 الذاتي على أساس المعاني العقلية • ويؤكد فيبر أن النوع الأول من  
 الفهم التعاطفي ضروري ومفيد في تفسير سلوك الافراد والجماعات خاصة  
 حينما يضع الباحث نفسه في موضع المبحوث ويتمثل ظروفه ويعايش موقفه  
 فذلك كله من شأنه أن يمكننا من فهم وتفسير مسار الفعل الاجتماعي •  
 على أننا بعد أن أوضحنا الاتجاه المميز لعلم الاجتماع كعلم ثقافي ،  
 يتعين أن نتجه نحو مناقشة الاطار المرجعي الذي استعان به في فيبر في  
 في دراسته ، والذي عرف بعد ذلك في التراث النظري لعلم الاجتماع  
 المعاصر « بالفعل كإطار مرجعي Action Form of Reference .  
 ولعل أهم ما يميز الفعل الاجتماعي هو أنه نوع معين من السلوك  
 الانساني هو السلوك القابل للفهم في ضوء ما يتضمنه من معاني ذاتية •  
 ولقد أبرز بارسونز هذه الخاصية في دراسته عن بناء الفعل الاجتماعي اذ  
 كتب يقول : « أهم ما يميز اطار الفعل هو استخدامه للفئات أو المقولات  
 الذاتية » (١) • ولقد بذل فيبر جهدا ممتازا لتحديد ما يدخل ضمن

(١) انظر Parsons, T. *The Structure of Social Action* Parperck edition, Vol. I.  
 اعتبر بارسونز من أكثر من طوروا نظرية الفعل الاجتماعي  
 عند فيبر ، وقد حاول بارسونز أن يوضح ما يقصده فيبر من المفاهيم  
 ←

مقولة الفعل الاجتماعي ، فهو يعتقد أنه ليس من الضروري أن يكون كل سلوك له الطابع الاجتماعي ، فهناك أنماط من السلوك ليست اجتماعية ، وهي تلك التي تتجه نحو أشياء فاقدة الحياة . أما ما يجعل الفعل اجتماعيا فهو كونه متجها نحو « الآخرين » يحسب حسابا لسلوكهم ، ويقدر تماما أهدافهم وقيمهم و « الآخرون » يمكن أن « يكونوا أشخاصا معينين يعرفهم الفاعل ، أو أفرادا غير معروفين بالنسبة له ، فنحن على سبيل المثال في عملية التبادل النقدي نقبل النقود كوسيلة للتبادل أو نقبلها كأجر مقابل لما قمنا به من أعمال ، باعتبار أننا نتوقع أن عددا كبيرا من الأفراد الذين لا نعرفهم سوف يقبلون النقود في عملية التبادل » (١) .



المختلفة التي استخدمها في تحديد الفعل الاجتماعي ، فمصطلح الفهم عند فيبر يشير الى نوع من الملاحظة والتفسير النظري للحالات الذاتية للعقل عند الفاعلين ، كما أنها تعني أيضا ادراك المعاني المختلفة والقيم والرموز والمعاني بالطبع مقصودة من قبل الفاعل ذاته . والسلوك عند فيبر ضيق النطاق ، لأنه يعنى ذلك النوع من السلوك الانساني القابل للفهم الذاتي ( انظر المعاني المختلفة لهذا المصطلح عند بارك Park ، وديوي Dewey

وجورج ميد Mead في : E. Ross. وما يؤكد القيمة النظرية *Theory and Method in the Social Science*, p. 16

لاعمال فيبر انه طالب ان يسعى علم الاجتماع الى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي ، ولا شك ان ذلك يتطلب نوعا من المعرفة السيكولوجية ، بالإضافة الى التوجيه Orientation الذي يتحقق عند الفاعل نحو الموقف ، ويشكل التوجيه السياق العام الذي يحدث الفعل بداخله ، ويشمل هذا السياق الخبرة الاجتماعية الانسانية بأكملها ، واعتقد فيبر أن هناك اتساقا تاما بين هذا الاطار وبين ما يمكن أن تسفر عنه البحوث الواقعية التي تسير على هديه .

(١) حينما كان فيبر بصدد توضيح المفاهيم الرئيسية لعلم الاجتماع ، ذهب الى ان هناك انتظامات يتعين الاهتمام بها ، ومن بين هذه الانتظامات التساند البنائي الوظيفي بين الظواهر ، وقد كتب عنه فيبر يقول : « انه المنهج الذي تستعين به المدرسة العضوية لعلم الاجتماع في محاولتها فهم



ويكاد يقتصر الفعل الاجتماعي على تلك الأنماط السلوكية التي تصدر من الأفراد تجاه بعضهم البعض آخذة في اعتبارها المعاني التي تكمن خلفها ، ويقول فير « ان مجرد صدام دراجتين قد يعتبر حدثا طبيعيا، ولكن المحاولات التي تبذل للحيلولة دون وقوع الصدام، أو حتى المناقشات التي تدور بعد ذلك ... وما يقع من أحداث كالتشاجر أو الصداقة قد تشكل أفعالا اجتماعية » . ويهتم فير في هذا الصدد بالفرقة بين الفعل الاجتماعي وبين أنماط أخرى من السلوك مثل سلوك الجمهرة والمحاكاة أو التقليد . ويضرب مثالا لتوضيح هذه الفروق فيقول : « اذا تساقطت الأمطار وهم بعض الأفراد في الطريق يرفع مظلاتهم في وقت واحد ، فان ذلك لا يمثل فعلا اجتماعيا متبادلا ومتجها نحو بعضهم البعض ، ولكن الفعل يصبح اجتماعيا في مثل هذا الظرف حينما يستجيبون بطريقة جمعية « للحاجة المشتركة الى الحماية من المطر » ومعنى ذلك أن استجابة شخص معين لتأثير جمع أو حشد من الناس عليه لا يعد فعلا اجتماعيا ، ولعل ذلك هو ما يدعونا الى اعتبار دراسات



التفاعل الاجتماعي منطلقا من الكل whole الذي يسلك الفرد بداخله . وتفسر هذه النظرية السلوك مثلما يفعل الفسيولوجي حين يفسر دور العضو في بناء الكائن الحي ، أي من حيث اسهامه في بقاء الأخير . . ويعتقد فير أولا ان هذا الاطار الوظيفي ملائم فقط لاغراض عملية مؤقتة، فهو اطار توضيحي اساسا ، وهذا هو ما يفسر اهميته القصوى ، مع التسليم بخطورة المفاهيم البيولوجية التي يتضمنها . وثانيا يفيد هذا الاطار في ظروف معينة في معرفة عمليات الفعل الاجتماعي الضرورية لتفسير ظاهرة معينة ، لكن ذلك بالطبع لا يشكل سوى بداية التحليل السوسيولوجي. فنحن في حالة التجمعات نحتاج الى أكثر من اثبات العلامة الوظيفية ، اذ بوسعنا أن نحقق شيئا تعجز عنه العلوم الطبيعية ، ذلك هو الفهم الذاتي لسلوك الافراد الذين يؤلفون هذه التجمعات « انظر : Weber The Theory of Social and Economic Organization, pp. 102-103.

جو ستاف لوبون G. Lebon خارجة عن نطاق الفعل الاجتماعي، ولكنها تتركز حول دراسة الفعل المشروط بالحشد وكذلك الأمر فيما يتعلق بأعمال جبريل تارد ، فالمحاكاة لا تنطوي على فهم للمعاني بقدر ما تعبر عن ملاحظة عابرة لمظاهر سطحية من السلوك خالية من المعنى تماما (١) .

وينتقل فيبر بعد ذلك الى تصنيف أنماط الفعل الاجتماعي التي يمكن الاستعانة بها في بناء النماذج المثالية للسلوك . فيحدد أربعة أنماط للفعل وفقا لمساره واتجاهه على النحو التالي :

١ - الفعل العقلي الذي توجهه غايات محددة ووسائل واضحة (Zweckrational) ، اذ أن الفاعل يضع في اعتباره الغاية والوسيلة ثم يقوم بتقويهما تقويما عقليا ، ويرى آرون Aron أن هذا النمط من الفعل الاجتماعي يشبه ما أطلق عليه باريتو مصطلح السلوك المنطقي ، فالمهندس الذي يصمم مشروعا معماريا ، والمضارب الذي يحسب ما سيعود عليه من كسب في مضارباته ، والقائد الذي يختار أفضل الخطط التي تحقق له النصر ، كلها أمثلة للفعل العقلي (٢) .

Weber, op. cit., p. 115 (١)

(٢) وجدير بالذكر أن فيبر قد أكد أهمية السلوك الهادف عقليا ، الأمر الذي دفعه الى بناء نموذج مثالي قائم على هذا السلوك ، وربما يعكس ذلك الثنائية التي تميز تفكيره بين ما هو عقلي وغير عقلي. وثمة تساؤل يبرز في هذا الصدد وهو ما هي المعايير التي يمكن على أساسها التمييز بين الفعل العقلي وغير العقلي ؟ يذهب بارسونز Parsons الى أنه على الرغم من أن فيبر لم يذكر في كتاباته صراحة تحديدا واضحا لهذه المعايير ، الا أننا يمكن أن نستنتجها من كتاباته ، حيث يعتبر الفعل عقلانيا الى المدى الذي يكون فيه : (١) موجها نحو هدف محدد وغاية واضحة ، ومجموعة من القيم التي تكون ملائمة منطقيا . (ب) لا بد أن تكون الوسائل المختارة مستندة على معرفة صحيحة تناسب تحقيق الهدف . وهكذا يكون السلوك



٢ - الفعل العقلي الذي توجهه قيمة مطلقة (Wertational) :  
وفي هذا النموذج يكون الفرد واعيا بالقيم المطلقة التي تحكم الفعل ،  
وهي قيم يمكن أن تكون أخلاقية ، أو جمالية ، أو دينية ، ويوصف الفعل  
بأنه يوجه نحو قيمة مطلقة في الحالات التي يكون فيها مدفوعا لتحقيق  
مطالب غير مشروطة. ومعنى ذلك أن الاعتقاد في القيمة المطلقة يكون واعيا  
ومتجها نحوها من أجل ذاتها ، خاليا من أية مطامح خاصة ، ولهذا فهو  
يختار الوسائل التي تدعم إيمانه بالقيمة .

٣ - الفعل العاطفي Affective Action : هو سلوك صادر  
عن حالات شعورية خاصة يعيشها الفاعل ، والأمثلة على هذا النمط من  
السلوك عديدة ، حين يختار المرء الوسائل لا على أساس صلتها بالغايات  
أو القيم وإنما باعتبارها تنبع عن تيار العاطفة .

٤ - الفعل التقليدي Traditional Action : هو سلوك  
تمليه العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة ، ومن ثم يعبر عن استجابات  
آلية اعتاد عليها الفاعل . ولا شك أن ضربا من السلوك هذا شأنه سوف  
يظل دائما على هامش الفعل الذي توجهه المعاني .



هادف عقليا حينما يتركز كلية على وسيلة ينظر إليها الشخص الفاعل ذاتيا  
باعتبارها مناسبة للوصول الى غاية تعتبر من الوجهة الذاتية أيضا على  
درجة عالية من الوضوح والتحديد . ( انظر :

Weder, Introduction by Parsons, *theory of social and Economic  
oryahisiutio*, p. 16

ولتوضيح وجهة النظر الذاتية للسلوك الهادف عقليا يقول : ان الإدراك  
الموضوعي للوسيلة قد يكون غير موفق ، كما قد تكون الغاية أيضا موضوعيا  
متناقضة ، ولكن الذي يعيننا في هذا الصدد هو أن الشخص يعتقد أن  
الوسيلة كافية وملائمة ، وأن الغاية محددة ، وحينما يتوافر هذا الاعتقاد  
يطلق على السلوك أنه هادف عقليا : ( راجع :

Barnes & Becker, *Social Thought From Lore to Science* p. 895.



وتحتل أنماط الفعل الاجتماعي هذه أهمية خاصة في النسق السوسيولوجي الذي صاغه ماكس فيبر ، ويرجع ذلك الى عدة عوامل ، فسن الملاحظ أولاً أن فيبر تصور علم الاجتماع باعتباره دراسة شاملة للفعل الاجتماعي ، ومن ثم أصبح تصنيف أنماط الفعل يمثل أعلى مستويات التصور التي تستخدم في دراسة المجال الاجتماعي . والمثال على ذلك أن تصنيفه لنماذج السلطة مشتق مباشرة من تحديده لأنماط للفعل الاجتماعي ، ومن ثم أصبح تصنيف أنماط الفعل يمثل أعلى فهم معاني السلوك البشري . ومن هنا تبدو أهمية هذا التصنيف كمدخل ضروري لتحليل بناء السلوك ، ومن الملاحظ ثالثاً وأخيراً أن تصنيفه لنماذج الفعل هذه يعد الى حد ما أساس تفسيره للحقبة التاريخية المعاصرة . اذ اعتقد فيبر أن الخاصية المميزة للعالم الذي نعيش فيه هي العقلانية . وتحقق العقلانية من خلال توسيع نطاق السلوك المحدد وفقاً لغايات واضحة ووسائل محددة لتحقيق هذه الغايات يدركها الفاعل تماماً . فالمشروع الاقتصادي عقلاني ، وسيطرة البيروقراطية على الدولة الحديثة رشيدة . بل ان المجتمع ككل يتجه بقوة نحو التنظيم العقلي لكافة أوجه النشاط فيه (١) .

والخطوة النظرية الثانية ذات الأهمية عند فيبر هي ادخاله لمفهوم « العلاقة الاجتماعية » ، اذ ساعده هذا المفهوم على التحول من دراسة

---

(١) راجع حول الاتجاه العقلاني وآثره في تطور التنظيمات الحديثة والنمو التنظيمي للمجتمع دراسة : دكتور محمد علي محمد ، علم اجتماع التنظيم ، الفصلين الأول والثاني . وجدير بالذكر هنا أن الفلسفة العامة التي تبطن أعمال فيبر وتوجهها هي دراسة التحولات التي تطرأ على العالم المعاصر والتي تتمثل في التغير من مجتمع وحضارة تقليدية الى حضارة تنظيمية بيروقراطية تحكمها القواعد والمعايير القانونية الشرعية ( أنظر : Weber, Social and Economic Organization, pp. 339 - 40.

الأفعال الفردية الى أنماط السلوك <sup>(١)</sup> . ويقول جرن ركس J. Rex في مقالة عن « التصنيف والموضوعية : تعليق على المناهج الأربعة عند فيبر » ١٩٧١ : « ان مناقشة فيبر للعلاقات الاجتماعية تشمل المضمون الحقيقي لأعمال فيبر ، وبتركيزة على البناء ، أصبحت دراسته تختلف عن أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي ( الظاهراتي ) الذين حصروا اهتمامهم فقط بالمعاني الذاتية التي يتضمنها تحديد الفاعل للموقف » <sup>(٢)</sup> والعلاقة الاجتماعية عند فيبر تعني تبادل الأفعال بين الأفراد على أساس فهم كل منهم للمعاني التي يضيفها كل فرد على سلوكه ، اذ أن هناك مجرى للفعل . لكن ذلك لا يعني بالطبع أن يكون المعنى الذاتي هو نفسه بالنسبة لكل الجماعات التي تتجه اتجاهها متبادلا في علاقة اجتماعية معينة، فالصداقة ، والحب ، والولاء ، والوظيفة ، قد تقابل باتجاه مختلف تماما من جانب آخر ، كما أن المعنى الذاتي لعلاقة اجتماعية قد يتغير بدوره . فالعلاقات السياسية - مثلا - اذا كانت قائمة على التضامن ، قد تتحول الى صراع في المصالح ، ومن ثم يمكن القول أن هناك علاقة اجتماعية جديدة قد ظهرت الى الوجود ، أو أن العلاقة القديمة ما تزال مستمرة ولكنها اكتسبت معنى جديدا . ومرد ذلك كله أن العلاقة الاجتماعية قد تكون ذات طبيعة مؤقتة ، أو على درجات متباينة من الدوام والاستمرار <sup>(٣)</sup> والواقع أن ادراك فيبر لهذه الطبيعة المتباينة التي تميز العلاقات الاجتماعية ، ومن ثم التفسير المختلف الذي تطلبه ، كان ذلك يمثل فارقا أساسيا بينه وبين المدرسة الصورية كما تمثلها

Rex. op. cit, p. 17 (١)

Martindale, op, cit, p 398 (٢)

(٣) دكتور مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثالث ، المدارس الاجتماعية المعاصرة ، ١٩٦٥ . ص ص ٧٥ - ٧٦ .

أعمال جورج زيمل G. Simmel فالسلطة في الأسرة ليست هي السلطة في المدرسة ، أو الكنيسة ، أو الدولة (٢) ، والمنافسة في الاقتصاد تختلف في مضمونها عن المنافسة في ميدان العلم أو السياسة ؛ يضاف الى ذلك أن اهتمام فيبر بالفهم على مستوى المعنى يحتاج الى فحص دائم لا لصور العلاقات الاجتماعية فحسب ، بل للمحتوى الذي يميز هذه العلاقات (١) .

ويتناول فيبر بعد ذلك تصنيف الفعل الاجتماعي في ضوء التنظيمات التي نلاحظها في الواقع . « اذ من اليسير أن نلاحظ نماذج معينة للفعل مرتبطة بمعنى ذاتي مناسب ، بحيث نجدها تتميز بالتكرار والانتشار ، سواء من جانب شخص واحد ، أو عدد معين من الأفراد في آن واحد » . وهذه الحالات يهتم بها البحث السوسيولوجي باعتبار أنه يهتم بالتفسير السببي للاحداث الفردية ذوات التأثير على الحياة الانسانية ، وتتلخص فئات العلاقات الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها واقعا في خمس فئات هي :

- (أ) العرف أو الاصطلاح أي التماثل الفعلي للعلاقات الاجتماعية .
- (ب) العادة وهي العرف الذي يستمد وجوده من الألفة والتعود .
- (ج) الأسلوب أو العرف الذي يتسم بالتجديد والحدثة .
- (د) العادة التقليدية هي العرف الذي ينبثق عن الرغبة في الهيبة الاجتماعية ، أو العرف الذي يتحدد على أساس انماط معيارية .
- (هـ) القانون وهو مجموعة القواعد التي تنطوي على الزام أو عقاب

---

(١) انظر مناقشة للصلة بين أفكار فيبر والمدرسة الصورية عند جون ركس ( المقال السابق الاشارة اليه ) وراجع كذلك :  
K.H. Wolff, (ed.) *George Simmel 1858-1918*, Ohio State University, 61—99.

لمن يخرج عليها ، ومع أن القانون يستند الى العادة والعرف ، لكن الفارق بينه وبينهما هو عنصر الالتزام المتضمن في القاعدة القانونية .  
والواقع أن فيبر قد ذهب الى أبعد من ذلك حين استخدم مفهومه عن العلاقة الاجتماعية ، وصورها الواقعية في تعريف النظام الشرعي Legitimate Order وذلك حين يشير الى أن المعنى الذاتي لعلاقة اجتماعية ما يسمى « نظاما » اذا كان السلوك متجها على أساس قواعد أو مبادئ معينة ومحددة . فالموظف - مثلا - الذي يتعين عليه أن يتواجد في عمله يوميا في موعد محدد ، انما ينطوي سلوكه هذا فضلا عن عنصر العادة والمصلحة الذاتية ، عنصرا ثالثا هو الالتزام بالخضوع للنظام المفروض عليه .

على أن دراسات فيبر لا تقتصر فقط على تحليل الفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية ، وانما تمتد أيضا لتشمل الفعل الاقتصادي Economic Action ، ولا يقصد فيبر من ذلك بالطبع تقديم نظرية اقتصادية ، بقدر ما يسعى الى تناول بعض المفاهيم التي ذاع انتشارها ، وتحليل أبسط العلاقات السوسولوجية في المجال الاقتصادي . والفعل - عند فيبر - يكتسب اتجاهها اقتصاديا حينما يتعلق بأشباع رغبة الحصول على منفعة ومحاولة للفاعل السيطرة على الموارد الاقتصادية . والفعل الاقتصادي العقلي هو الذي يركز على تخطيط محكم للغايات الاقتصادية . ويحاول ماكس فيبر أن يميز بين الفعل الاقتصادي وبين ما أطلق عليه فرانز أو بنهيمر F. Oppenheimer الوسائل السياسية ، ويستند تمييزه على أساس استبعاد عنصر القوة من مفهوم الفعل الاقتصادي، ذلك لأن استخدام القوة ، أو الامتلاك المباشر للسلع بالالتزام أمر مخالف لروح الكسب الاقتصادي وعلى الرغم من أن فيبر لم يحدد لنا صراحة المعايير التي تميز الفعل الاجتماعي العقلي ، الا أننا نجده يقدم

إننا بصدد الفعل الاقتصادي مجموعة من المعايير أو المحكات التي تميز الفعل الاقتصادي العقلي ، وتتلخص هذه المعايير في : التوزيع المنظم للمنافع بين الحاضر والمستقبل ، والتوزيع المنظم للمنافع المتاحة حسب استخدامها مع مراعاة مبدأ أولوية الاحتياج ، والانتاج المنظم للمنافع بواسطة الصناعة والنقل ، أي حينما يستطيع الفاعل أن يوفر لنفسه معظم وسائل الانتاج الأساسية ، وأخيرا لا بد أن يقوم الفعل الاقتصادي العقلي على أساس الربح المنظم (١) .

هكذا يوضح لنا العرض السابق كيف يتصدر مفهوم الفعل الاجتماعي التحليلات السوسولوجية التي يقدمها فيبر ، بل وتطبق هذه التحليلات على التنظيمات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومعنى ذلك أن فيبر لا يجعل الفعل معتمدا فقط على العلاقة بين الوسائل والغايات ، وإنما يربطه باستمرار بنسق اجتماعي معين، وبالظروف التي يتم في ضوءها تحقيق الغايات ومن ثم يذكرنا فيبر باستمرار أن كل المفاهيم التي يقدمها لا تكفي في ذاتها ، وإنما لا بد أن يستخدمها علماء الاجتماع في تشييد النماذج المثالية لتفسير مشكلات ملموسة ، بل والأكثر من ذلك أن هذه النماذج بدورها ليست غاية مطلقة ، ولكنها وسيلة التفسير والتعليل الصحيح ، وهنا تتجلى مهارة عالم الاجتماع في الصياغة ، والتحليل ، والمقارنة لكي يحقق ما يصبو اليه علم الاجتماع من أهداف كبرى .

### ٣ - علم الاجتماع ودراسة القيم :

يحتاج مفهوم القيم Values عند ماكس فيبر لمعالجة خاصة ، إذ على الرغم من كثرة ما كتب عن القيم عند فيبر على نحو « لم يعد من

Weber, Op. Cit. p. 158.

المسكن معه اضافة شيء جديد عن نظرية القيم عنده» (١) كما ذهب الى ذلك ريمون آرون . فان الملاحظ على الكتابات السوسيولوجية المعاصرة أنها أخذت تجدد مرة أخرى الحوار مع تصورات فيبر عن دور القيم في البحث والتحليل السوسيولوجي . ونقطة البدء عند ماكس فيبر هي مناقشة العلاقة بين العلم والقيم ، اذ يقول فيبر في مؤلفه عن مناهج العلوم الاجتماعية : « ليس من مهمة العلم الامبريقي (٢) أن يقدم معايير ومثاليات نستمد منها توجيهها للأنشطة العملية المباشرة » . لكن هذه القضية بالطبع لا تكشف سوى عن جانب واحد من العلاقة بين العلم والقيم ، اذ يمضي فيبر في تحليله لهذه العلاقة فيقول : « حينما نشرع في التفرقة بين « أحكام القيمة » و « المعرفة الامبريكية » ، فاننا نفترض بدءاً وجود بناء صحيح في العلوم الاجتماعية ، نقصد به تنظيم تحليلي واضح للواقع ، ولا شك أن هذا الافتراض المبدئي قد أصبح هو مشكلتنا بمعنى أننا يجب أن نناقش مفهوم معنى الحقيقة الصادقة موضوعياً في العلوم الاجتماعية » (٣) . وحينما نشرع في مثل هذه المناقشة سوف نواجه حتماً بالحقيقة التالية وهي أن هناك طائفة من العلوم يتعين أن نطلق عليها مصطلح العلوم الثقافية ، وهي علوم تتخصص في دراسة « كائنات ثقافية » مزودة بالمقدرة والارادة ولها اتجاهاتها الخاصة نحو العالم المحيط بنا ، كما أن هذه الكائنات لا تستطيع أن تحل نفسها من تقديم ما يجري حولها من ظواهر ووقائع ، ومن ثم يصبح مفهوم الثقافة ذاته مفهوماً قيمياً ، ويصبح الواقع الموضوعي بالنسبة لنا ثقافة لأننا نربطه دائماً بمثاليات قيمية . ومثل هذا الجانب القيمي من الواقع الذي نعيشه هو وحده الذي ينطوي على أهمية ودلالة بالنسبة لنا ، وذلك راجع بالطبع

Aron. op. cit., p. 7.

Weber, Methodology. p. 143

Ibid p. 241

(1)

(2)

(3)

الى أنه يكشف لنا عن علاقات ذات معنى لأنها وثيقة الصلة بما نقبله من القيم . يضاف الى أن كل معرفة تتوصل اليها عن الواقع الثقافي تعبر عن وجهة نظر معينة بالذات ، اذ بدون الأفكار القيمة عند الباحث يتعذر عليه أن ينتقى من الواقع ما يصلح موضوعا لبحثه ، بل لا يستطيع أن ينظم معلوماته وفقا لمبدأ محدد . ولا شك أن تبني وجهة نظر معينة عند دراسة أو بحث أي ظاهرة يعد خطوة رئيسية ، ومطلبا حيويا لصياغة الاطار التصوري الذي سوف يوجه البحث بأكمله . وكل ذلك سوف يجعلنا نخلص في النهاية الى نتيجة محددة وهي « أنه لا يوجد تحليل علمي مطلق للثقافة ... أو للظواهر الاجتماعية مستقل تماما عن وجهات نظر خاصة يتبناها الباحث — بطريقة واعية أو غير واعية واضحة أو مضمرة — ويستعين بها في أغراض الاختيار ، والتحليل ، والتنظيم والعرض » (١) .

هكذا ، يكشف لنا النص السابق عن الأهمية التي تحتلها القيم في العلوم الثقافية ، ويصبح من الضروري اذن أن نلقي الضوء على طبيعة الفلسفة التي تبناها فيبر عن القيم ، وهي فلسفة تستمد جذورها من الفلسفة الكانطية . ان القيم لا تنشأ في الأصل نتيجة لادارة بشرية تختلف تماما في نوعها عن الأساليب التي يلجأ اليها العقل حينما يسعى الى فهم الواقع وادراك الحقيقة ، فالحقيقة ذاتها هي قيمة ، بل أنها تمثل عند فيبر القيمة الكبرى . ومع ذلك يظل هناك فارق بين العلم والقيم . فالعلم يستند الى الموضوعية والبرهان والمنطق ، على حين أن القيم مصدرها الاختيار الحر ، والاعتقاد في صدقها . ومع أن القيم عند فيبر شأنها شأن دوركايم ذات منبع اجتماعي ، إلا أنها تاريخية أيضا بحيث

---

(١) راجع Alan Dawe, The Relevance of Value, in Sahay, op. cit. pp. 37—63.

نستطيع أن نفسر في ضوءها الصراعات التي تنشأ بين مختلف الجماعات ، والأحزاب . والأفراد في كافة المجتمعات . كذلك يلاحظ على فيبر أنه لم يجعل من المجتمع قوة عليا يصدر عنها كل شيء مستقلاً عن الوجود الفردي كما فعل دوركايم ، ولكنه أضاف الى المجتمع أيضا ارادة الأفراد ورغباتهم ، واختياراتهم وتفضيلاتهم الخاصة ، فالقيم — مثلاً — ترجع الى استجابة ووعي الأفراد للوسط الاجتماعي أو الموقف الذي يعيشونه والحق أن فيبر كان يتبنى اتجاهين رئيسين نحو مسألة القيم ، فهو كرجل سياسة أراد أن يكشف عن التناقضات التي تنطوي عليها أنماط السلوك المختلفة، وهو كعالم اجتماع يريد أن يتعرف على تأثير مختلف الاتجاهات الدينية والثقافية على سلوك الأفراد ، وبخاصة في المجال الاقتصادي (١) . ولهذا فإن فيبر يستند الى رؤية أخلاقية واضحة للعالم المحيط بنا ، وجوهر هذه الرؤية أن هناك أفراد يمارسون عملية اختيار القيم ، ويسعون من أجل فرض المعاني الخاصة عندهم على ظواهر العالم الخارجي . ومهمة عالم الاجتماع تلخص في محاولته فهم هذه المعاني التي يسقطها الأفراد على الظواهر والعلاقات الاجتماعية المختلفة ، لكن عالم الاجتماع هو جزء من هذا العالم ، وخاضع لقوانينه ، ومن ثم فهو يفهم ويفسر الظواهر من وجهة نظره الخاصة ، وهنا بالذات تبدو أهمية القيم كشرط أولى لكافة ضروب المعرفة الاجتماعية الواقعية بالعالم .

وقد يبدو غريباً أن يؤكد فيبر أهمية القيم على هذا النحو ، ثم يطالب بضرورة تبني ما يسمى بالحياد الأخلاقي أو تحرير العلم من الأحكام القيمية ، لكن فيبر يبرر موقفه هذا بأنه لا يريد فقط أن يحافظ على وحدة العلم ، ولكنه يحافظ في الوقت ذاته على وحدة الاخلاقيات ، لما لها من أهمية خاصة ، فظنرا لأن المعرفة وحدها لا يمكن أن تصل بنا الى ادراك المعاني الحقيقية للظواهر . فالعلم يطرح تساؤلاته بطريقة



موضوعية فيها قدر كبير من الحياد الاخلاقي ، ولكن القيم والاخلاقيات  
تستطيع أن تجعل الاجابة على هذه التساؤلات واضحة كل الوضوح ،  
حين تبين لنا ما يكمن خلفها من معاني •

#### ٤ - علم الاجتماع الديني :

يعتقد كثير من علماء الاجتماع أن الاسهام الذي قدمه فيبر فسي  
مقالاته التي جمعت منذ عام ١٩٠٤ حتى لحظة وفاته تحت عنوان : علم  
الاجتماع الديني تمثل أهم اسهاماته في علم الاجتماع • بل يذهب تاووني  
Tawney الى حد القول : « بأن أعمال فيبر وبخاصة دراسته عن  
الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية قد أثارت اهتمام الباحثين في  
ميادين الاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع جميعا ، ذلك لأن التساؤلات  
التي طرحها تشكل اهتماما عاما للباحثين في هذه الميادين ، الى جانب  
ما يشله المنهج الذي استخدمه في الدراسة من أهمية تعادل أهمية النتائج  
التي توصل اليها » مما جعل دراسته محورا لاهتمام كل من يتصدى  
لدراسة المجتمع الحديث « (١) •

ويقول ريمون آرون « ان نقطة الانطلاق في دراسات فيبر عن  
علم الاجتماع الديني هي اعتقاده بأن فهم أي اتجاه يحتاج من الباحث  
ادراك تصور الفاعل للوجود بأكمله ، اذ في ضوء هذا الاعتقاد حدد  
فيبر التساؤل التالي لكي تجيب عليه دراساته : الى أي مدى تؤثر  
التصورات الدينية عن العالم والوجود في السلوك الاقتصادي لكافة  
المجتمعات ؟ « (١) •

(1) Tawney, *Forward to the Protestant Ethic and the spirit of Capitalism*, p. 8.

Aron *op. cit.* pp. 217—236.

هناك بالطبع زعم مألوف يذهب الى أن فيبر قد حاول رفض آراء  
ماركس لكي يفسر السلوك الاقتصادي تفسيراً دينياً ، لكن هذا الزعم  
غير صحيح ، اذ يعتقد آرون أن فيبر كان يريد أن يؤكد قضيتين هما :  
(أ) أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في سياق تصورهم العام  
للموجود ، وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيرها إحدى هذه التصورات  
للعالم التي تظهر فسي سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك  
الاقتصادي .

(ب) ان التصورات الدينية هي بالفعل إحدى محددات السلوك الاقتصادي  
ومن ثم فهي تعد من بين أسباب تغير هذا السلوك (٢) . ويذهب زياتلن  
مذهباً مقارباً الى ذلك لحد كبير فهو يقول : اذا نظرنا الى دراسات فيبر  
عن الأخلاق البروتستانتية من خلال السياق العام لمؤلفه علم الاجتماع  
الديني لأصبح من الواضح لنا تماماً ، أنه بينما يحاول فيبر أن يعقد حواراً  
مع ماركس وتقديم تعديلات لمنهج ماركس ، فإنه لم يكن يسعى قط الى  
رفض أفكار ماركس ... فلقد كان في كل دراساته - المبكرة والأخيرة  
عن الديانات الصينية والهندية واليهودية - يدرك تماماً أهمية ما أطلق  
عليه العوامل الاقتصادية » (١) .

ولننتقل الآن لتلك الدراسة الهامة التي مر عليها أكثر من نصف قرن  
من الزمان ولا تزال شهرتها واسعة حتى الآن ، والتي كرس فيها فيبر  
جهده لفحص العلاقة بين روح الرأسمالية والأخلاقيات البروتستانتية ،  
اذ اعتقد فيبر أن العلاقة بين الظروف الاقتصادية والأخلاقيات النابعة عن  
الدين لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه . ومما هو جدير بالذكر أن فيبر  
لم يكن يهتم فقط بإثبات العلاقة بين الدين والاقتصاد ، بل كان يهدف

Aron, Ibid., p. 218.

Zietlin, op. cit., p. 122.

(1)

(2)

الى التعريف على التأثير المتبادل بين الظاهرتين داخل اطار تاريخي يسلم بتفاعل عدد كبير من الظروف والعوامل .

على أن فيبر لم يعالج الجوانب المختلفة للدين بوصفه ظاهرة اجتماعية بل اكتفى بدراسة الاخلاقيات الاقتصادية للدين Wirtschaftsethik . وهو لا يقصد بالاخلاقيات الاقتصادية للدين، تلك المبادئ الغائية التي يتضمنها ، والتي تتطلبها « الصور العملية للسلوك » ، بل يقصد « ما يؤكد عليا الدين من قيم اقتصادية » باعتبارها تناجا دينيا . ولكي يحدد فيبر نطاق دراسته تناول الاخلاقيات الاقتصادية لستة ديانات عالمية هي : الكونفوشية ، والهندوكية ، والبوذية ، والمسيحية ، والاسلام ، ثم درس طبيعة الاخلاقيات الاقتصادية في كل منها ، وآثارها على التنظيم الاقتصادي والحياة الاجتماعية للشعوب التي تنتمي الى هذه الديانات . ولقد حاول في ثانيا دراساته هذه أن يربط الدين بالاقتصاد . ولن نستطيع بطبيعة الحال أن تتبع تحليل فيبر المستفيض للآثار المترتبة على كل من هذه الديانات ، ولذلك فسوف نكتفي بتقديم مثالا واحدا لكي نوضح من خلاله المنهج الذي اتبعه فيبر، والنتائج التي خلص اليها . وهذا المثال هو العلاقة بين الرأسمالية الحديثة والعقيدة البروتستانتية (١) .

ونقطة البدء في هذه الدراسة هي بالطبع تحديد ماذا يقصد بالرأسمالية ، وسيوضح لنا في هذه الحالة أنه ليس ثمة رأسمالية واحدة، وإنما هناك نظم رأسمالية عديدة تختلف باختلاف المجتمعات ، ولذا يتعين أن نحدد الخصائص المميزة للرأسمالية التي ندرسها ، ونستطيع في هذه الحالة أن نستخدم طريقة النموذج المثالي لتحديد خصائص النظام

---

Fischof F., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, (1) op. cit., p. 72.

الاقتصادي الذي ندرسه • وسنجد أن الرأسمالية الغربية الحديثة تمثل في حقيقة الأمر ظاهرة فريدة تنحصر خصائصها الأساسية فيما يلي :

المشروع الاقتصادي القائم على التنظيم العقلي ، والذي تتم ادارته وفقا للمبادئ العلمية، والثروات الخاصة، والانتاج من أجل السوق ، والانتاج للجماهير وعن طريقهم ، والانتاج من أجل المال ، والحماس المتزايد ، والروح المعنوية العالية ، والكفاءة في العمل ، تلك التي تتطلب تفرغا كاملا لفرد يزاول مهنته أو عمله ، وهذا التفرغ يجعل من العمل المهني هدفا ومطلبا رئيسيا في حياة الفرد ، ذلك أن الفرد يهتم بالعمل المهني كغاية في ذاته ، ولا ينظر للعمل في المجتمع الرأسمالي الحديث على أنه شيء عرضي ، ولكنه هدف يعيش الانسان من أجله ، وهو الذي يفرض أغلب الالتزامات الهامة. وهذه الأخلاقيات المهنية vocational ethics تعتبر أحد السمات الواضحة لروح الرأسمالية الحديثة ، ونتيجة لذلك يقدر المجتمع الرأسمالي الفرد باعتباره عاملا في المحل الأول ، فترتفع أجور أولئك الذين يمتازون أو يتفوقون في أعمالهم ، بينما تنخفض أجور غير المتفوقين • وبالإضافة الى ذلك ، فإن الرأسمالية تتضمن - من ناحية - نزعة عقلية ونفعية في الوقت نفسه ، كما أنها تثير المبادرة والقدرة على الاختراع بكل الوسائل الممكنة ، ومن ناحية أخرى ترفض رفضا تاما النزعة التقليدية والخيالية أو اللاعقلية • وهكذا تكون الرأسمالية الناضجة نشاطا عقليا ، يؤكد النظام ، والترتيب ، والتدرج في التنظيم •

تلك هي الخصائص النموذجية مثاليا للرأسمالية الحديثة • ولذلك فهي تختلف في سماتها عن الرأسمالية القديمة ، أو رأسمالية العصور الوسطى اختلافا أساسيا ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة نوعية حديثة للمجتمع الغربي •

يبد أن الرأسمالية تتطلب كذلك وجود أفراد يتميزون بسلوكية

معينة ، وسلوك خاص وظروف اجتماعية بالذات • فالتنظيم الرأسمالي لا يتحقق في مجتمع يتسم أفراداه بالكسل ويتمسكون بمعتقدات خرافية، ويتميزون بعدم الكفاءة وهكذا لا بد أن تتوافر مجموعة الظروف الآتية، الى جانب تلك السمات السيكلوجية المشار اليها ، وهذه الظروف هي : رأس مال عقلي وإدارة العمل ، وامتلاك كل وسائل الإنتاج ، وتوفير وسيلة قليلة للإنتاج ، وشيوع قانون عقلي ، وازدياد العمل الحر ، وتسويق لمنتجات العمل •

ويذهب فيبر الى أن بنيامين فرانكلين B. Franklin قد عبر أصدق تعبير عن السمات السيكلوجية اللازمة لوجود النظام الرأسمالي ، ويكشف عن ذلك تعاليمه المختلفة مثل « الامتياز هو المال » و « الأمانة هي أفضل سياسة » ، و « الحساب الدقيق ضروري لأية عمل » ، وكذلك السلوك المنظم ، والمثابرة ، والكفاية ، والصدق ، والاخلاص هي كلها سمات ضرورية للنجاح في أي ميدان ، وبالذات في العمل » • ولكن ما هي القوى التي أدت الى مثل هذا التحول الذي حدث للمجتمعات وبخاصة ذلك الذي طرأ على سلوك أفرادها وسيكولوجياتهم، أو بعبارة أخرى كيف انبثق هذا النموذج الاقتصادي ؟ وقد أجاب فيبر على ذلك بأن الرأسمالية الحديثة نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية وأخلاقياتها الاقتصادية ، فروح الرأسمالية هي نفسها روح العقيدة البروتستانتية بما تتضمنه من سلوك وأخلاقيات عملية، ولقد وجدت « الأخلاقيات الاقتصادية » في نطاق الديانة البروتستانتية، فروح الرأسمالية ظهرت قبل أن تظهر الرأسمالية ذاتها •

ولقد توصل فيبر الى هذه النتيجة من خلال تحليل دقيق لتعاليم لوثر Luther وكالفن Calvin • فروح البروتستانتية كما

تبدو في أخلاقياتها العملية في الحياة اليومية ، تطابق في الواقع روح الرأسمالية الحديثة . ذلك أن العقيدة البروتستانتية تهتم اهتماما بالغاً بتنشئة الفرد تنشئة عقلية ، وهي تمنح المهنة قيمة أخلاقية كبيرة ، كما أنها تقدس العمل، بل وتعتبر أن تأدية العمل بأمانة وحماس واجب مقدس، والعقيدة البروتستانتية فوق كل ذلك تعتبر جمع المال بطريقة شريفة نشاطا ذكيا .

كذلك سعى فيبر الى تأييد استنتاجه من خلال تحليل تاريخ بعض الدول البروتستانتية فنجد عصر الاصلاح كانت الدول الرائدة اقتصاديا ، هي تلك التي تسودها العقيدة البروتستانتية مثل هولندا ، وانجلترا . وأمريكا ، بينما ظلت الدول الكاثوليكية أو غير البروتستانتية متخلفة نسبيا . ولقد فسر ذلك بأن روح العقيدة البروتستانتية في تلك الدول، كانت تدعينا وتثبيتا لأشكال النشاط التي تعتبر ضرورية لإقامة وإدارة المشروعات الرأسمالية الحديثة (١) .

وفضلا عن ذلك نجد تدعيما لآراء ماكس فيبر وافتراضاته فيما يتعلق بهذا الميدان ، ما أظهرته البيانات الإحصائية من أن السكان البروتستانت في ألمانيا تتميز حالتهم الاقتصادية بأنها أفضل عنها بين غير البروتستانت ، كما أن أبناءهم يتلقون تعليمهم في المدارس العملية والإدارية أكثر من أبناء غير البروتستانت . وعلى الرغم من ذلك فقد أدرك ماكس فيبر إمكانية تفسير عكسي لهذه الوقائع . ومؤدى هذا التفسير العكسي : أن هولندا وانجلترا وغيرهما من البلاد التي تتميز بارتفاع المستوى الاقتصادي ليس مرد ذلك أنهم أخذوا بالعقيدة البروتستانتية ، ولكنهم قبلوا هذه العقيدة ، وذلك نتيجة لأنهم في حالة

Sorokin, op. cit., pp. 475—480

(1)

اقتصادية عالية • فلقد قبلت الأسر الغنية العقيدة البروتستانتية لأن هذه الأسر كانت في حالة اقتصادية عالية • ويرى فيبر Weber أن هذا الافتراض العكسي خاطيء من أساسه • ذلك لأن هناك عددا من الفقراء الذين قبلوا البروتستانتية في روما وفي فرنسا وفي إنجلترا ، وذاعت الآن شهرتهم نظرا لارتفاع حالتهم الاقتصادية ، وما قدموه من نشاط صناعي ملحوظ ، ودورهم القيادي في مجال الأنشطة الاقتصادية • وهكذا استطاع فيبر أن يكشف عن هذا الافتراض العكسي ، وأن يدعم صدق نظريته • واستطاع أن يتبع المذاهب الفرعية في العقيدة البروتستانتية خطوة خطوة ، وذلك لكي يبين أن دراسته وارتباطاتها ، تدعمها دراسة كل الشعوب البروتستانتية في ألمانيا ، وهولندا ، وإنجلترا ، وأمريكا •

تلك هي أساسيات نظرية ماكس فيبر عن أصل الرأسمالية الحديثة وكيفية صدورها عن العقيدة البروتستانتية •

وهكذا يتضح كيف تتعارض نظرية فيبر عن أصول الرأسمالية الحديثة تعارضا واضحا مع التفسير المادي للتاريخ ، ذلك لأن البحث في إيجاد حل لمشكلة نشأة الرأسمالية ينبغي « ألا ينصرف الى دراسة نمو المتناقضات بين تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج - كما ذهب ماركس - وإنما يجب البحث عنه في تغيير الاتجاهات السيكولوجية التي تكونت منها عقلية النظام الاقطاعي الاقتصادي » •

وهكذا يؤكد فيبر بقوة أن تغييرا في العقلية قد سبق ظهور الأسلوب الرأسمالي في الإنتاج • وهو تغيير ينحصر في احلال السعي الحر من أجل الربح النقدي المشروع والتوفير والعمل الشاق المنظم محل القيم الاقطاعية التقليدية للحياة في الريف ، والتنظيم المعتاد القائم على وجود

طوائف تضم أصحاب الحرف في المدن ، وهكذا تكون الرأسمالية قد ظهرت في ظل « عام أخلاق اقتصادي » جديد سيطر على الناس وغير لريقتهم في الحياة . ويرجع ذلك لأن لكل عصر تاريخي « روحه » الخاصة به التي تنحصر في مجموعة الاتجاهات السيكولوجية البشرية التي تضيف على كل عصر طابعة الخاص . ومن هنا « فمفتاح فهم التطور الاقتصادي ليس أسلوب الاقتاج ، أي ليس القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج ، ولكنه الاتجاهات السيكولوجية التي تشكل « روح » عصر تاريخي » .

#### هـ - علم الاجتماع الصناعي :

اشتهر فيبر في ميدان الاجتماع الصناعي بدراساته الهامة عن البيروقراطية والسلطة ، وكانت مؤلفات الاجتماع الصناعي الحديثة تعتبر أن هذا هو الاسهام الوحيد الذي قدمه فيبر في الميدان . لكن هناك مجموعة دراسات تناولت جوانب أخرى أسهم بها فيبر في ميدان الاجتماع الصناعي ، ومن أهم هذه الدراسات دواصة الدردج J. E. T. Eldridg بعنوان : منهج فيبر في الدراسة السوسيولوجية للعمال الصناعيين (١) ، وتمثل هذه الدراسة قراءة جديدة لفكر ماكس فيبر ، لذلك سوف تقتصر هنا على تحليل أهم ما تضمنته هذه الدراسة . كان الدردج فريدمان قد أشار في مؤلفه المجتمع الصناعي الى مقال فيبر ، بعنوان : سيكوفيزيكية العمل الصناعي ، كذلك أشار الى مقال آخر هو مقدمة منهجية كتبها فيبر للمسح الذي أجرته منظمة السياسة الاجتماعية عن اختيار وتوافق العمال في المصانع الكبرى . ولقد تناول « اوبرشال Oberschall تحليل أعمال فيبر هذه في بحث له بعنوان : البحث الامبيرتي في ألمانيا ( ١٨٤٨

Eldridge, Weber's approach to the Sociological Study of (1) Industrial Workers, in Sahay op. cit., pp. 97—110.



— ١٩١٤) (١) • واهتم أوبرشال بإبراز الحقيقة التي مؤداها ، ان فيبر كان مهتما بمحاولة فهم المشكلات الاجتماعية المعاصرة في ألمانيا قدر اهتمامه بالدراسات التاريخية المقارنة ويبدو ذلك واضحا من عضويته في منظمة السياسة الاجتماعية ، وهي منظمة ضمت جماعة من اساتذة الجامعات ورجال الاعمال وموظفي الخدمة المدنية الذين اهتموا بمعرفة المشكلات المصاحبة للعمل الصناعي واقتراح السياسات التي تحقق مزيدا من الاستقرار في العمل • وقد تأسست هذه المنظمة عام ١٨٧٢ وأسهم في تأسيسها الاقتصادي الاجتماعي جوستاف شمولر G. Schmoller وادولف فاجنر A. Wagner ، والتحق بها فيبر عام ١٨٩٠ وكان خلال هذه الفترة مهتما بدراسة التغيرات التي طرأت على علاقات العمل في المناطق الريفية بألمانيا • ثم اتجه اهتمام المنظمة بعد ذلك الى العمل الصناعي ، وكان ألفرد فيبر قد اقترح اجراء مسح للعمال الصناعيين ، وتولى ماكس فيبر تنظيم هذا المسح وتوجيه جهود الباحثين الاجتماعيين في الدراسة الميدانية • ويقول أوبرشال ان هذا المسح يمثل أهم الأعمال الميدانية التي أجريت في فترة ما قبل الحرب بألمانيا ، اذ أمضى فيبر فترة امتدت صيف عام كامل في ملاحظة ظروف العمل باحدى مصانع النسيج • وكان يهدف في هذه الملاحظات الى استكشاف مدى ملائمة أدوات البحث السيكلوجي لدراسة العمل الصناعي على نطاق واسع • كما اهتم بربط المعلومات التي توصل اليها عن طريق استبيان صمم لهذا الغرض بالمعلومات التي تنطوي عليها سجلات المصنع ، واستخدامها في تحليل ما يتوصل اليه عن طريق الملاحظة المباشرة للعمال في المصنع • ولقد أوضح ماكس فيبر أهداف البحث ومنهجه واجراءاته في مقاله

(1) A. Oberschall, *Empirical Social Research Germany 1948* — 1914 Mouton — Paris, 195, Ch. 6, Max Weber and the Problem of Industrial Work».

السابق الاشارة اليه حيث قسم هذا المقال الى ثلاثة أقسام هي : (أ) الطبيعة العامة للمسح ، و (ب) المشكلات العلمية للمسح ، و (ج) منهج المسح . وكشف في القسم الأول عن مشكلتين هامتين ، فهو يقرر أن المسح الحالي يسعى الى بيان أثر الصناعة الكبرى على الشخصية الفردية ، والمستقبل المهني ، فأسلوب حياة العمال في مجتمعاتهم المحلية من جهة ، فضلا عن توضيح مدى تأثير الصناعة ذاتها في اتجاهات نموها وتطورها بالخلفية العنصرية والثقافية والاجتماعية للعمال الصناعيين . ومعنى ذلك أن فيبر قد اهتم بما يهتم به رجال الاجتماع الصناعي في وقتنا الحاضر وهو ما يسمى بالتحليل التنظيمي الداخلي والتحليل التنظيمي الخارجي . أما الأول فيركز على البناء الداخلي للتنظيمات الصناعية ، والثاني يبحث أثر الصناعة في المجتمع ، وكلا النوعين من التحليل التنظيمي يتبنى منظورا شاملا يمكنه من ادراك المشكلات التنظيمية والمجتمعية الأساسية (١) .

ثم نجد فيبر بعد ذلك يناقش الفروق بين المسوح ذات الاهتمام السياسي الاجتماعي في مقابل المسوح السوسولوجية البحتة ، مسترشدا في ذلك بالطبع بنظريته عن الحياد الاخلاقي التي ضمنها مقاله بعنوان : معنى الحياد الاخلاقي في علم الاجتماع والاقتصاد ، يقول فيبر في هذا الصدد : « ان المسألة ليست هي كيفية تقدير الظروف الاجتماعية للصناعة بصفة خاصة ، أي بحث مدى ملاءمة ظروف العمل بالمصانع الكبرى بالنسبة لرضاء العمال ، وكيفية تحسين هذه الظروف ، ان البحث يتجه وجهة غير متحيزة ، فيهدف الى التعرف الموضوعي على الحقائق

---

(١) انظر دراسة تطبيقية استخدمت هذا التصور في بحث التنظيم الاجتماعي للصناعة في مصر : محمد علي محمد ، مجتمع المصنع : دراسة في علم اجتماع التنظيم ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

واستكشاف أسبابها داخل العمل الصناعي ومن خلال دراسة شخصية العمال ... ان مشكلة البحث هي مشكلة محايدة تماما بطبيعتها . والباحث وان كان يأخذ في اعتباره شكاوى العمال الخاصة لكنه لا يهتم أن يصدر حكما عليها ، بقدر ما يهتم بتفسير الظواهر الفنية الاقتصادية أو السيكولوجية في ذاتها . كما يهتم أيضا بالحالة النفسية للعمال وأسلوب تفكيرهم . وفي كل ذلك ينظر اليهم الباحث لا على أساس « تبريراتهم » وإنما في ضوء حالاتهم » (١) .

ويؤكد فيير في مقدمته المنهجية ضرورة فهم الظروف الفنية والتنظيمية والاقتصادية العامة كمطلب أولي للدراسة السوسولوجية الجادة ، مثال ذلك أن نظام توزيع السلع يؤثر على طريقة الانتاج مما ينعكس بدوره على الخصائص التي يتعين أن تتوافر في قوة العمل . كما أن على الباحث أن يأخذ في اعتباره النتائج المترتبة على التغيرات التكنولوجية في الصناعة بالنسبة لحجم قوة العمل ونوعيتها ودرجة مهارتها . اذ لا يجب أن نفترض أشياء دون الرجوع الى السياق العام المحيط بها ، أو أن نجمع احصاءات دون معرفة ما تنطوي عليه من دلالات . وهو يقرر في هذا الصدد في مؤلفه : نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي أن «هناك الكثير من احصاءات الظواهر الاجتماعية الخالية من المعنى مثل معدلات الوفيات ، وظواهر التعب الصناعي ، ومعدلات الانتاج ... ويرجع ذلك الى عدم الاهتمام « بفهم » هذه الاحصاءات على أساس أهميتها الطبيعية . وعلم الاجتماع عليه أن يدرك المعاني الذاتية لهذه الظواهر وأن يحصر نفسه في نطاقها ... فهي تمثل في الحقيقة مشيرات وظروف تؤثر في السلوك » .

Eldridge, op. cit., p. 99.

(1)

ويحدد فيبر استراتيجية المسح تحديدا واضحا ، فيطالب بالاهتمام بالمصانع التي تتحقق فيها الظروف التالية : (أ) حينما تمثل تكاليف الأجور معدلا عاليا من اجمالي التكاليف و (ب) حينما يعتمد الانتاج كما ونوعا على كفاءة العمال ، و (ج) تقنين الانتاج الذي يعتبر فرصة هائلة لقياس انتاجية العمال . ولقد دفع ذلك فيبر الى تأكيد أهمية تحليل طابع قوة العمل وسوق العمل على أساس العرض والطلب ، وأسلوب التعيين في الشركات الصناعية ، والانماط المختلفة للمستقبل المهني Career Patterns • ومعنى ذلك أن دراسة قوة العمل لا تحتاج فقط الى معرفة بالاحصاءات الاقتصادية وانما هناك ضرورة الى التعرف على العوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤثر في اختيار الناس لأعمالهم ، وعموما ، فإن التساؤلات التي سوف يهتم بها عالم الاجتماع عند اجراء هذه الدراسات تتلخص فيما يلي :

(أ) الى أي مدى يتجه تطور الطبقة العاملة اتجاها نوعيا ، متأثرا بالفروق الاجتماعية والاقتصادية بين مختلف الطبقات ؟

(ب) هل يزداد الاعتماد على العامل الصناعي التخصص في عمله ، أم لا يزال التخصص في العمل الصناعي مطلبا عاما ؟

(ج) هل كل تقنين للانتاج يحتاج أيضا الى تقنين العمال ، وإلى أي مدى تتوسع الشركات الصناعية في ذلك ؟ وهل تقدم على وضع البرامج التدريبية اللازمة لهذا الغرض ؟

(د) ما هي فرص الترقى أمام العمال اقتصاديا وتنظيميا وسيكولوجيا ؟  
(هـ) كيف تؤثر نتائج هذه الظروف جميعا على الطابع النفسي لعمال الصناعة وأسلوبهم في الحياة ؟

لا شك أن هذه التساؤلات التي وضعها فيبر آخذا في اعتباره عددا

من المتغيرات الاقتصادية الأخرى مثل تكوين رأس المال ، وسوق العمل، سوف تكون الإجابة عليها من خلال البحث العلمي عبارة عن مسح شامل لخصائص الطبقة العاملة في الصناعة واتجاهات نموها في المستقبل ، وهو بحث لا تزال دراسات الاجتماع الصناعي وسوسيولوجية العمل بحاجة ماسة إليه حتى وقتنا الحاضر .

ويعالج فيير في القسمين الأخيرين من المقال مسألتين هامتين فهو يؤكد أولا أن العوامل الفيزيولوجية لا يمكن وحدها أن تقدم تفسيراً صحيحاً لسلوك العمال «فالدافعية تعد عاملاً هاماً، إذ كيف نفسر سلوك العمال الذين يفضلون البقاء في أعمالهم بدلاً من تغييرها بأعمال أخرى ذوات أجور أعلى من أعمالهم الحالية، ولا شك أن الدافعية بهذا المعنى ظاهرة اجتماعية مركبة لا يمكن إرجاعها لعوامل فيزيولوجية » ثم يحلل فيير بعد ذلك أهمية العوامل الاجتماعية في تفسير سلوك العمال وبخاصة حينما كان يصدد مناقشة للعلاقة بين الأجور والانتاجية ويمكن أن نلخص التساؤلات التي يتعين الإجابة عليها في هذا الصدد فيما يلي :

(أ) إلى أي مدى تستطيع سياسة الأجور أن تحقق ما نصبوا إليه من نتائج في ضوء طبيعة العمل كما ونوعاً ؟ ويمكن في هذا المجال المقارنة بين سياسات الأجور في الصناعة الألمانية خلال سنوات عديدة لمعرفة الفروق بين النظم التقليدية والنظم الرشيدة .

(ب) إلى أي مدى تستطيع سياسات الأجور الرشيدة أن تحقق أهدافها ؟ ويتعين هنا الاهتمام بالنتائج غير المتوقعة التي قد تبدو في ظواهر مثل تقييد الانتاج Restriction of Output والتنظيمات غير الرسمية للعمال .

(ج) ما هو تأثير تقييد نظم المكافآت على مستوى الانتاجية ؟  
(د) اذا احتفظنا بنظام المكافآت ثابتا فما هو الشكل المتوقع لمنحنى الاجر بالنسبة لكل عامل خلال فترة من الزمن ؟ وذلك بالطبع سوف يضع لنا أساسا للمقارنة بين المهن •

ويمضي فيبر في تحليله ليؤكد أن الاحصاءات وحدها ليست كافية، وانما لا بد من الحصول على معلومات شخصية من العمال تفيد في فهم هذه الاحصاءات • وتتفق وجهة النظر هذه مع الدراسات الحديثة للاجور ، اذ يذهب ديريك روبنسون Derek Robinson الى أن دراسات الأجور أحوج ما تكون الى تبنى منهج دراسة الحالة الذي يمكننا من معرفة الظروف الشخصية المؤثرة على انتاجية كل عامل ويعطينا صورة واقعية لمنحنى الانتاج والأجر بدلا من التعامل مع متوسطات احصائية صماء لا تكشف لنا عن الديناميات الداخلية المؤثرة في العمل والانتاج (١) •

والواقع أننا نستطيع أن نقول بالفعل مع الدرديج « ان عام ١٩٠٨ كان عاما هاما بالنسبة لبحوث الاجتماع الصناعي » ، فلقد وضع فيبر العديد من التساؤلات التي يمكن أن توجه مسار البحوث في هذا الميدان ، وهنا تبدو فائدة القراءة الجديدة لأعمال رواد علم الاجتماع ، فلقد ظل تراث علم الاجتماع الصناعي خاليا من اشارة الى هذه الجوانب الهامة من أعمال فيبر واقتصر على عرض نظريته في البيروقراطية ، ونقد هذه النظرية على أساس أنها خلت من اشارة الى التنظيم الاجتماعي غير الرسمي واكتفت بوضع الخصائص المثالية للبيروقراطية ، وهي خصائص عقلية تماما لا تتحقق في الواقع • ولقد اتضح لنا الآن ان هذا الانتقاد الشائع بحاجة ماسة الى اعادة النظر فيه، في ضوء اهتمامات فيبر بالعوامل الاجتماعية والنفسية المؤثرة في سلوك العمال واقتاجياتهم ورفضه

Eldridge, op. cit., p. 109.

(1)

للتفسيرات الفسيولوجية للسلوك ، وهو اتجاه قريب الشبه بحركة العلاقات الانسانية في الادارة •

## ٦ - مناقشة وتعليق :

لن أهتم كثيرا في هذا الصدد بعرض الانتقادات التقليدية التي وجهت الى أعمال ماكس فيبر ، فلقد وردت هذه الانتقادات في العديد من المؤلفات والمقالات وأصبحت مألوفة للجميع<sup>(١)</sup> ، وانما سأنتهز الفرصة لعقد مقارنة سريعة بين آراء كل من فيبر ودوركايم وباريتو باعتبارهم ينتمون الى جيل واحد تقريبا ، كما اجتهد كل منهم في تقديم اسهام فريد للنظرية السوسيولوجية • ومن خلال هذه المقارنة المنهجية سوف تتضح النقاط التي تحتاج الى مناقشة وتعليق عند ماكس فيبر •

ان فيبر ودوركايم وباريتو ينتمون الى جيل واحد تقريبا عاش ظروفًا تاريخية متشابهة هي ظروف نمو الحضارة الغربية وما صاحب هذا النمو من مشكلات انعكست آثارها واضحة على نظم المجتمع ومكونات بانيه • ورغم الاختلافات الفكرية التي توجد بين كل منهم ، فانهم جميعا كانوا يهدفون الى تطوير علم الاجتماع بوصفه الأداة الرئيسية لتشخيص مشكلات هذه الحقبة التاريخية ، وإيجاد الحلول لها • وهم كما أوضحنا يشتركون جميعا في أن النسق الفكري الذي طرحه علم الاجتماع عندهم كان بمثابة رد محافظ على التيار الذي تزعمته الماركسية لتثوير مفاهيم علم الاجتماع من أجل تغيير المجتمع وتحديد مسيرته في اتجاه معين بالذات<sup>(٢)</sup> • وربما كان ماكس فيبر على وجه

(١) راجع هذه الانتقادات في : السيد الحسيني ومحمد علي محمد ، ماكس فيبر ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٦٧ •

(٢) انظر دراسة هامة للدكتور محمود عودة ، علم الاجتماع بين الراديكالية والرومانسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ •

الخصوص اكثرهم قدرة على الافادة من هذا التيار رغم أنه كرس بحوثه في الاقتصاد والدين للتحقق من افتراضات الماركسية ، لكنه قدم لنا علم اجتماع قريب في منهجه من الماركسية من حيث الاهتمام ببناء المجتمع ككل ، واجراء المقارنات الحضارية الواسعة النطاق ، واعتبار التاريخ والبصيرة التاريخية مطلباً أساسياً لدراسة الظواهر الاجتماعية ، بل ان فيبر كان يهدف في الحقيقة الى التعرف على معنى الوجود بأكمله ، ولم يفرق في هذا الصدد بين الفرد والجماعة ، وانما الفرد هو عضو في بناء الجماعة لا يمكن تجاهل وجوده ، ومن ثم يتعين دراسة سلوكه وأفعاله مثلما نهتم تماماً بتحليل الجماعة . ولهذا يمكن القول بأن فيبر كانت له فلسفته الخاصة عن الكون المحيط بنا ، وأن هذه الفلسفة جزء متمم لعلم الاجتماع عنده ، بل انه يتعذر فهم مضمون هذا العلم دون البدء بهذه الفلسفة وهذا هو ما يؤكد جوليآن فروند J. Freund. في

مؤلفه بعنوان : علم الاجتماع عند ماكس فيبر Sociologie de Max Weber

حيث كتب يقول : « ما من أحد يستطيع أن ينكر أن عرض فيبر ونظريته في علم الاجتماع يحتاج بداءة الى تحليل تصوراته الفلسفية العامة ، اذ بفضل هذا الأسلوب فقط نستطيع أن نعطي أعماله مظهراً متكاملًا وأن نخوض بيسر في أفكاره المتعددة » <sup>(١)</sup> . وينبغي أن نضيف حقيقة أخرى الى ذلك وهي أن فيبر كان مفكراً متعدد الجوانب، ويرجع ذلك بالطبع الى المناخ الفكري الذي نشأ فيه كرجل قانون ، واقتصاد ، وسياسة ، لكن هذه الجوانب المتعددة لفكره يربطها نسيج واحد ، وفي ذلك يقول فروند أن ما يميز فكر فيبر هو الانتشار المنهجي العلمي والفلسفي ... ولكنه انتشار بعيد كلية عن التفكك والاضطراب، فليس هناك من كان أكثر منه تشدداً في سعيه الشغوف لتعريف الأفكار

Freund J. *Sociologie de Max Weber*, Paris, 1970. Ch. 1 (1)



التي يتناولها تعريفا دقيقا ، وتمييز الأوضاع المختلفة للمشكلات التي يدرسها ، وإدراك المستويات المتعددة للقضية التي يناقشها يكفينا أن نطلع على دراسته المنهجية لنرى تشدده في تعقب المتناقضات المنطقية والعموض ، وعدم الدقة في الاستدلال والبرهان « (١) » .

ولعل المقارنة بين تفسير فيبر ودوركايم وباريتو للمجتمع الذي عاشه كل منهم يلقي مزيدا من الضوء على تصوراتهم العامة والفروق بينها . اذ يعتقد دوركايم أن المشكلة الاجتماعية هي في جوهرها مشكلة أخلاقية ، وأن الأزمات التي يعاني منها المجتمع المعاصر هي أساسا أزمات أخلاقية كامنة في بناء المجتمع ذاته . ومثل هذه الطريقة تكشف عن فكرة رئيسية ميزت أعمال دوركايم عن كل من باريتو وفيبر هي عدم الاهتمام تماما بالصراع . ولا شك أنه من الممكن تصنيف معظم علماء الاجتماع في ضوء الاتجاه الذي تبناه كل منهم نحو الصراع ، أو على الأقل على أساس المعنى الذي يحدده كل منهم لهذا المصطلح . ينظر دوركايم للمجتمع - مثلما فعل كونت - بوصفه وحدة طبيعية تقوم على الاتفاق العام أو الإجماع Consensus ، لا محل اذن للصراع من أية زاوية ، فلا يمكن أن يكون دافعا للحركة التاريخية ، ولا تعبيرا عن الطبيعة البشرية ، انه فقط عرض من اعراض الازمات المعاصرة . والمجتمع الحديث في رأي دوركايم يتميز بدرجة عالية من التباين الوظيفي للأشخاص ، ومن ثم فهو مهدد باختلال توازنه ، وانهيار الإجماع دون أن يوجد نظام اجتماعي عام يحافظ على وحدة المجتمع ، ذلك هو الانومي anomie الذي يشكل محور المشكلات متى يعاني منها مجتمع ما ، ومع ذلك ، فلقد كان دور كايم يؤمن بأن الشخصية الانسانية ، والحكم النقدي هي قيم مقدسة في عصرنا الحالي . من ذلك يتضح لنا

أن ثمة ثنائية تميز تفكير دوركايم ، فهو من جهة يتصور المجتمع باعتباره يشكل بداية الالتزام الاخلاقي والديني ونهايته ، ومعنى ذلك أن المجتمع هو القيمة العليا ، وإذا أخذنا فكرة دور كايم الثانية من جهة أخرى من أن عصرنا الحالي ينظر الى الفردية والعقلانية بوصفها قيما أساسية ، فإن دوركايم هنا ينتمي الى مفكري التنوير ، اذ هو يسعى الى البحث عن الأسس الاجتماعية العقلانية والفردية ، ولعل هذا هو نفس موقف أوجيست كونت الذي عبر أيضا عن استجابة محافظة لفلسفة التنوير ، وللثورة على وجه الخصوص ، ومن المعروف أن هذا التيار قد انتشر بين المفكرين الفرنسيين أكثر من غيرهم .

أما اذا اتقلنا بعد ذلك الى فيير وباريتو فمن اليسير أن ندرك أفكارهما من خلال السياق الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بهما من جهة ، واهتمامها بنقد وتحليل آراء ماركس من جهة أخرى .

فلقد كان باريتو يهدف من كتاباته الى نقد الماركسية وتفنيد قضايها ، فهو كرجل اقتصاد ينتمي الى مدرسة لوزان Lausanne ويتبنى آراء ولراس ويسعى الى صياغة نظرية للتوازن الاقتصادي على أساس الاختيار الفردي ، ويعتبر التحليلات الماركسية عن العمل وفائض القيمة والاستغلال خالية من الأساس العلمي . كما طور باريتو أيضا نظرية عن توزيع الدخل يبرهن فيها على أن توزيع الدخل في كافة المجتمعات انما يفسر على أساس قانون رياضي معين . ومن ثم، أصبحت فرص تغيير هذا التوزيع عن طريق الثورة على النظام محدودة تماما ، بل هو يذهب الى أبعد من ذلك حينما يقرر أن العقلانية الاقتصادية ضرورية ولهذا السبب فان خصائص الاقتصاد الرأسمالي سوف تظل باقية حتى مع احتمال حدوث ثورة اشتراكية . وهكذا ، يسعى باريتو الى صياغة

مبررات الملكية الخاصة والمنافسة وهما في نظره أهم مقومات التقدم الاقتصادي .

ويتفق فيير بالطبع مع باريتو في نقله للماركسية ، ولكنه يؤكد أهمية التنظيم الرشيد والبيروقراطية ، فعلى حين يرى باريتو أن المنافسة والملكية الخاصة هما أساس الثروة والرفاهية الاقتصادية، وبفضلهما تنمو البيروقراطية ، نجد أن فيير انطلق أساسا من تحليل المناخ الثقافي والاطار القانوني والاداري الذي بفضلله سوف تنمو الرأسمالية وتزدهر، فأكد أهمية التنظيم الرشيد والبيروقراطية في المجتمع الحديث ، ذاهبا الى أن البيروقراطية سوف تزداد تدعيما حتى في حالة التحول نحو الاشتراكية . لكن الذي يجب أن ننتبه اليه هو أنه بينما صاغ باريتو علم الاجتماع خاليا من أي اهتمام بالبعد التاريخي ، نجد أن فيير قد منح التاريخ أهمية خاصة ، بل يمكن القول أن الدراسات المقارنة التي أجراها فيير للحضارات العالمية تؤكد الارتباط الوثيق بين التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية تكشف عن نفسها بوضوح في السياق التاريخي .

والواقع أن الاسهام الذي قدمه فيير ودوركايم وباريتو لتطوير علم الاجتماع يتمثل في تصورهم لهذا العلم بوصفه يتخصص في دراسة الفعل الاجتماعي . بدا ذلك بوضوح في أعمال فيير وباريتو ، وبشكل ضمني في كتابات دوركايم . ويقوم هذا التصور على اعتقاد مؤداه أن الانسان ككائن اجتماعي وديني هو مصدر القيم والانساق الاجتماعية ، وعلم الاجتماع يهدف الى فهم بناء هذه القيم والانساق ، اي بناء الفعل الاجتماعي . ولقد كان فيير هو أول من وضع تعريفا لعلم الاجتماع باعتباره الدراسة الشاملة للفعل الأنساني، ومعنى ذلك أن الإنسان يتصرف في ضوء ما يختاره من أهداف ، وما يستعين به من وسائل لتحقيق هذه

الأهداف، ثم هو يكيف نفسه مع الظروف المحيطة به على النحو الذي يراه ملائماً، كما أنه مزود بطائفة من القيم والرموز التي تحدد اختياراته وتحكم استجاباته ، ولقد كرس بارسونز Parsons ، مؤلفا هاما له هو بناء الفعل الاجتماعي The Structure of Social Action لتحليل أعمال باريتو ودوركايم وفيبر ، باعتبار أن كتاباتهم قد أسهمت في تطوير نظرية الفعل الاجتماعي . ويعتقد بارسونز أن هذه النظرية أكثر نظريات علم الاجتماع شمولاً وقدرة على التفسير ، فهي شاملة لأنها تكشف عن المنطق الكامن خلف سلوك الفرد والجماعة ، فلا تكتفي بظاهر السلوك ، وإنما تنشئ دائماً معرفة المعاني والأسباب المتعددة لمختلف أنماط السلوك الانساني ، وهي قادرة على التفسير لأنها تضع كل سلوك في السياق العام الذي يكشف عما ينطوي عليه هذا السلوك من دلالات .

ولا شك أن فيبر بالذات هو الذي وضع أساس هذه النظرية حين قدم تصنيفه لنماذج الفعل الاجتماعي ، فمهد بذلك لمدرسة بارسونز ، بل حدد معالم علم الاجتماع الأمريكي بصفة عامة . لكن الشيء الذي يجب أن نوضحه أن فيبر ليس هو المسؤول عن ذلك التيار الميريقي الحديث في علم الاجتماع الأمريكي الذي لم يعد يهتم كثيراً بالأبعاد النظرية البنائية والتاريخية . ان فيبر قدم لنا علم اجتماع قادر على تطوير الاهتمام بالبحوث الميريقية وفي الوقت ذاته أكد في كتاباته وأعماله المختلفة أن البحث بدون رؤية تاريخية مقارنة وصياغة نظرية محكمة يصبح عديم القيمة .

(٢)

## الفهم وحقيقة العلم

شهد القرن التاسع عشر جدلا وحوارا لا يزال له صدها حتى وقتنا هذا حول المنهج الملائم للعلوم الاجتماعية ، هل تتبع هذه العلوم نفس المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية ؟ أم ينبغي لها أن تختط لنفسها منهجا آخر يناسب موضوعها الذي يختلف اختلافا تاما عن موضوع العلوم الطبيعية ؟ ومثل الفريق الاول الوضعيون الذين يرون أننا لا نستطيع أن نفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، فالعلم هو العلم ، ووحدة المنهج العلمي يجب أن نحافظ عليها مهما كانت ظروف البحث والدراسة ، ويترتب على ذلك ان غاية العلم واحدة وهي التفسير واكتشاف القضايا العامة التي تحدد اسباب وقوع الظواهر وارتباطاتها . أما الفريق الآخر فهو يقف موقف المعارضة الشديدة بين دعوى الوضعية زاعما ان العلوم الاجتماعية مختلفة موضوعا عن العلوم الطبيعية ، ولها بالتالي ان تطور طريقة خاصة بها للبحث في هذا الموضوع المركب اشد التركيب ، وأفضل طريقة في هذا الصدد هي تلك التي انحدرت الينا عن تراث المدرسة الالمانية وهي ما يعرف اصطلاحا بالفهم Verstehen كمقابل للمعرفة Wissen في العلوم الطبيعية . ويختلف

الفهم اختلافا تاما عن مناهج العلوم الطبيعية ، ذلك اننا مهما أدخلنا من تعديلات على مناهج هذه الأخيرة فستظل غير ملائمة لدراسة الانسان والمجتمع ؟ اذ ان المعرفة في العلوم الطبيعية معرفة خارجية تجريبية كمية ، على حين أن الفهم في العلوم الانسانية داخلي يتجه نحو الخبرة البشرية ويفحص محتواها . ويترب على ذلك ان الخبرة مرتبطة مباشرة بالحدس والتعاطف ، أما الظواهر الطبيعية فهي مدركة بالحواس ، ومن ثم كان الاستبطان الذاتي والفهم ملائما للاولى ، أما التجربة والتجريب فهي الطريقة المناسبة للعلوم التي تعالج الطائفة الاخرى من الظواهر .

واذا اعتبرنا التعميم غاية في العلوم الطبيعية ، فان الطريق الموصل اليه في هذه العلوم يستند أساسا على توافر مادة قابلة للقياس ، ومن ثم اقامة الارتباطات الاحصائية ، واستخدام الصيغ الرياضية في التعبير عن هذه الارتباطات وتحديد مدى دلالتها . أما في العلوم الاجتماعية فان الباحث الاجتماعي لا يجب أن يلتزم كلية بهذه الاجراءات الصارمة وانما عليه أن يطور فكرته عن الموضوع أو الظاهرة من خلال تصور ذاته داخلا في الموضوع أو جزءا منه ، ويجعل من التفسير أو التأويل التعاطفي قنطرة تصل بينه وبين الآخرين فينفذ الى المعنى من خلال نوع من الخبرة الحدسية ( Intuitive Experience ) ، وهكذا تكون غايته كيفية لا كمية بأي حال من الاحوال .

والواقع أن هذا الحوار الشديد اللهجة بين الوضعيين ، وأصحاب الاتجاه الذاتي - ان صح هذا التعبير له اصوله وجذوره العميقة فهي تاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي . اذ يستمد هذا الحوار اصوله من تلك التفرقة العنيفة بين العقل والمادة والتي ترجع الى أكثر من ألفي عام مضت . ومع أن فلاسفة أيونيا الاوائل ( المدرسة الطبيعية ) لم يكن

لديهم اهتمام واضح بالتفرقة بين العالم العقلي والعالم الطبيعي ، الا أن هذه التفرقة اخذت تحتل مكانها بالتدريج كمشكلة محورية في الفكر الفلسفي اليوناني القديم وبخاصة عند سقراط وافلاطون ؛ اذ طرحت على بساط البحث قضايا المعرفة العامة في ضوء تلك التفرقة ، واعتبر افلاطون معرفة الكليات والمثاليات ارقى بكثير من معرفة ظواهر الطبيعة ( عالم الأشباح ) . واتخذت هذه التفرقة صوراً مختلفة بعد ذلك في تاريخ الفكر الانساني . ففي الفلسفة المسيحية التي سادت اوروبا خلال العصور الوسطى اتخذت التفرقة بين العقل والمادة صورة لاهوتية جديدة هي التفرقة بين الروح والجسد ، وبين المقدس والمدنس . كما أن مشكلة الكليات اعيدت مناقشتها من جديد على نحو شجع على ظهور الحوار بين الواقعيين والاسمين عند الدومينيكان والفرنسيسكان .

أما الفلسفة الحديثة التي تبدأ ديكارت فلم تستبعد هي الاخرى بأي حال من الاحوال مسألة العقل والمادة . اذ طالب ديكارت بتبني منهج جديد لتأسيس وحدة الفكر الانساني في مختلف المجالات الامبيريقية ، واللاهوتية ، والأخلاقية . وكانت نقطة بدايته هي مفهوم الذات المفكرة ( أنا أفكر اذن أنا موجود Cogito Ergo Sum ) باعتبارها المقدمة الرئيسية الأولى . وحاول ديكارت مستخدماً مجموعة من الاستدلالات المنطقية أن يثبت كافة الافكار الأخرى ، بما في ذلك فكرة الله ، معتسداً على يقين البرهان الرياضي .

وحتى في أعمال ديكارت واجهت محاولته من اجل التوصل الى بناء رشيد للفكر صعوبات تتعلق بفكرة العقل والمادة باعتبارهما جوهرين متميزين . فالعقل والمادة كلاهما يلتقي في الانسان ، حيث يؤثر كل منهما في الآخر ، ولكن اين يظهر هذا التفاعل ؟ وكيف يؤثر العقل في

الجسم دون ان ينطبع بطابع المادة؟ يرجع ديكارت هذا التفاعل الى الغدة الصنوبرية ، والتي وصفها علماء الفسيولوجيا في عصره ولكنهم عجزوا عن تفسير وظائفها ، كما افترض ديكارت أيضا وجود ارواح حيوانية وتقوم باحداث تفاعل متبادل بين العقل والجسم . ولقد كانت الوظائف التي حددها ديكارت للغدة الصنوبرية وللارواح الحيوانية وظائف وهمية فشلت في اقناع اي من مفكري عصره . على ان مدرسة فلسفية اخرى يطلق عليها اسم مدرسة المناسبات حاولت ايجاد مخرج لما وقع فيه ديكارت عن طريق الزعم بأن التفاعل بين العقل والمادة منعدم تماما ، ولكن ثمة توافق مسبق بينهما كما لو كان هناك تفاعل بينهما . اما سبب هذا التوافق المسبق فهو الله ، والمثال الذي يقرنا من هذه الفكرة هو مثال ساعتين سبق ضبطهما ، فاذا الساعة الاولى تتوافق وتتزامن مع الساعة الثانية ، كما لو ان هناك تفاعلا بينهما . ومع ان هذه النظرية هي الاخرى لم تكن مقنعة كذلك ، الا انها افلحت في اكتشاف وظيفة لله في عالم يتجه بقوة نحو الآلية .

ولقد حاولت الفلسفة الحديثة من ديكارت الى كانط ان تطور نسقا عقليا موحدا للفكر الانساني محتفظة في الوقت ذاته بمفهوم العقل والمادة باعتبارهما جوهرين كليين متميزين . ولقد شكلت فلسفة هيوم Hume الشكية حجر عثرة في سبيل قيام هذا النسق حينما رفض هيوم فكرة الجوهر، اذ حينئذ لم يبق امامنا سوى محاولة كانط التأليفية، حيث عدّد كانط ثلاثة مجالات يمكن فيها اصدار الاحكام العامة هي : عالم العلم ( أي دراسة الاحداث الامبريقية ) والأخلاق وعالم الذات ، ثم عالم الدين . وجوهر العقلانية عنده هي القدرة على اصدار احكام عامة، ويحدث التناقض حين نصدر الاحكام في مجال غير مجالها . ويذهب كانط الي ان عالم الظواهر الامبريقية ينظمه مبدأ العلية الآلية ، أما عالم



الاخلاق فينظمه مبدأ الحرية . واذا ما تساءلنا عن كيفية حدوث التفاعل والتأليف بين هذه المجالات ، سندرك على الفور في التحليل النهائي انها لا تتفاعل ، وأن الكانطية قد اوضحت هي الأخرى ضربا من نظرية المناسبات . ومع ذلك فلقد صاغ كانط فلسفته صياغة محكمة بحيث اصبحت هي البداية الطبيعية لكافة تطورات الفلسفة الغربية منذ زمانه .

وبينما انشغل الفلاسفة بمشكلة العقل والجسم ، نجد ان معظم الباحثين والعلماء قد حددوا مجالات معينة تحديدا مطلقا باعتبارها تنتمي اساسا الى نطاق العقل ، ومجالات اخرى بوصفها ترتبط بالمادة . فدراسة مختلف مقولات الثقافة ( كالادب والفن والموسيقى ) تنتمي الى العقل ، اما دراسة الخصائص الطبيعية والكيميائية للاشياء او دراسة سطح الارض فهي تنتمي الى عالم المادة . ودراسة التاريخ الانساني تتعلق بخبرة الانسان وتنتمي الى العقل ، بينما تنتمي دراسة الفسيولوجيا الى المادة . واحيانا ما تختلط هذه المجالات ببعضها ، ومن ثم يسعى العلم الى تخطي الفجوة بينهما ، لكن عادة ما ينتمي كل مجال الى فرع محدد للعلم اما طبيعي واما انساني . وكل مجال عليه ان يبحث المناهج الملائمة لدراساته دون ان يلتفت غالبا الى المناهج والاجراءات التي تستخدم في مجال آخر . وهكذا انصرف المتخصصون تخصصا ضيقا الى تطوير مناهجهم ودراساتهم الخاصة متجاهلين تلك الثنائية الشهيرة بين العقل والمادة ، ولكن حينما تنتقل الى مستوى التنظير وصياغة الاطر التفسيرية العامة التي ترتبط التخصصات بعضها ببعض وفقها فاننا نواجه بتلك الثنائية بالضرورة .

على ان التغييرات التي شهدتها القرن التاسع عشر وعلى الاخص تلك التي طرأت على الموقف الفكري السائد ادت الى انتقال مشكلات

العقل والمادة خارج نطاق الفلسفة ، فلقد ظهرت الانظمة القومية الحديثة وتحددت معالم الاتجاهات نحو الديمقراطية والاشتراكية ، واخذت الجامعات تعيد صياغة برامجها وفقا للمتطلبات القومية ، واصبح الوضع مهيئا لكي تغزو مناهج واجراءات العلم الطبيعي ميدان الانسانيات ، بعد ان اكتسبت العلوم هبة عالية في ذلك الوقت واسهمت في تأسيس الاقتصاد الرأسمالي الحديث .

ومن اهم النتائج الثقافية للتغير الفكري في القرن التاسع عشر ظهور العلوم الاجتماعية في العالم الغربي ، تلك التي ظهرت ظهورا متتابعا سريعا من اهمها الاقترولوجيا والاقتصاد والجغرافيا وفلسفة القانون والعلوم السياسية وعلم النفس وعلم الاجتماع . ولقد نشأت هذه العلوم اساسا في إطار الانسانيات ، وكانت المناهج التي اعتمدت عليها خلال مرحلة النشأة الاولى هي مناهج لغوية وتاريخية استبطانية في الغالب الاعم . ثم ما لبثت هذه العلوم ان تأثرت بالتقوم الهائل للعلوم الطبيعية نتيجة لتبني الاتجاه الوضعي والاعتماد على التجربة والتجريب . وهكذا طالب اوجيست كونت في اطار علم الاجتماع بضرورة استخدام مناهج تلك العلوم في دراسة الظواهر الاجتماعية ( اي في عالم العقل ) ، ولقد رفضت الوضعية كما صاغها كونت في فرنسا وهربرت سبنسر وجون ستورات مل في انجلترا وهي التي كانت تقوم بتحليل الاحداث الانسانية تحليلا تجريبيا خالصا ، ومن ثم هجرت تماما كافة المفاهيم الدالة على افكار داخلية ، او ماهيات ، او مبادئ ترانستندالية تجاوز الواقع وتتسامى عليه ، مدعية ان المناهج الملائمة لدراسة الظواهر الاجتماعية هي تلك التي تتبناها العلوم الطبيعية والتي تركز على مفاهيم مثل التتابع والتساوق والسبب والنتيجة ، ومثل هذه المفاهيم هي التي تساعد

العلماء في اقامة قوانين التطور الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي . وهكذا، طالب جون استيوارت مل (١٨٣٤) بتأسيس علم الاجتماع على علم نفس علمي مشتق من الفسيولوجيا ومدعم بإجراءات العلوم الطبيعية . وترجع اصول الاتجاه الوضعي الى اعمال فرنسيس بيكونBecon وأصحاب المذهب التجريبي في انجلترا وبخاصة ديفيد هيوم واصحاب الاتجاه النفعي .

لكن الوضعية في العلوم الاجتماعية خضعت لانتقادات عديدة، اهمها تلك التي اثارها المثاليون المحدثون والكانطيون المحدثون، وارتكز نقدهما على الحقيقة التي مؤداها ان الوضعية قد ردت العقل الى المادة . وحاول الاتجاهان الجديدان ان يحتفظا للعقل بمكانه كموضوع لعلوم الخبرة ، لكن المثالية المحدثة حاولت تحقيق ذلك من خلال التفرقة بين موضوعين للدراسة ، اما الكانطية المحدثة فقد وضعت بعض التمييزات المنهجية . وهكذا اصبحت طريقة الفهم تشير الى مضمونين مختلفين عند كل منهما، فعند المثاليين المحدثين يصبح الفهم فعلا عقليا ينتقل من الادراك المباشر للمعاني الكامنة في خبرة شخص ما خلال الفهم التعاطفي للآخرين وباستخدام مفاهيم نموذجية الى فهم عام للخبرة الانسانية برمتها . أما الكانطيون المحدثون فهم يحددون الفهم في العلوم الاجتماعية بوصفه يتألف من عزل المقولات الصورية للقيمة عزلا يمكننا من القول بجدوى آحاد الناس في تحريك التاريخ، والقول كذلك بالتغير الحاسم الذي تخضع له هذه المقولات في اطار مركبات تطويرية معقدة غير متجانسة .

وعموما ، فافتنا خلال تاريخ علم الاجتماع نستطيع ان نفرق بين الوضعيين وبين الذين رفضوا الوضعية من خلال معرفة مدى قبولهم او رفضهم للفهم كمنهج للدراسة . فمؤسس علم الاجتماع كونت، وجون

استيوارت مل وسبنسر ولستر وارد كانوا وضعيين الى درجة تقل او تكبر أما التيار المضاد للوضعية والذي تبنى طريقة الفهم فقد ظهر في اعمال جورج زيمل والفرد فيركانديت • وتابع دوركايم التقليد الوضعي، على حين تأثر ماكس فيبر تأثراً هائلاً بـنهج الفهم عند دلتاي وبطريقة التحقق الواقعي من المعزى التاريخي عند ريكتر ، وتجلت هذه الشائبة بوضوح في اعماله المنهجية ودراساته التحليلية •

وظهرت قضية الفهم في علم الاجتماع الأمريكي بصفة خاصة - وعلى سبيل المثال لا الحصر - في اعمال تشارلز كولي Cooley (١٩٢٩ - ١٨٩٤) وفلوريان زفانيكي Znaniecki (١٩٣٤) ، وروبرت ماكيفر Maciver (١٩٤٣) ، وبيتر سوروكين Sorokin • ولقد كان مؤلف بارسونز Parsons الاساس الاول : بناء الفعل الاجتماعي (١٩٣٧) يعبر عن اتجاه مضاد للوضعية حيث تأثر تأثراً شديداً بقضية الفهم • وخلال هذه الفترة ذاتها ظهرت اعمال جورج لندبرج Lundberg التي عبرت عن نزعة وضعية جديدة • وطور تيودور آبل Abel (١٩٤٨) وضعية راقية غير تقليدية حين تعرض لنقد عملية الفهم مطالباً باكسابها مزيداً من الدقة المنهجية •

وخلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية طالب رايت ميلز C. Wright Mills بهجر دعاوى العلوم الطبيعية من اجل صياغة مفهوم للعلوم الاجتماعية يشبه الى حد كبير مفهوم الكانطيين المحدثين • وقام فيرنند ستارك W. Stark (١٩٥٨) بمحاولة لتبني مدخل الفهم واحياء الكانطية المحدث في دراسته لعالم الاجتماع المعرفي • ولقد ادى ذلك كله الى ظهور طائفة من شباب العلماء الاجتماعيين الذين اعتبروا

انفسهم دعاة علم اجتماع جديد على نموذج علم الاجتماع الذي صاغه رايت ميلز ، والقضية التي يثيرها هذا العلم الجديد في رأيهم تتمثل في ان مشكلة العقل والمادة لا تزال مشكلة حاسمة في علم الاجتماع خلال منتصف القرن الحالي ، وان طريقة الفهم طريقة ستظل ملائمة تماما لعلم الاجتماع •



وبإيجاز ، فان قضية الفهم والمعنى والمشكلات المتصلة بها سوف تظل قائمة ما دامت مشكلة ثنائية العقل والمادة تشغل حيزا من التفكير الغربي، وحتى اذا ظهرت تيارات جديدة متعارضة مع هذه الفكرة، فانها لن تزول ، ولكنها تختفي فحسب الى حين ثم تعاود الظهور مرة اخرى • والكتاب الذي يسعدنا ان نقدمه للقارئ العربي بعد ان قمنا بترجمته عن الاصل الانجليزي يختص بمعالجة هذه القضية • فالعنوان الاصلي للكتاب هو : الفهم والدراسات الانسانية ، ويسعى مؤلفه الاستاذ ريكمان الى عرض وجهة نظر فلسفية تعد بمثابة منهج ملائم للدراسات الانسانية • والكتاب رغم صغر حجمه الا انه يفيد القارئ العام والمتخصص في انه يجعله على ألفة بالفلسفة حين تسهم اسهاما اصيليا في تدعيم مفاهيم الدراسات الانسانية ومناهجها • كما انه يجيء في وقت ملائم تماما اقتشرت فيه نزعة تدعو الى التخصص المحدود في مجال العلوم الاجتماعية من جهة ، والى المطالبة بضرورة تبني مناهج العلوم الطبيعية من جهة اخرى ، ومع ان التخصص أمر ضروري في أي فرع من فروع المعرفة ، كما ان الدقة والإحكام مطلبان ضروريان لسلامة المنهج ، الا ان خطورة هذه النزعة تتجلى عند التطرف فيها ، فيكون التخصص على حساب التكامل الموضوعي ، وتكون الدقة مجرد مظهر خادع لا يجعلنا ننفذ الى لب الظاهرة الانسانية ومغزاها •

والمؤلف الاستاذ ريكمان H . P . Rickman بجامعة لندن وكلية  
اكسفورد الجديدة قام بتدريس الفلسفة وعلم النفس بجامعة هال Hull  
وسيتي City ، وقد تخصص في دراسة فلسفة فلهلم دلتاي ، والف  
فيها كتابا بعنوان : المعنى في التاريخ Meaning in History  
وعدد من المقالات الاخرى . والقضية الرئيسية التي يهتم بها الاستاذ  
ريكمان في مؤلفاته هي دور الفلسفة في توضيح اسس الدراسات  
الاجتماعية .

وانا نأمل ان يسد هذا الكتاب ثغرة في الدراسات الانسانية  
بعامة ، وان يكون عوناً للدارس في علم الاجتماع على فهم قضايا  
المنهج والنظرية فهما يمكنه من دراسة الواقع الاجتماعي وتحليل ظواهره  
تحليلاً متعمقاً .

## تصدير بقلم دونالد ماكري

يعثر النشاط الفكري ، في اي لحظة من لحظات الزمان ، على تيارات ومصالح وعادات فكرية وبحثية هي بمثابة رواسب عن الماضي تعيش جنباً الى جنب مع يوجد من نظريات معاصرة بما لها من قوة وقبول . وباستطاعة البحث ان يكشف دائماً عن عناصر ومداخل جديدة دون شك ، بعضها يبقى ويزدهر ، وبعضها يندثر بسرعة فائقة . ومن المؤكد ان الاتجاه الذي يطلق عليه الدكتور ريكرمان مصطلح الدراسات الانسانية – والذي يضم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، والاثروبولوجيا وعلم النفس – هو احد الاتجاهات التي تسعى الى صياغة تفسير انساني ذاتي ، فلسفي ، تأملي ، كيني ، ومن ثم فهو يقف مواجهاً لتلك التفسيرات السلوكية والكمية والوضعية . وهو يتناول كل ما تعلق بالانشطة الرمزية ، وكل ما ينطوي على دلالة في خبرتنا الشخصية والاجتماعية والتاريخية . ولنا ان نتوقع الا يقف طالب الدراسات الانسانية عند هذا الحد ، بل سيجد نفسه امام اسلوب مثير للتجديد ، وطريقة ناجحة في البحث ، ومنهجية بالغة الاحكام

— حتى وان بدت غير محسوسة — الا انها تعبر عن مدخل من يمين  
مداخل اخرى عديدة ، ولن تبهره ايضا اضواء العلم حين تتجلى في  
تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على دراسة الافسان والمجتمع • انه سيجد  
العديد من المؤلفين ممن حققوا هبة عالية يدعمون عنده ذلك الانطباع،  
وهم بالطبع مؤلفون اطلقوا بميتافيزيقاهم بعيدا عن الآفاق المحدودة  
للإتجاه المسيطر •

هنا استطيع ان اجد تبريرا قويا لمقال الدكتور ريكان ، فالإتجاه  
العلمي في علوم الانسان — واقصد بالزعة العلمية في هذا الصدد محاولة  
إحتذاء نموذج العلوم الطبيعية ، كما يتبدى ذلك في الإتجاه الآلي  
الكلاسيكي الذي اعتبر نفسه انموذجا لما ينبغي ان تكون عليه العلوم —  
هو في الحقيقة مطاب فلسفي • اما ما يهتم به الدكتور ريكان فهو يمثل  
مسألة فلسفية بالغة الاهمية • وانني اعتقد ان عرضه لهذه المسألة جاء  
عرضا استثنائيا في وضوحه ، وعمقه ، واكتماله • لقد حاول ان يبين ان  
معرفة الدراسات الانسانية هي في جوهرها مختلفة عن معرفة العلوم  
الطبيعية نظرا لطبيعتنا البشرية الخالصة • وهكذا ، فإنه يتعين ان تختلف  
تلك الدراسات هي الاخرى عن العلوم الطبيعية في جوانب عدة اهمها  
المفاهيم والافتراضات ، وهو لا يلجأ الى استبعاد طرق البحث الاجتماعي  
الدقيقة الاخرى، بل انه يعتقد ان الدراسة الكمية للسلوك سوف تستعيد  
قيمتها حينما تبني وجهة نظره • على ان هذه البحوث لن تستأثر بالميدان  
برمته ، فتمثل وحدها كل ما هو ممكن ، وقافع ودقيق في علم الاجتماع  
والموضوعات المتصلة به •

اما اهمية تلك الفكرة فتعود الى اسباب كثيرة ، فالمسائل الفلسفية  
المتعلقة بالاستمولوجيا ومنطق العلوم الاجتماعية ومكانة التقويم في



هذه العلوم ، تطرح على بساط البحث من جديد باهتمام بالغ ، ويستطيع الدارس او القارئ ان يعدد الاعمال الهامة في هذا الميدان ، نذكر منها اعمال الاستاذ برنشتاين Bernstein في علم الاجتماع اللغوي ، والاستاذ جوفمان Goffman في دراسة محتوى الادوار والعلاقات حين يركز عليها في ذاتها (او كما يقال غالبا الفينومينولوجيا) . والدكتور مارتن Martin عن الدين والموسيقى ، والاستاذ آنبرت Anbert عن الكليات الانسانية كالحب والنوم . الخ ، او قد يقرأ مؤلف سارتر Sartre نقد العقل الجدلي ويدهش عن كونه يعد علم اجتماع . وربما يطرح نفس التساؤل بصدد اعمال فلافز فانون Franz Fanon في مجال السياسة وعلم النفس الاجتماعي الموجهة اساسا ضد الامبريالية . ان الدارس يعجز عن تناول هذه الاعمال وتقويمها بدون فهم المواقف الفلسفية وتقديرها ، وهو قد يختلف مع هذه الاعمال الى الدرجة التي اختلف فيها شخصيا مع فانون ، لكن ذلك ليس لب المسألة . ان اهم ما في الموضوع هو ذلك الوضوح التام الذي يغلف عملية الفهم كما عرضها الدكتور ريكمان .

غير ان هذه المشكلة في ذاتها ليست جديدة ، فقد وفدت الينا من خلال كانت Kant ومن خلال الفلسفة التاريخية الثقافية عند فلهلم ديلتاي Dilthey ، - ولقد قدم الدكتور ريكمان مختارات رائعة من مؤلفه المعنى في التاريخ - لكن المشكلة محورية في فهمنا لاعمال ماكس فيبر الذي اعتبره ثاني او ثالث مؤسس لعلم الاجتماع . وبسطة شديدة ، فاذا لم نفهم ما سيعرضه هذا الكتاب سنعجز تماما عن فهم اعمال فيبر . وبنفس البسطة ايضا يبدو ان معظم الذين عرضوا كتابات ماكس فيبر لم يتحملوا عناء هذا العمل .

هكذا ، اعتقد ان هذا الكتاب الصغير الحجم مفتاح للكثير مما لا يزال هاما ومبهما في تاريخ علم الاجتماع ، كما انه مفتاح ايضا لما يحتل نفس الاهمية في مرحلته الراهنة والمستقبلية . فبهذا المفتاح ، كما اوضح الدكتور ريكان نستطيع ان نفتح ما استغلق من ابواب الدراسات الانسانية بمختلف فروعها ، ونبين ان اقتران هذه الدراسات لم يكن امرا قعسفا . وسيجد الطالب هنا قناعة اولية بأن الفلسفة ، لافى جانبها الابستمولوجي فحسب . ضرورة تماما للمعرفة وللتقدي في ذلك الحقل السريع النمو للدراسات الاجتماعية . كما يتعلم ايضا الحرية والثقة بالنسبة للمصادر والشواهد السوسيولوجية ، وتدعمه في ذلك دعما قويا كتابات الفلاسفة من امثال هومر Homer وكيركيغارد Kierkegard ومؤرخي السير الذاتية ، والفنانين ، وعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ولن يكون هذا التدعيم اقل قوة من ذلك الذي يجده في المسوح ودراسات الرأي العام ودراسات الحالة .

لكن ذلك كله لا يعني انني اوافق تماما على كل ما ورد في هذا الكتاب ، فاني لست مقتنعا تماما بمعالجة الدكتور ريكان للقيم . واذا اقتبست تشبيها من ستيف سميث استطيع أن اقول بان الصعوبة التي تواجهني تفوق تلك الصعوبة التي واجهت الدكتور ريكان لكي اؤكد من ان من يلوح من البحر ليس بغريق . . . ذلك ان التفسير في علم الاجتماع مسألة تشير في نفسي القلق ، وعندي الكثير من المشكلات العامة ، لكنني اشعر بكل تأكيد بان القارئ المتعمق لهذا الكتاب سيكون اكثر حساسية وقدرة على الخيال ، بل سيكون باحثا اجتماعيا فاقدا حينما ينتهي من مطالعة كتاب الدكتور ريكان .

دوفالد ماكري

## مقدمة المؤلف

من الأهمية بمكان ان نفهم العالم الانساني ، وأن نجعل الدراسات التي تتناول الانسان على أعلى درجة من الكفاءة ، وتزداد هذه الأهمية اليوم أكبر مما مضى ، فلقد ترتب على الانفجار السكاني وتطور التكنولوجيا الحديثة المزيد من التعقيد في حياتنا . انا يجب ان تتوافق مع الحياة في مجتمعات كبيرة ، ومدن مكتظة بالسكان وعمل في منظمات كبرى . ولم يعد من الممكن ايضا ، كما هو الشأن في القرى والمصانع الصغيرة ، ان تؤسس الادارة وعلاقات العمل على معرفتنا الشخصية بالناس الذين تتعامل معهم . ويتعين كذلك اعادة تكييف ظروف العمل بحيث يستطيع الناس التعامل مع الآلات المعقدة .

وهكذا ، فنحن بحاجة الى خبراء فنيين في فهم الناس ومشكلاتهم، وقادرين على مساعدة الفرد في علاقاته بالمجتمع ويشمل ذلك المديرون وعلماء النفس الاجتماعي والصناعي والتربوي (حديثا) وعلماء الجريمة . ولقد ادت هذه الحاجة الى التوسع السريع في الدراسات الانسانية خلال الحقبات القليلة الماضية ، فانشئت اقسام الاجتماع في الجامعات البريطانية ، واصبح علماء الاجتماع يقدمون المشورة في مجالات عديدة

مثل تخطيط المدن والادارة الاجتماعية • ويجري تدريب الاخصائيين النفسيين على اختيار العمالة في المصانع وفي اقسام التريية والخدمة الاجتماعية • كما تطورت دراسات الادارة استجابة لحاجات الصناعة • وهناك طائفة كبيرة من البحوث تجرى الان في هذه الميادين وغيرها • ولقد حققنا تقدما ملحوظا في هذا المجال ، لكن علينا ان نواجه بسرعة فائقة تلك الحقيقة التي مؤداها، ان الكثير من المشكلات الرئيسية في الحياة الجماعية والتكيف مع الظروف لم تحسم بعد • فلا تزال تواجهنا مشكلات ارتفاع معدلات الجريمة ، والتعصب العنصري ، والمرض العقلي • ومن الضروري ، اذن ، ألا يتضمن مدخلنا للدراسات الانسانية اي نقطة ضعف •

ومن بين اهم نقاط الضعف ذلك التخصص الضيق الذي يؤدي الى تفتيت الدراسات الانسانية • فمعظم البحوث الاكاديمية يقوم بها شباب الباحثين من ذوي الخبرة المحدودة ، والذين لا يسمح وقتهم بالقراءات الواسعة • وهم يسعون الى تجنب الاخطاء وتحقيق اعلى درجة من الاعتراف الاكاديمي في الوقت ذاته ، وهذا يتطلب اختيار موضوعات للبحث محددة تحديدا ضيقا ، وان يكون البحث في اطار تخصص الأستاذ • وهنا يبدو أن الأهم بالنسبة اليهم هو ألا يتعرضوا للنقد على حساب ما يمكن ان يتوصلوا اليه من نتائج مشرة • ويميل البحث التطبيقي ايضا الى ان يكون ضيق النطاق بحيث ينصب على ما يظهر من مشكلات وقتية • وهكذا ، جاءت نتائج هذه البحوث دون المستوى الذي يمكن ان يسهم في تحقيق بناء متماسك من المعرفة • ان الانسان لا يفهم الا من حيث كونه انسانا ، وهذا في حد ذاته عمل بالغ التعقيد • اما اذا اتسم مدخلنا للدراسة بضيق نطاقه فلن نستطيع إلا ان نفهم جزءا يسيرا من المسائل البالغة التعقيد، ومن ثم يجب

ان يكون هناك تعاون اوثق بين مختلف مداخل الدراسة ، وبين مختلف التخصصات ايضا ، فمن المؤسف مثلا الا يتعاون علماء النفس التحليلي مع علماء النفس التجريبي والا تكون بينهم لغة مشتركة وبالمثل انه من غير المستحب الا تعرض نظريات علم النفس عرضا مفهوما - دعنا نفترض - للمؤرخ بحيث يستطيع الاستفادة منها .

ان التخصص امر ضروري نتيجة للتزايد المستمر في المعرفة ، فنحن لا نتوقع ان يوجد عالم اجتماعي يحيط علما بعدد كبير من العلوم ، او حتى بكافة جوانب علم واحد . لكن عليه ان يفهم وضع دراساته ووظائفها في اطار بناء الدراسات الانسانية . واذا ما جاز لنا ان ننظر الى هذه الدراسات بوصفها تمثل كلا متماسكا يتألف من معرفة الافراد والجماعات ، فيجب ان نوقن بأن لهذه العلوم مناهج رئيسية مشتركة ويمكنها ان تستعين بنفس المفاهيم ايضا ، ومن الضروري كذلك الكشف عن كيفية ارتباط الجوانب المختلفة للمشكلات الملموسة بعضها ببعض حيث نكون على وعي حين ينتهي عمل متخصص معين ويبدأ عمل متخصص آخر ( فالجريمة على سبيل المثال لها جذورها الاقتصادية والنفسية والتاريخية والسوسيولوجية ويجب دراستها من هذه الجوانب جميعا . كما يجب التنسيق بين مختلف المداخل ) .

وليس من شك ان مهمة تحديد مجالات الدراسة والتنسيق بين مجموعة العلوم المتداخلة سوف تصبح سهلة يسيرة حينما نضع نظرية فلسفية كأساس لهذه الدراسات . فما هي هذه النظرية ؟ وماذا يترتب عليها من فوائد ؟

هناك تعريفات عديدة للفلسفة ، ولقد استخدمت كلمة الفلسفة للإشارة الى طائفة متنوعة من الأنشطة الفكرية ، فلقد تأمل الفلاسفة -

على سبيل المثال - الطبيعة المطلقة للواقع ، وصوروا المطامح الاخلاقية للعصر . وهنا ينصب اهتمامنا على تلك الانشطة الفكرية التي تشغل حيزا كبيرا من أعمال الفلاسفة الا وهي البحث في طبيعة المعرفة .

وحينما نسعى الى الاجابة على التساؤل الذي مؤداه ، كيف نعرف العالم ونصوره لأنفسنا ؟ سنجد ان الاستمولوجيا (نظرية المعرفة) تعني ببعض المهام المرتبطة في هذا الصدد ، فعليها بداءة ان توضح المبادئ والافتراضات المسبقة التي تنطوي عليها عملية معرفة شيء ما ، ثم تبين بعد ذلك كيف تختلف هذه المبادئ باختلاف موضوع البحث . وعن هذه القضية الخاصة بمنهج الدراسة تنبع المهمة الثالثة ، اذ يتعين على نظرية المعرفة ان تقدم فحصا نقديا للمفاهيم العامة التي تستخدمها في الاشارة القائمة من جهة ، وتطورها او استبدالها بمفاهيم اخرى تكشف الواقع بكفاءة اكثر من جهة اخرى، واخيرا لا بد ان تربط الاستمولوجيا بين مختلف المفاهيم الرئيسية بطريقة منظمة .

ومن الضروري ان ينطبق هذا النوع من البحث على دراسة الانسان ( اي على الدراسات الانسانية ) ، ذلك أن النتيجة التي يخلص اليها اي بحث تتلون بالمفاهيم التي تستخدمها ، والافتراضات التي نفترضها ، بل ان ما فطلق عليه مصطلح الواقعة Fact ، ونجعل منه نقطة بداية لبحثنا ، يتحدد على أساس ما نستعين به من مصطلحات وافتراضات . فقولنا ان جون غاضب ، او بريطانيا دولة ديمقراطية هي عبارات تشير الى وقائع مختلفة تماما عن تلك التي تشير اليها عبارة الزرع اخضر ، كما اننا نكتشف تلك الوقائع بطرق مختلفة . وعلينا ، على اية حال ، ان نقدم تبريرا لما نصفه بأنه يمثل واقعة وان نفسر ما نعينه بها ، وعلينا كذلك ان نوضح شروط اقتناعنا بمواهة تلك الوقائع .

غير ان الحقيقة السابقة لم تكن دائما موضع موافقة عامة ، فبعض الناس يعتقدون اننا لسنا بحاجة الى التدليل على هذه الجوانب من النظرية ، لاننا عادة ما نتخطى هذه الافتراضات في بحوثنا . فالوقائع في مواجهتنا ، وهي تتحدث عن نفسها . وفي اعتقادي ان هذه النظرة العامة الساذجة وهم باطل . فالذين يتبنون تلك النظرة ليسوا على وعي بافتراضاتهم ، ومن ثم لا يدرسونها ، ويترتب على ذلك استخدام مناهج خاطئة ، والتوصل الى نتائج غير ملائمة ، فضلا عن مخاطر تلك النزعة الفلسفية الساذجة ، وفي ذلك كله ما يبرر أهمية البحث النظري .

وثمة سبب آخر يختلف تماما عن السبب السابق يبرر أهمية التنظير الفلسفي . فليست الغاية هي ان يستيقظ الناس من ثباتهم عن النظرية نتيجة قرع طبول الفلسفة ، ذلك ان الكثير من العلماء الاجتماعيين لديهم معتقدات نظرية راسخة ، لكن بعض هذه المعتقدات بحاجة الى النقد ، وبعضها يعاني من اخطاء ظاهرة . بل ان كثيرا من النظريات يتبنى نظرة احادية في التفسير ، مما يفسد مسار البحث في الميدان . واعتقد ان الوضعية هي من بين تلك النظريات التي توجهنا توجيهها خاطئا ولقد ادت في ميدان كعلم النفس الى ظهور النزعة السلوكية . واثني آمل ان أتمكن من الكشف عما تعاني منه هذه النظرية من افتراضات تعسفية ، مما جعلها تهمل جوانب مشمرة جدا للبحث ، ويجب ان نناقش تلك المسألة في ضوء نظرية المعرفة .

ان النظرية الفلسفية للدراسات الانسانية التي طورتها في هذا الكتاب ترجع اصولها الى فلهم دلتاي ، فلقد حاولت تأسيسا على معالجته للفهم والمعاني والتعبيرات ومناقشته لمقولات الحياة - حاولت - ان أقدم نظرية متكاملة سوف تسهم في حل مشكلات اشرت اليها بالفعل ، وذات

قيمة عالية لدارسي مختلف العلوم الاجتماعية لأنها تكشف عن طبيعة العلاقة بين هذه العلوم .

ويعد مصطلح الفهم تصورا رئيسيا في هذه النظرية ، واعني به تلك العملية المعرفية التي تتعرف من خلالها على افكار ومشاعر ومطامح الكائنات الانسانية الاخرى . ذلك هو المعنى الذي تقصده من مصطلح الفهم في استخدامنا العادي حينما نتحدث عن فهمنا لصراخ الطفل ، او لسياسة حزب العمل ، غير ان الاستخدام العام للمصطلح أوسع من ذلك ، فنحن نتحدث عن فهمنا لآلية السيارة وللتفاعلات الكيميائية . وتعريفنا للمصطلح يستبعد هذا المعنى الواسع ، ذلك لان هذا الكتاب لا يتعلق بالعمليات الفكرية عموما ، ولكنه بالتحديد يتناول الاستبصار في العالم الانساني . واعتقد ان الفهم على هذا النحو يختلف عن فهمنا للعمليات الطبيعية ، وان استخدامه بهذه الطريقة يميز الدراسات الانسانية عن العلوم الطبيعية .

والفهم مألوف لدينا منذ نعومة أظفارنا ، فهو جزء من حياتنا اليومية، وهو يعيننا على متابعة ما يلقي الينا توجيهات بالكلمة او بالإشارة ، كما أنه سبيلنا الى فهم قصيدة الشعر التي نقرأ ، أو ادراك غضب شخص ما . ولما كان الفهم مألوا الى هذا الحد أهملناه وقللنا من قيمته ، ومع ذلك فحينما نسعى الى فهم شخصية ما ، او تيار سائد في عصر معين ، او ثقافة قبيلة ، او اسباب الانحراف نلجأ الى نفس العملية . لكنها ليست عملية بسيطة ، ان علينا أن نستخدم الفهم في جمع وتصنيف ومقارنة الشواهد وفي استخراج النتائج والتثبت من صحتها . هناك اذن امران يستحقان التفسير هما : كيف يمكن تحقيق الفهم ، وكيف يمكن استخدامه بكفاءة في البحث ؟



وتنبع ضرورة الفهم كمدخل متميز لدراسة الكائنات الانسانية من حقيقة أن العالم الانساني مفعم بالمعاني بصورة لا تتحقق في العالم الطبيعي . ولا يعني ذلك ان هناك خطة شاملة او تصميميا عاما للحياة الانسانية ، ولكنه يعني ان السلوك الانساني مصحوب بالوعي ومدعم بالاهداف ، وانها تنشأ عن تفسير المواقف والاعتراف بالقيم . ف وراء الشخصية التاريخية ، والرقصات الطقسية للقبيلة البدائية ، وممارسات رجال النقابات او رعشات العصايين ، وراء ذلك كله تكمن أفكار ومعتقدات ومشاعر تكسب السلوك معناه . ومهمة المؤرخ وعالم الاجتماع والاثربولوجي الاجتماعي وعالم النفس لا تقف عند وصف هذا السلوك ، وانما عليهم أيضا أن يكتشفوا ذلك المعنى من خلال عملية الفهم . ويعتمد ذلك الى حد كبير على خبرتنا الخاصة بكيفية تأثير هذه المشاعر والافكار في السلوك . وهنا يصبح للدراسات الانسانية فضل كبير يفوق فضل العلوم الطبيعية . فحينما نلاحظ عملية كيميائية نستطيع فقط ان نشير الى تتابع الحوادث دون ان يكون لدينا استبصار مباشر حول كيفية ارتباطها . ومن ثم لا نخلص الا الى بناءات فرضية .

وثمة مفهوم رئيسي ثالث الى جانب الفهم والمعنى هو مفهوم التعبير Expression يحتاج الى ان نفسره . والتعبيرات هي المظاهر الفيزيكية للنشاط البشري والتي يدرسها الفهم . اذ برغم انها وقائع فيزيقية او احداث ، الا أن التعبيرات تنبئ عن الوقائع المعتادة والاحداث بما تنطوي عليه من دلالة للعمليات العقلية . فالتنفس في ذاته ليس تعبيراً ، ولكن التقاط المرء انفاسه عقب صدمة مفاجئة هو كذلك . والحجرة ليست تعبيراً ، ولكنها حين تستخدم في تمييز الحدود تعد تعبيراً . ويشمل المصطلح كافة الوسائل الاعتقادية للاتصال من الكلمات الى علامات

الطريق ، فضلا عن قسّمات الوجه التي تكشف عن المشاعر والافعال لانها توضح ما يكمن خلفها من اغراض . ان تنّاج العمل الانساني - الآلات والابنية - هي تعبيرات الى الحد الذي تكشف فيه عن مسار الجهود والافكار البشرية . وهكذا ، تكون جملة التعبيرات هي الموضوع الامبيرقي للدراسات الانسانية .

وتكشف هذه التعبيرات عن نفسها في صور مختلفة تحتاج الى مداخل متباينة ، ومن ثم فان تصنيف التعبيرات يفتح آفاق المناهج في الدراسات الانسانية ، ويلقي ضوءا على طبيعة التخصص ، لانه يساعدا في اعادة فحص التساؤل الذي مؤداه كيف تقسم مختلف العلوم مجال الحياة البشرية فيما بينها

وحينما نطرح التساؤل الخاص بكيفية فهمنا للتعبيرات فنصل الى مفهوم السياق Context ؛ فكافة التعبيرات تظهر داخل سياق ، ولا تفهم الا من خلاله . بعبارة اخرى ترتبط التعبيرات فيما بينها لانها نابعة عن شخص واحد ، او لان بينها وجه شبه كبير ، او لما تحققه من هدف مشترك . الخ .

وتعريف هذه السياقات وتصنيفها يلقي مزيدا من الضوء على المسائل المنهجية ويساعد في تحديد موضوع مختلف العلوم . فقد نطرح على سبيل المثال تساؤلين مختلفين حول شراء الناس للسيارات هما : لماذا يفعلون ذلك ؟ وكيف يؤثر ذلك في مشكلات الطرق ؟ ونحن بذلك نكون قد وضعنا السلوك في سياقين مختلفين ، وبالتالي نحتاج الى مناهج مختلفة للإجابة على التساؤلين مما قد يستدعي الاستعانة بعلمين مختلفين . وتعد الحقيقة القائلة بأن التعبيرات هي مراكز الاثارة في السياقات

المتعددة هي في حد ذاتها بالغة الاهمية • فحينما نستكشف سياقاً معيناً يصبح من الضروري ان فكل مدخلنا يتتبع سياقات اخرى كذلك • بهذه الطريقة نحقق العدالة بالنسبة لما ينطوي عليه تنوع ضروب الحياة من ثراء ، ونكشف عن التداخل بين مختلف فروع العلم ، وتتعرف على الطرق المنطقية للتعاون فيما بينها •

والزعم بأن للحياة الانسانية معناها، وان هذا المعنى يتخذ له تعبيراً، وأنه بإمكاننا ان تفهمه حين نربط التعبيرات بالسياقات التي تظهر فيها ، تمثل جميعاً حجر الاساس في النظرية التي أعرضها ، والتي اعتقد أنها بمثابة الاطار للدراسات الانسانية • واخيراً ، فان هذا اللون من التنظيم سوف يثير مناقشات لمشكلات هامة



# الفصل الأول

## الدراسات الإنسانية والفلسفة

- ١ - مفهوم الدراسات الإنسانية .
- ٢ - المدخل الفلسفي .



# الفصل الأول

## الدراسات الانسانية والفلسفة

### ١ - مفهوم الدراسات الانسانية .

لقد تقدمت - في مقدمة هذا الكتاب - بتعريف مبدئي للفهم understanding ، وأشارت الى أهمية الفهم بالنسبة الى الحياة العملية والى الدراسات المعنية بالانسان، ويجب علينا الان ان نعرف الجزء الثاني من العنوان وهو المتعلق بالدراسات الانسانية . نحن تتمكن من الوصول الى ذلك التعريف باعداد قائمة - حتى وان كانت غير كاملة - للفروع والعلوم التي يغطيها مصطلح الدراسات الانسانية ، ويمكن ان تضم هذه القائمة : التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاثروبولوجيا الاجتماعية ، والاقتصاد ، والقيلولوجيا ، والتشريع ، والدين المقارن ، وبعض المسائل ذات الموضوعات العامة مثل : الجريمة ، ونظرية الاتصال، والدراسات الادارية .

ان جمعنا لهذه الموضوعات تحت اسم واحد يفترض من ناحية أولى ان لها سمات مشتركة ، وانها ترتبط بالموضوعات التي تعالجها وبالمناهج التي تستخدمها ، كما انه يفترض من ناحية ثانية بأنها ككل

مجموعي يمكن ان تتميز عن كل مجموعي آخر من العلوم وهي تلك التي نسميها بالعلوم الطبيعية physical sciences \* ومن هنا ندرك بأن تعريف الدراسات الانسانية يمكن أن يرتكز على ما بينها من اشتراك وعلى ما بينها وبين غيرها من اختلاف \*

ان تطور واستقلال مجموعات العلوم ، وانقساماتها ، وتكوينها لانساق متفاوتة هي أمور حديثة العهد ، ومع ذلك فلقد شهدت العهود القديمة والوسطى انفصال واستقلال بعض الموضوعات مثل : التاريخ ، والطب ، والتشريع ، الا أن كثيرا من الابحاث التي جرت وراء فكرة « التخصص الضيق » كانت داخلة في اطار البحث الشمولي للمعرفة ، فلقد مر افلاطون مرورا متصلا من دائرة التأمل الميتافيزيقي الى الكوزمولوجيا الى نظريات المجتمع دون أية عثرات ، كما أن أعمال أرسطو في المنطق والسياسة وعلم النفس والبيولوجيا كانت جميعها اجزاء لبحث شمولي واحد، وحتى في عهد ديكارت وجاليليو لم ينظر الباحثون في أنفسهم على أنهم مجرد علماء فلك أو فيزيائيين أو كيميائيين أو رياضيين أو حتى فلاسفة ، لقد كان كل منهم يشعر شعورا عميقا بتلك الصلات الوثيقة التي تربط فيما بينهم \*

ولقد شهد التطور التأملي للعلم فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر نموا مستقلا لانساق علمية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا وهي مزودة باطارات مرجعية واضحة كل الوضوح \* وخلال هذه الفترة ذاتها بزغت فكرة المنهج العلمي بحيث أصبح لكل نسق مناهجه الخاصة به \*

وكان لا بد ان ينتج عن هذا التطور الذي لحق بميدان العلوم الطبيعية تأملا جديدا لأسس الدراسات الانسانية \* والواقع أن دراسة



الانسان قديمة قدم دراسة الطبيعة ، وفي خلال العصور الوسطى وعصر النهضة تشعبت الدراسات الانسانية الى اتجاهات متباينة ، وفيما بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ م على وجه التحديد حدثت الثورة العلمية ، فأصبح التاريخ اكثر علمية ، وابتعد عن الاتجاه الاخلاقي ، وظهر مبدأ الحتمية وارتبط بالوقائع ، وامتد هذا الى دوائر التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وظهرت علوم الاقتصاد والاجتماع والنفس والانثروبولوجيا كعلوم مستقلة .

لقد نحت جون استيوارت مل مصطلح العلوم الاخلاقية Moral sciences الذي يقابله مصطلح Geisteswissenschaften في اللغة الالمانية لكي يدل به على تلك العلوم التي نمت نموا كبيرا في القرن التاسع عشر وتميزت من مجموعة العلوم الطبيعية ، وهذا يعني ان دراسة الانسان تختلف عن دراسة الطبيعة Naturwissenschaften . ولقد أثار نحت هذا المصطلح ودلالاته الكثير من المناقشات المنهجية : منها السؤال التالي : الى أي مدى يمكن ان تحاكي العلوم الاخلاقية علوم الطبيعة الفائقة الدقة، والى أي مدى يمكن ان تقف العلوم الاخلاقية على أقدامها ؟ كما أن اعطاء اسم مشترك للدراسات الانسانية بأنها علوم أخلاقية يمكن ان تثير جدلا حول علاقة تلك العلوم بعضها ببعض الآخر . هل هي علائقية فعلا ؟ وهل تشترك جميعها في أسس مناهجها؟ وكيف يتميز مثلا المدخل التاريخي عن المدخل الاجتماعي وفي نفس الوقت يتلاءمان ؟

اني اعتقد ، وآمل في أن أبين ، ان التصنيف الثنائي للعلوم الى علوم أخلاقية وأخرى طبيعية له معنى دقيق ومفيد . لكن لما كان المصطلح « علوم أخلاقية » Moral sciences قليل الاستخدام عموما ، كما أن

الترجمة الالمانية له بالمصطلح Geisteswissen shaften غامضة المعنى بالنسبة الى القارئ بالانجليزية ، فلقد اخترت مصطلح « الدراسات الانسانية » وهو مصطلح بدأ ذبوع انتشاره على الرغم من شعبية مصطلح « العلوم الاجتماعية » ومصطلح « الانسانيات » . نعم ان هذين المصطلحين الاخيرين يعطيان بعض الموضوعات المتضمنة في الدراسات الانسانية ، ويمكن ان يستخدمأ أحيانا كمترادفين لمصطلح « الدراسات الانسانية » لكن معنى أي منهما أضيق ، فنحن لا نفكر في علم النفس أو الاقتصاد علي أنهما جزآن من الانسانيات ، كما أننا لا نفكر في الفلسفة علي أنها علم اجتماع .

كنف يمكن اذن أن نعرّف الدراسات الانسانية؟ لقد اقترحت تعريفها مبدئيا بأنها دراسات تتعلق بالانسان ، علي الرغم من أن هذا التعريف ليس دقيقا بدرجة كافية وليس واضحا وليس منهجيا ، فالبيولوجيا علي سبيل المثال تهتم جزئيا بالانسان وأفعاله ، ولكنها حين تضيف ذلك الجزء الي الدراسات الانسانية وتضم بقية موضوع البيولوجيا الي علم الطبيعة فانها تقع حينئذ في خلط يؤدي الي عدم الرضا عنها ، ذلك لانه في تلك الحالة لا يكون ثمة فارقا بين الدراسة البيولوجية للانسان والقرد الا كالفارق بين دراسة القردة والقطط . والواقع أن الانسان — بغض النظر عن كل شيء — حيوان ( موضوع طبيعي ) وهو من حيث هو كذلك يمثل مادة وموضوعا للعلوم الفيزيائية .

ولنا أن نسأل الان : اذا كان العالم الطبيعي هو موضوع العلوم الطبيعية فما هو اذن موضوع الدراسات الانسانية ؟ لو أجبنا علي هذا السؤال وقلنا بأن الانسان هو موضوع تلك الدراسات الانسانية فان تلك الاجابة لن تكون كافية ، ذلك لان الانسان هو أيضا جزء من العالم

الطبيعي • هناك أيضا اجابة فلسفية لهذا السؤال أثارت الكثير من الجدل والنقاش وهي أن موضوع الدراسات الانسانية يتمثل في «عالم العقول»  
 The world of minds في حين يتمثل موضوع العلوم الطبيعية  
 في عالم المادة The world of matter • والواقع أن عبارة «عالم العقول»  
 يمكن أن تكون مقبولة وغير معترض عليها من أحد اذا استطعنا تحديد  
 معناها بالضبط وأشارنا الى متضمناتها • ان عالم العقول يشير - في  
 رأينا - الى أي محتوى عقلي mental content كالافكار  
 والمشاعر والرغبات والمقاصد • او الى أية أفعال تصاحب بمثل تلك  
 المحتويات العقلية ، أو الى أي نتاج يرجع جزئيا أو كليا للفكر أو الشعور  
 ( وهذا يتضمن الشعر والدين والمؤسسات وغيرها ) • لكن يجب أن  
 نضع في ذهننا أن عالم العقول يتشابه ويرتبط تماما مع عالم المادة أو  
 عالم الطبيعة ، فالشعر مثلا يكتب على ورق ، والورق مادة من مواد  
 الطبيعة • عالم الفكر اذن ليس عالما مأهولا بأشباح حرة ، ولكنه يرتبط  
 بالموضوعات الطبيعية • ان الدراسات الانسانية هي تلك الانساق التي  
 تعالج عمليات العقل الانساني ، وكل ما يمكن أن يكون نتاج ذلك العقل،  
 أو يتأثر بعملياته •

والواقع أن الاعتقاد بأن مناهج العلوم الطبيعية هي النموذج الاوحد  
 المطلوب للتعرف الثابتة الدقيقة انما يرتبط بالمذهب الوضعي Positivism  
 ذلك الذي يهدف الى تجسيد الدراسات الانسانية في جسم علمي موحد  
 تتمايز الانساق فيه تبعا لموضوعات وطرق كل نسق ، وتتألف تبعا  
 لاستخدامها لمنهج علمي مشترك • ان ما يقوله الوضعيون هنا أصبح  
 قضية مشهورة تنادي بالاضافة الى ما ذكرناه عنها بأن النجاح النظري  
 والعملي للعلوم الطبيعية يرجع الى اننا نشعر بأن الانساق الاقل يمكن

أن تحصل على نفس هذا النجاح اذا أصبحت على مستوى العلوم الطبيعية او كانت قريبة منها . ان التوحيد بين النظرية وبين المنهجية هو هدف مشروع للعلم ، وتحقيق ذلك الهدف هو ما يؤكد تقدم العلم ، ضف الى ذلك ان الاستخدام الانجليزي يعطي القيمة الكبرى للعلم وللصفة « علمي » لكنه يحتفظ بمثل تلك الكلمات للعلوم الطبيعية ومناهجها فقط بحيث أصبح قولنا « لا علمي » مرادفاً للمنهج والادقة .

ويرى أنصار المذهب الوضعي أن كل الانساق والعلوم يمكن أن تستفيد في محاولتها بلوغ الدقة حين تحاول تطبيق المناهج التي ثبت أهميتها وقيمتها في الميادين الأخرى ( العلوم الطبيعية بوجه خاص ) وبقبول مثل هذا الرأي حقق المذهب الوضعي دوراً مفيداً في تطوير الدراسات الانسانية .

ولقد أدى ذلك الى تخوف الباحثين من الخوض في المشاكل المعقدة والمركبة ، واتجاههم الى معالجة ما هو يسير ومبسط منها حتى يتمكنوا من حلها بمثل تلك المناهج العلمية المحترمة كالتجربة والتكسيم quantification والتحليل الاحصائي . ونتيجة ذلك تخفيض دائرة البحث واقتصراره على ما هو منحل تافه ، فتكون لدينا معرفة دقيقة لما هو غير جدير بمثل تلك المعرفة .

كما ينتج عن هذا الرأي أيضاً تصوراً معرفياً متمايزاً يتغافل عن استخدام الدراسات الانسانية لمناهج صارمة تتضمن تطبيقاً نسقياً لعمليات المعرفة ، وتختلف عن مناهج العلوم الطبيعية .

والنتيجة الثالثة التي تنجم عن التبعيتين السابقتين تتعلق بأن الباحثين قد يلقون بالدقة المنهجية عبر الرياح حينما يواجهون ما هو

«غير علمي» من المشاكل الضحلة أو الأبحاث المعقدة أو الأسئلة المثيرة •  
ها هنا تؤدي المداخل الحدسية الغامضة والمداخل التأملية الصرفة الى ما  
هو أكثر من « مائدة تتحدث » بدلا من أن تتأدى بنا الى نتائج علمية •

اني أرفض المذهب الوضعي ، ليس فقط بسبب ما ذكرته من نتائج  
سابقة تنجم عن موقفه، بل لأن هذا المذهب يحيد عن العدالة في موضوعنا  
مثار النظر • وأيا ما كان من قبولنا لفكرة وحدة العلوم ، لفكرة استفادة  
الدراسات الانسانية من العلوم الطبيعية ، فان موضوع كلا منهما يفرض  
تغييرا حاسما في منهجيهما • ولقد ظهر هذا الرأي المتعلق بتميز الدراسات  
الانسانية عن العلوم الطبيعية خلال الجدل والمناقشات التي ثارت في  
القرن التاسع عشر ، وهو الرأي الذي سندافع عنه في هذا الكتاب •  
ولعل أول من صاغ هذا الرأي صياغة دقيقة واضحة هو الفيلسوف  
الألماني فيلهلم ديلتاي W. Dilthey حين ربطه بنظرية في « الفهم »  
بوصفه العملية المعرفية المتميزة في حقل الدراسات الانسانية • ولقد  
أحدث آراء ديلتاي هذه أثارا عميقة على المفكرين في مختلف الاتجاهات،  
نذكر منهم على سبيل المثال عالم الاجتماع ماكس فيبر وعالم النفس  
والفيلسوف سبرانجر • • ومن خلال كتابات هؤلاء اخترقت هذه الآراء  
وتلك الأفكار العالم الانجلوساكسوني في وقت استنفذت فيه قيمة  
نظرياتهم تماما • والواقع ان أعمال ماكس فيبر كانت حاسمة في تكوين  
نظرية علم الاجتماع الحديثة ، كما أثارت مسائل ومشاكل لا تزال موضع  
النقاش والجدل حتى أيامنا هذه •

ولكي أتمكن من تحديد النقطة المحورية للمنهج المميز للدراسات  
الانسانية ، يجب أولا أن أصيغ نظرية الفهم ، وهذه سوف تتطلب بدورها  
تعريف وتفسير المصطلح نفسه ، وتعريف وتفسير مجموعة من المصطلحات

الآخرى المترابطة معه مثل مصطلح « المعنى » ومصطلح « التعبير » .  
 كما أنني سوف أثير بالطبع مسألة « المكانة الاستمولوجية للفهم »  
 وطريقة تطبيقها وارتباطاتها بعمليات أخرى لازمة في طلب المعرفة . وأخيرا  
 سأبحث في مشاكل تتعلق بالدراسات الانسانية المتعلقة بما هو جزئي . .  
 كيف يمكن تحديدها . . وكيف تتعاون في حل المشاكل الخاصة ، وذلك  
 في ضوء الصور المختلفة للفهم .

## ٢ - المدخل الفلسفي .

لما كان المدخل هنا فلسفيا ، فإني سأعالج فيه الوقائع التجريبية  
 والنظريات المرتبطة بها عرضيا فقط وعلى سبيل التوضيح ليس إلا . أما  
 الرجوع الى تاريخ الفكر أي الى آراء الفلاسفة فإني سأكتفي فيه بما  
 هو متعلق ببحثنا هذا فقط . .

ان معالجاتي الفلسفية للموضوعات ماثار النظر هنا سوف تتحدد  
 طبقا لمواقفي الفلسفية العامة ، ووفقا لتصوري لطبيعة وأهداف الفلسفة .  
 ودون الخوض في ذلك الى النهاية فإني سأبين المنهج الذي اعتبره  
 ملائما ، والذي أنوي اتباعه .

إني أعتقد بأن الواجب العام للفلسفة يتمثل في بناء أنماط تصورية  
 تفسر الخبرة وتوضحها ، وأن التحليل الدقيق يجب أن يسبق ذلك البناء .  
 وأن يكون مضمنا من ثم في كل تفلسف . نحن نحلل التصورات لكي  
 نكتشف معانيها ، ونبحثها لكي نفقه على صحتها ، ونفكر أبعادها . .  
 وفي النهاية تسكن من أن نصفها بكفاءة . . لكن هذا وحده لا يمثل الا  
 مراحل أولية ، اذ علينا بعد ذلك أن نقيم أنماطا جديدة عن طريق اعادة

تحديد هذه التصورات ، ونحت الجديد منها ، أو حتى خلق نسق مبتكر من التصورات المترابطة .

وبالطبع فإن كل البناءات التصورية ليست من صنع الفلسفة ، فثمة وقائع خاصة يجب أن توصف بواسطة المتخصصين فيها . هاهنا يتقدم هؤلاء بتصورات جديدة عنها ، لكن فحص ووضع التصورات الرئيسية التي تتضمن خلالها آراءنا عن العالم هو من واجب الفلسفة ، فتقديم اقتراحات مبتكرة ، وتعريفات جديدة ، وتصنيفات طازجة توجه الفكر الى قنوات جديدة ، هي إحدى الوظائف التقليدية للفلسفة . ويكفي أن نفكر هنا فقط في البناء التصوري الذي قدمته النظرية الذرية كفكر تأملي في العصور السحيقة للفلسفة والذي أثمر اطارا تصوريا ساعد على تقدم العلوم الطبيعية في العصور الحديثة .

ان الفلسفة يجب أن تستمر في دورها الرائد في مجال الأفكار ، ولا يجب ان تبهم الفيلسوف بأنه يقعد منتظرا أفكار واقتراحات الآخرين التي إن قدمت إليه فإنه يقوم عندئذ اما بنقدها واما بتوضيحها .

يتضمن هذا الكتاب بناء تصوريا (جديدا) ان الكلمات والتصورات ليست مقدسة . . . اننا يجب ألا نجادل الان في الطريقة التي استخدمنا بها كلمة من الكلمات في الماضي الا اذا أردنا أن نغير استخدامها، فهنا يتعين علينا لكي نفهمها أن نبين لماذا نغير استخدامها وهاهنا نزول قدسيته . كما أن المصطلحات لا تعطي الا المعنى الذي هو أدق من ، أو الذي يختلف عن الاستخدام العادي ، ذلك المعنى الذي يوضح التشابهات والترابطات والاختلافات . ان التصورات Conceptions والفهم Understanding والتعبير Expression المستخدمة هنا محدد معناها بدقة كاملة في

هذا الكتاب ، وهي جميعا مترابطة فيما بينها وبين بعضها البعض ، وفيما بينها وبين غيرها من المصطلحات بنفس الدقة . اني لا ادعي أن ذلك هو الاستخدام الاصح لها ، والذي يكشف بكفاءة عن المعنى الحقيقي ، كما أنني لا أقبل مثل هذه الادعاءات بالنسبة الى الاستخدام العام لها . ولقد استخدمت هنا مصطلح « تعبير » استخداما اوسع بحيث يشمل الاشارة الى الاستخدام العادي والاستخدام غير العادي له . كما أنني حددت المصطلح « فهم » تحديدا يتعد به عن المشاكل الزائفة الناجمة عن الاستخدام اليومي له ولكي أتجه مباشرة الى الموضوعات الاستيمولوجية الهامة . ان اختبار مثل ذلك البناء التصوري هو أمر عملي ومطلوب يتبين منه ما اذا كانت طريقتنا في تناول هذا الموضوع أو ذاك تلائمه وتوضحه ، وما اذا كانت تتغلب على منبغ الغموض فيه ، وما اذا كانت صالحة في اقتراح خطوط جديدة للمسألة محل البحث .

ويجب أن تكون الفلسفة نسقية Systematic كي تكون قادرة على التوضيح ، ذلك لأن أي مدخل جزئي يكون غير نسقية وغير قادر على تفسير المبادئ التي يركز عليها . والواقع أن المشاكل الجزئية لها جذور مركبة واتجاهات متفاوتة يتعذر علاج كل منها على حدة ، ولا يتم التوضيح الاكمل لها الا من خلال بناء تصوري يكون فلسفة كلية، ولعل هذا يقصر لنا السبب في اعتبارنا أعمال أفلاطون في « الجمهورية » ، واسبنوزا في « الاخلاق » وكاظم في نقده للعقلين النظري والعملية أعمالا فريدة وعظيمة ، ذلك لأن هذه الأعمال تميزت بفهم كامل واحاطة نسقية لدائرة واسعة من دوائر المشاكل الانسانية . حقا انه لمن المضجر أن نبدأ بوصف شامل لاحدى الفلسفات حين نهتم بمجموعة جزئية من المشاكل ، ولكن أيا ما كان من محدودية



موضوعنا ، وأيا ما كانت نقطة بدايتنا ، فيجب أن نتذكر بأن مثل هذه المشاكل لا يمكن أن تحل الا في ضوء سياق مستوعب فسقيا .

يتناقش بعض فلاسفة العصر الحديث حول وجوب أن يكون الفلاسفة متواضعين يقتصرون على معالجة المشاكل الجزئية بدلا من أن يكونوا بناء أنساق فلسفية . لكن التوحيد بين المدخل الجزئي غير النسقي وبين التواضع ، والتوحيد بين النسقية والديناميكية انما يمثل خلطا بين المقولات ، ان الانسان يمكن أن يكون دجماطيقيا وهو بازاء مسائل جزئية غير نسقية ، كما يمكن أن يكون غير ذلك وهو بازاء بناء نسقي ، وحتى لو كان الامر غير كذلك فان المدخل النسقي يفرض نفسه علينا وفق طبيعة المشاكل ذاتها والتي تكون محل التناول .

نحن نستطيع أن نقيم تفسيراتنا بواسطة البناء النسقي . والتفسير يعني في اللغة العادية الملامح الذاتية Subjective features ( وهي تلك التي لا تعرف موضوعيا ) التي تدخل في تفسير وتوضيح مجموعة معطاة من الوقائع . ومثل هذا النشاط يكون صحيحا ، وفي بعض الاحيان يكون ضروريا ، حينما لا تكون الوقائع مفسرة بذاتها ، أو حينما لا تكون مشيرة الى نتيجة محددة ، فاذا رأينا شخصا يرتدي زي رجال البريد ، وهو يوزع الخطابات ، وقلنا « هذا رجل البريد » فان قولنا هذا لا يعد تفسيرا ، ولكن اذا رأينا رجلا على بعد منا ، يرتدي زيا لا نستطيع ان نحدده ، ورأيناه يقرع الابواب ، ويبدو وكأنه رجل بريد ، وقلنا « هذا رجل بريد » فهذا هو ما نسميه بالتفسير . نعم قد تكون الادلة هنا غير كافية ، كما يمكن أن يكون تفسيرنا خاطئا ، اذ قد يكون هذا الرجل جنديا أو رجل شرطة او ما شابه ذلك ، ولكن هذا هو ما نقصده بالتفسير على أية حال ، اذ الوقائع لا تتحدث بذاتها ، ولكننا نحن الذين نجعلها تكشف عن أسرارها . نحن نحاول

الاحساس بالموقف ، وفي بعض الحالات يكون ذلك ضروريا اذا استدعى الموقف ذلك رغما عن نقص الادلة ، وغالبا ما يتأدى بنا الامر الى اكتشاف أدلة أكثر فتتحول التفسيرات الى معرفة ، لكن تبقى مسألة نقص الادلة وكأنه لا علاج لها . ان البناءات الفلسفية هي بالضرورة تفسيرات من هذا النوع . تكون الوقائع أمامنا ، ويمكن أن تكون هي كل الوقائع ، أو كل ما يمكن أن نأمل في معرفته ، لكن هذه الوقائع لا تتحدث بذاتها . نعم ان هناك طرقا عديدة تتمكن بها من تصنيفها وترتيبها وربطها وتفسيرها لكن لا واحد من هذه الطرق يفرض نفسه علينا فرضا من داخل الوقائع ذاتها . ها هنا تبدو الحاجة - تحت دافع ما نسميه ببحث أعمق - الى انتاج احدى التفسيرات ، ومثل تلك التفسيرات قد تكون شخصية أو ذاتية في أحد معانيها ، لكنها يجب أن تعكس الوقائع من زاوية أخرى ، وان تعالجها معالجة شمولية تتسم بسمة التوضيح .

تتكون محتويات هذا الكتاب من تفسيرات من هذا النوع ، ويعتبر كل تفسير منها بمثابة جزء من أجزاء نسق تفسيري واحد . أما أهداف هذا الكتاب فتتمثل في أغراض ثلاثة متميزة ومترابطة ، الغرض الاول هو أن أتقدم باسهام في الحقل الفلسفي ذاته : ان الفلسفة الحديثة - خصوصا في العالم الانجلوساكسوني - أصبحت ذات جانب واحد بسبب انشغالها بالنجاح الباهر للعلوم الطبيعية ، كما أن العمليات المتضمنة في معرفة العالم الطبيعي ومناهج العلوم المتعلقة بها تم تناولها على أنها الانموذج الفريد لكل معرفة ، ولهذا السبب تضخم موضوع الادراك بحيث ظهر كبيرا جدا في نظرية المعرفة . وفي ضوء هذا حاولت النظرية اللغوية تحديد المعنى في ضوء ما يمكن ان نخبره بالحواس ، وخضعت الرياضة وهي ذات صلة وثيقة بالعلم للتحليل الكمي ، وتأكدت مثل هذه

النظرة الخاصة من واقعة أن أكثر فلاسفة عصرنا نفوذاً كانوا رياضيين أو علماء طبيعة في حين كانت الاقلية منهم علماء اجتماع أو علماء تاريخ، ونجى عن ذلك كله اتجاه معظم المؤلفات الفلسفية نحو بحث عملية « الادراك » والحديث بغيره عن « مناهج العلوم الطبيعية » ، بينما اتجهت القلة النادرة من المؤلفات الفلسفية نحو الحديث عن « الفهم » Understanding وعن مناهج الفيلولوجيا وعلم الاجتماع .

وكنتيجة لهذا الانشغال الزائد بعملية الادراك ، غفل المفكرون عن العمليات المعرفية الاخرى ، أو اعتقدوا أنها صور ناقصة من صور المعرفة الطبيعية . اني اعتقد أن مناقشة مشاكل الدراسات الانسانية سوف تصحح هذا المسار ، وسوف تمنح الانحياز الى جانب العلوم الطبيعية ، فحينما نستطيع أن نبين في مجال الدراسات الانسانية ان أنساقاً مثل التاريخ وعلم الاجتماع انما تتحقق معرفتها بواسطة عمليات عقلية تختلف بطريقة ما عن تلك العمليات المستخدمة في العلوم الطبيعية فان ذلك انما يلقي أضواء جديدة على افتراضاتنا الابستمولوجية ويقودنا الى إعادة تقدير آرائنا الفلسفية . وهذا يمثل أحد أغراض هذا الكتاب .

ولا يمكن أن يتحقق هدفنا هذا الا بمحاولة كسب بصيرة نافذة في مجال الدراسات الانسانية ، تمكن العاملين في هذا المجال وتساعدهم في عملية توجيه النظرية وارشادها للتطبيق . وبيان مثل هذا الامر يمثل غرضي الثاني من أغراض هذا الكتاب ، فمما لا شك فيه أن العلوم المختلفة تقيم نظرياتها الخاصة بها ، ولكن هذه النظريات على ما بينها من تفاوت في درجات العمومية ، ليست ذات طبيعة فلسفية . ومع ذلك فان التحليل الفلسفي ، وبناء الاطار الفلسفي يمكن أن يمد هذه النظريات بتعريفات واضحة عن الدراسات الانسانية ، وعن أهدافها ، وأن يجيب على سؤال مثل : « ما نوع التفسير الذي نبث عنه ؟ » ، كما يمكن

للتحليل الفلسفي أيضا أن يعزز الفهم الواضح ، وإن يدعم الاستخدام المتناسق للمصطلحات الرئيسية ، وأن يجعل الخطة التصورية جلية ، كما يمكن له أن يمنح الأساس النظري بمدخل متشابكة مستقاة من أنساق عديدة لكي يعاونه على حل مشكلة جزئية مفردة .. فمثل هذا الاسهام الاخير لا يقدر عليه أي واحد مفرد من المتخصصين في فرع ما . وأخيرا فان البصيرة الابدستمولوجية يمكن بل ويجب أن تؤثر في الخطة المنهجية .

ان اسهام الفيلسوف ليس نوعا من الوحي .. ان على الفيلسوف أن يتعلم أولا مما يفعله الباحث ، وعليه أن يدرك مشكلته ، وبعد ذلك يكون قادرا بمهاراته الخاصة على تقديم اسهام في مجال الواجبات المعقدة التي تواجه طالب الشؤون الانسانية ، كما يكون قادرا على بيان أن لفلسفته فائدة عملية . وهذا يعني ضرورة ان تكون معالجة الفيلسوف منصبة على المشاكل الواقعية المستقاة من الحياة اليومية ، والتي لا تكون مفروضة من قبل الفلاسفة . ان مشاكل الدراسات الانسانية هي من هذا النوع ، فهناك لا يقينيات نظرية وأوجه خلط منهجية تعوق تقدمها . وهذه تعوق بالتالي حل المشاكل الانسانية ، وحين نطبق احدى الفلسفات على مشاكل مثل هذه فأننا نعرضها لامتحان حاسم يبين قيمتها، وهذا على ما هو عليه هو ما يجب ان يكون .

## الفصل الثاني

### نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى

- ١ - افتراضات المعرفة .
- ٢ - وجهة النظر الانسانية .
- ٣ - المعنى والمقولات التي ندركه بها .



## الفصل الثاني

### نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى

#### ١ - افتراضات المعرفة .

تتناول الدراسات الانسانية - وحدها - بعكس العلوم الطبيعية دراسة الاجسام والحركات في المكان، والبناءات المختلفة بقدر ما تجسده من أفكار ، ومشاعر وأهداف ، وتهتم هذه الدراسات بالافكار والمطامخ والسلوك الهادف والابداع الفني ، والادوات التي يصنعها الانسان ، والقواعد التي يفرضها البشر على أنفسهم ، والانظمة التي يستحدثونها ، فتملك كلها ظواهر تجعل للحياة معنى ، ولهذا كانت الدراسات الانسانية تعالج أساسا وقائع ذات معنى .

وطالما ان هذا التعريف يطرح حكما مسبقا على كافة المسائل التي يناقشها هذا الكتاب ، فمن الضروري اذن تفسيره والدفاع عنه . اننا نفترض ان هذا التعريف يعبر عن الحقيقة القائلة بأن الناس يدركون العالم على أنه عالم ينطوي على معاني ، ومن ثم كان سلوكهم ذا معنى كذلك ، وان هذه الحقيقة لتشكل جانبا من خبرتنا تماما كخبرتنا بصلاية المعادن وألوان الزهور . ومع ذلك فعابا ما يتعذر التمييز بين الواقع

والنظرية ، فهل نعتبر دوران الارض حول الشمس مسألة واقع أم نظرية؟ وهل الحياة الجنسية للطفل واقع أم نظرية ؟ والحق ان النظرة الكلية للعالم تتضمن العديد من الافتراضات حول ما نعرفه وكيفية معرفتنا له ، فقلنا ان افتراضات مسبقة تفرض علينا عند النظر الى أي موضوع حتى ولو بدا بسيطا .

وقد لا تبدو هذه المسائل واضحة خلال حياتنا العملية ، او حتى عندما نقوم بإجراء بحث علمي لاننا لا نثير تلك التساؤلات . فنحن نبحث العلاقات بين ما نقبله كوقائع دون أن نهتم بالعلاقات الاشد تعقيدا والتي تقوم بين الوقائع والجهاز المعرفي للباحث . فالباحث في المجال الجنائي - مثلا - يبحث اساسا عن مرتكب الجريمة ، وهو يسلم بذلك التصور للعالم الذي طوره البحث العلمي والتفكير الفلسفي وقبله الرأي العام ، ثم هو يفترض أنه يتحرك في عالم البشر والاشياء حيث يقع دون سبب ، فالناس يدفعهم الجشع ، والرصاص ينطلق وفقا لقواعد الرماية ، تلك وقائع يسلم بها الباحث دون أن يتشكك في مبادئ علم النفس أو الفيزياء ، وهذا أمر ضروري وواضح اذا أراد الباحث أن يصل الى حلول لمشكلاته الخاصة . وبالمثل فان عالم النبات يصنف النباتات دون ان يتشكك في مبلغ ثبات حواسه ، او درجة انتظام الطبيعة أو قوانين الابصار التي تحكم استخدامه للمهجر .

ويرجع ذلك كله الى التخصص الذي اصبح أمرا لا مفر منه ، اذ يعتمد باحث متخصص في ميدان معين على أعمال باحث آخر من خلال مبدأ تقسيم العمل ، فرجل الشرطة يقبل نتائج خبير الرماية ، تماما كما يقبل عالم النبات نتائج البحوث البصرية . ونحن لا نسلم فحسب بذلك البناء الهائل من المعرفة الذي اسهم فيه عدد من المتخصصين ، وانما نسلم



أيضا بتلك الافتراضات الرئيسية التي تتعلق بنظام الطبيعة وبقدرتنا على اكتشافه ، تلك كلها عوامل تحكم ما نطلق عليه مصطلح الواقعة .

والفلسفة تختلف عن العلم والذوق العام ، ويبدو هذا الاختلاف واضحا في ذلك الفرع الذي نطلق عليه مصطلح نظرية المعرفة أو الاستمولوجيا والذي يختص بفحص تلك الافتراضات ، ويسعى هذا الفرع الى وضع الاسس الفكرية للمعرفة والنظر في كيفية استيعاب العقل للواقع، وتفسر القاعدة التي يركز عليها قبولنا لاشياء كحقائق، وتفرقتنا بين الواقع والنظرية والفرض .

ولهذا التفسير دوره الهام في الدراسات الانسانية حيث لا تزال طبيعة الوقائع والمناهج الملائمة لدراستها موضع جدل . هنا تكون لنظرية المعرفة صلتها القوية بعلم المناهج .

واذا كانت الفلسفة تدعي لنفسها القدرة على نقد الافتراضات التي يقدمها العلم والذوق العام فهي أيضا يجب أن تكون على استعداد لمناقشة افتراضاتها الخاصة ، ذلك لأن كافة الافتراضات المسبقة حول معرفتنا وتفكيرنا هي الاخرى موضع تساؤل . وللهروب من مأزق الافتراضات المسبقة هذا وضعت الفلسفة نقطة انطلاق مطلقة لليقين ، والمثال على ذلك هو ما يعرف بالمعرفة الكاملة . ولقد حاول العديد من الفلاسفة اكتشاف هذا اليقين في مجالات متباينة ، فالعقليون يدعون اكتشافه في نطاق النتائج البرهانية للاستدلال الرياضي وضروب التفكير الاستنباطي الاخرى ، والتجريبيون في يقينهم المباشر بالحواس . فلقد بدأ ديكارت من وعيه بذاته كذات مفكرة . وهكذا تقاس المعارف الاخرى بهذا المعيار ، وغالبا ما تعالج كمجرد رأي أو اعتقاد أو تخمين ، وحينما تبني نقطة بداية بسيطة لا نستطيع ان نتراجع ابدا الى خبرتنا الواقعية

الخصبة المثمرة . ان صاحب المذهب العقلي يكافح من اجل وضع الحقائق الجزئية بالقوة داخل اطاره الفكري . ويفترض التجريبي ان المعرفة يرمتها مصدرها الخبرة الحسية ، ومن ثم يصعب عليه استيعاب المعرفة الرياضية والقوانين السببية لمعرفة الناس والاشياء . وحينما جعل ديكارت من الوعي البشري نقطة بداية له واجهته صعوبة بالغة في تحديد معرفتنا بالجسم البشري والعالم المحيط بنا .

والبديل لذلك كله هو رفض فكرة نقطة البداية المطلقة ، والاعتراف بأن أية محاولة للتفلسف تركز على افتراضات مسبقة . وحينما يبدأ الفيلسوف في اعمال عقله لا نستطيع ان نعتبر العقل صفحة بيضاء في انتظار ما ينقش عليها من نقوش ، كما أن العقل أيضا ليس موضوعا معرفيا خالصا يفتح عيون فكره لأول مرة على عالم غريب عليه تماما . فتلك تجريدات مصطنعة ، اذ ليست هناك بداية نظرية بسيطة لا جدال فيها ، فنحن لا نبدأ بعقل مفرغ يبحث في الحقيقة العاية .

وقبولنا لفكرة الافتراضات المسبقة تجعلنا تقع في صعوبات تتصل بها ، ذلك لان الموضوع الذي سنبدأ منه سيصبح هو ذاته موضوعا للتحليل النقدي ، ومن ثم يبدو الفيلسوف غارقا في دائرة التفاهة والتناقض . فاذا ما أعاد اثبات ما افترضه في خاتمة ربحه بدا تفاهها ، واذا ما تجاهل افتراضه اصبح متناقضا . فالنتيجة التي مؤداها : انا موجود نتيجة ساذجة ، كما أن القاء الشك على قدرة العقل في الوصول الى نتائج صادقة ينطوي على تناقض اذا كانت النتيجة مترتبة على العكس .

ومع ذلك ، فان الفهم الصحيح لماهية الفلسفة يتطلب السعي من أجل هذا الانطباع ، فمهمة الفيلسوف هي الايضاح ، وليس تأكيد وقائع معينة او تجاهلها ، اذ هو لا يدعي انه يهدف الى اكتشاف الحقيقة

الواضحة التي تعني انه موجود ، وهو في الوقت ذاته لا يتجاهل الحقيقة الواضحة الأخرى والتي تعني وجود العالم الخارجي . انه يهدف الى الكشف عما يعنيه الوجود او الوعي بالعالم الخارجي . وهكذا ، تظل صعوبة اعمال الفكر حول نقطة البداية والافتراضات الملزمة قائمة . ويتعين ان يكون الفيلسوف واعيا وحساسا بالنتائج التي سيصل اليها ، ومستعدا لمراجعة افتراضاته في ضوء البحوث التي يقوم بها ، هنا فقط يستطيع ان يقف على الطريقة التي يقبض بها العقل الانساني على الواقع .

وليس ثمة تناقض في القول بأن الفلسفة التي تعني بنقد كافة معارفنا تعتبر وجود ذلك البناء الشامل للمعرفة القائمة نقطة انطلاق لها . فحينما نبدأ التفلسف ففترض أن لدينا معرفة بالرياضيات وبالعالم الطبيعي وبالتاريخ وعلم النفس أيضا . اما محتوى هذه المعرفة ومدى ثبات مختلف النظريات فليست مسألة ذات أهمية بالنسبة للفلسفة . ان المعرفة قد اقيم صرحها ، واستطاع الانسان ان يتحقق منها ويصححها خلال مساره في التوافق مع العالم . فالسؤال عما اذا كانت نظريات نيوتن Newton صحيحة أم خاطئة مسألة تتعلق بعلم الفيزياء ، كما ان علم النفس هو المختص بالاجابة على التساؤل الذي مؤداه هل يشكل الجنس دافعا محركا لسلوك الاطفال ؟ ووفقا لما ذهب اليه كانت Kant نستطيع القول بأن مهمة الفيلسوف ليست هي تقرير ما اذا كانت لدينا معرفة ام لا ، أو ماذا نعرف ، ولكن عليه اكتشاف كيفية المعرفة وما تنطوي عليه المعرفة من افتراضات اولية .

## ٢ - وجهة النظر الانسانية .

الواقع أنه يبدو ان هناك نوعا من التزييف في أية محاولة لتجاهل

ما يوجد لدينا من معرفة ، فحينما يبدأ الفيلسوف في التفكير لا يستطيع اغفال حقيقة كونه مخلوقا طبيعيا له حواسه التي يستخدمها في اكتساب كل ما يعرفه عن الطبيعة البشرية . وهكذا يكون قبولنا للعلوم الطبيعية وللدراسات الانسانية متضمنا في نقطة انطلاقنا .

ان التحليل الاساسي لما تنطوي عليه عملية وجود الانسان بجعل هذه الافتراضات واضحة تماما . فنحن مخلوقات طبيعية لدينا اجسام تؤدي وظائفها بطريقة محددة بيولوجيا . وخلال اجسامنا تتأثر بالبيئة الطبيعية ، فحواسنا تنقل لنا موضوعات العالم الخارجي . وطالما ان لدينا حاجات فسيولوجية ورغبات محددة فان هذه الموضوعات هي الاخرى تعبر عن الرغبة وتحقق الاشباع ، ولكنها قد تعوق ذلك أيضا ، انها تجلب اللذة أو الألم، الاشباع أو الاحباط ، ونحن بدورنا نستطيع التأثير في البيئة وتعديلها وتغييرها . فاذا كانت الزهور تجلب لنا اللذة بوسعنا تسميتها ، واذا كانت الحواجز تعوق رؤيتنا بمقدورنا ازالتها .

ونستطيع ان نعدد الكثير من المظاهر الاخرى لحقيقة كوننا مخلوقات طبيعية ، فنحن سنموت لا محالة ، ومعرضين في اي لحظة للمرض ، ونحن نرث الكثير من السمات والخصائص ، لكن اكثر مظاهر الحياة الانسانية وضوحا هو أن الوعي ملازم للحياة . اننا لا نفكر فحسب على اساس الحساب والقدرة على حل المشكلات ، فلدينا مشاعر وأمزجة ورغبات ومقاصد تلون تفكيرنا وهي جزء متكامل من ادراكنا لذواتنا . ونحن ننسق فيما بين رغباتنا ونضع الخطط ، ونخضع سلوكنا لقواعد ومبادئ ، فذلك هو ما نعنيه بعقلانية الانسان التي تعتمد على قوتنا الفريدة في تكوين صور مثلة ، والتفكير في شيء لا يوجد امامنا بالفعل ، وتلك القدرة هي التي تجعل اللغة ممكنة . ومع ذلك ، فالانسان

مختلف عن سائر الحيوانات الأخرى من حيث أنه يستطيع أن يتعلم دروساً من الماضي ، كما يستطيع أن يفكر فيما هو بعيد مكانياً ، وهو يتوقع المستقبل ، وينظم الحياة الاجتماعية والثقافية ، ويعتمد استمرار التقاليد والوعي بالذات على كل هذه القدرات .

الإنسان اذن على وعي بالعالم الثقافي والاجتماعي وبالعالم الطبيعي ايضاً ، انه يسعى الى المعرفة مثلما يسعى الى الطعام ، والاحباط لا ينتج عنده فقط من الموضوعات الطبيعية ، بل قد يرجع الى ضغوط اجتماعية ايضاً . وتنحكم في الإنسان الوراثة والتقاليد معا . يضاف الى ذلك انه نتيجة لان الإنسان على وعي بالماضي والمستقبل ونظراً لان حياته مستغرقة في حياة الآخرين فانه يطرح تساؤلات حول وجوده ومن ثم يصبح فيلسوفاً . واستمرار هذا الوعي ذاته يجعل الاختيار امراً ضرورياً ، ولكي يتمكن الإنسان من القيام بهذه الاختيارات عليه ان يتطور نفساً اخلاقياً . والواقع ان صبح الحاضر بوعي الماضي وتوقع المستقبل يجعل الإنسان مدركاً لكيفية وقوع الحوادث في الزمان ، اي يجعل منه مؤرخاً .

وكل الوقائع التي اشرت اليها هي وقائع مألوفة لا تفسح مجالاً للجدل - ولقد حصرت هذه الوقائع لأنها متضمنة في عملية المعرفة ، بل وقد تعمل على تعديلها . وما نطلق عليه مصطلح الخبرة يحدده تكويننا الفسيولوجي ( حواسنا ، واعصابنا ، وعقولنا . . الخ ) ، وتكسبه حاجتنا ورغباتنا لونا خاصاً . ونحن نستوعب الخبرة على أساس ما تلعبه الوراثة في الذكاء والذاكرة والانتباه والميراث الثقافي والاجتماعي ، ولغتنا وافكارنا وبناء المعرفة القائم ، وطائفة هائلة من المواقف تعد جميعاً نتائج العملية التاريخية .

ان الوقائع السابقة تحدد وجهة النظر التي نتعرف من خلالها على العالم • وتتضمن نقطة الانطلاق هذه عناصر ذات صبغة واقعية محددة ، فلا توجد لدينا سوى اعضاء الحس فقط ، ونحن نمثل انسان القرن العشرين بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معاني • ومع ذلك ، فلما كانت هذه الاحكام ذات طبيعة مزدوجة لكونها افتراضات مسبقة للمعرفة من جهة ، وجزء من المعرفة ذاتها من جهة اخرى ، فنحن مضطرين لاعادة فحص طبيعة المعرفة • ان ذلك لا يعني اننا نشكك فيما نعرفه ، ولكن المسألة هي مسألة معنى المعرفة • اننا تقع فريسة دائرة تسلب المعرفة تحديداتها المطلق وتجعلنا نربط اكثر بالواقعية الساذجة لان المعرفة كلها تبدو نسبية أو مرتبطة بنقطة البداية التي نرتضيها • ان المعرفة البيولوجية أو السيكلوجية قد حددتها عوامل ختمتها عوامل بيولوجية أو نفسية، كما أن المنظور التاريخي يحدد حكمنا على التاريخ •

والعالم الذي تسعى الى التعرف عليه لا يطرح نفسه أمامنا بطريقة موضوعية ، ولكنه في ذاته موضوعا للدراسة من خلال تصورنا للظروف الانسانية • وحينما نتحدث عن الموضوعية يكون حديثنا في اطار سياق محدد بعد ان نسلم ببعض الشروط المعرفية • يحدث ذلك حينما يفحص عالم النبات الزهور • ولكن حينما نبث مشكلة المعرفة برمتها - كما هو الشأن في نقطة بدايتها الفلسفية - لا نستطيع ان نهرب من منظورات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ التي يحدث داخلها أي فعل معرفي • ولما كنا نتعامل مع المعرفة برمتها كان من العسير علينا أن نخطو خارج نطاقها ، اذ حينما نشعر في تفسير العالم يبدو كما لو انه قد فسر بالفعل فور البدء في مهمتنا ، وغايتنا هي تحقيق مزيد من الاتساق ومزيد من الوعي الذاتي •

في ضوء ذلك كله لا يعد بناء المعرفة برمته صورة فوتوغرافية للواقع، ولكنه خلق انساني تتجلى فيه القرارات ومختلف انواع التقويم. اننا ننظر الى العالم، ونقوم بتنظيمه من وجهة نظر خاصة بواسطة ادواتنا المعرفية، وهذا هو ما دفعني الى القول بأن العالم قد فسر بالفعل، فحينما نستخدم مثلاً كلمة « الشجرة » او « التفاحة » أو « القلم » نكون قد فسرنا موضوعات عديدة تنتمي الى مجموعة واحدة. والعلم هو سلسلة من التفسيرات التي نصل اليها باستخدام مناهج بالغة الدقة والتحديد بهدف التوصل الى أغراض معينة بالذات. أما الاساطير والاديان والفلسفات فهي تفسر جوانب رئيسية من العالم بطرائقها الخاصة، وهذه التفسيرات تجعل العالم ينطوي على معنى عند الانسان. ويقدم لنا بناء المعرفة والاعتقاد منظورات لبحث مشكلات محددة، ويتضمن معايير للكشف عن حقيقة تأكيدات بالذات. وهكذا نستطيع ان نتساءل عن اي عبارة واقعية هل هي حقيقة كذلك؟ ولكن طالما اننا لا نستطيع ان نخطو خارج المنظور الذي طورته تفسيراتنا للعالم، فان يكون هناك معيار يمكننا من الاجابة على نفس التساؤل فيما يتعلق بتصورنا للواقع. وغاية ما نستطيع ان نفعله هو أن نجعله أكثر اتساقاً وشمولاً. وهكذا، ينبغي ان نعترف بالحقيقة القائلة بأن الحياة الانسانية، وهي التي تمثل موضوع الدراسات الانسانية، مفعمة بالمعاني المشتقة من تفسير الانسان لعالمه. ولكننا نستطيع اخضاعها للتحليل حين نفحص كيف يشير هذا المعنى الفيلسوف، فذلك يضع للدراسات الانسانية اساسها الاستمولوجي.

### ٣ - المعنى والمقولات التي ندركه بها.

عندما نشرع في التحليل يتعين ألا نجعل من معاني الكلمات

الانموذج الأمثل لكافة المعاني التي نقصدها - مثلما حدث عند اصحاب النزعة التحليلية في اللغة - وذلك بالرغم من أن فهم المعاني اللغوية يعد من أهم خصائص الحياة الانسانية ، فوعينا بذواتنا ، وبالعالم المحيط بنا غالبا ما يتحقق من خلال تصورات نصوغها لغويا + فمع ان هناك تشابها بين الانسان حين يشم زهرة ، وبين الكلب حين يشم عظمة ، الا ان الفروق جوهرية بينهما ، فأنا اصنف خبرتي واصوغها في مصطلح محدد بدقة ويصبح جزءا من ذاكرتي الشخصية ومعرفتي العامة + وتكمن فائدة المدخل اللغوي للمعاني في هذه الحقيقة + غير ان التساؤل الذي مؤداه، ما الذي يجعل من هذا الموقف موقفا ينطوي على معنى ؟ يبدو اكثر أهمية من التساؤل الذي يقول ما الذي يجعل هذه العبارة ذات معنى ؟ اذ كيف ينطق الطفل باللغة أو كيف يتعلمها لأول مرة اذا تعذر ان يكون لديه فهم لغوي مسبق لمعاني المواقف كالموقف الذي يرمز الى شيء ما، كما انه اذا استحاتت الاشارة بالاصبع أو الاشارة الى اعلى بشيء معين ثم تكرار الكلمة الدالة على ذلك ، فان هذه الكلمة لن يكون لها ادنى تأثير على الطفل الصغير ، ان عليه ان يفهم أولا ما هي اللغة ، وماذا يقصد بالاشارة أو الرمز أو الكلمة التي نطلقها على شيء ما +

على أننا كثيرا ما نشير الى معاني غير لغوية خلال أحاديثنا اليومية كقولنا : ان ذلك يعني شيئا بالنسبة لي ، ان افعاله تبدو خالية تماما من المعنى ، انني اعرف ماذا تعنيه تلك الابتسامة على وجهه ، وماذا تعنيه تلك الحادثة التاريخية + ان هذه الاستخدامات تبدو واضحة اذا نظرنا اليها كمجرد استمرار لما ينطوي عليه مصطلح المعنى بالمفهوم اللغوي + وتهتم الدراسات الانسانية بصفة خاصة بالمعاني في مفهومها العام + وتحلل معاني الافعال والمواقف مكافة بارزة في هذه الدراسات + واذا ما أرادت الفلسفة ان تثبت فعاليتها للدراسات



الانسانية فان عليها ان تحلل مضمون كلمة المعنى •

وكتوضيح لما سبق دعنا نأخذ موقفا بسيطا ، ثم نستخلص المعاني التي ينطوي عليها • اندفع سميث الى داخل حجرتي ثم ضرب بقبضة يده على المنضدة • ان هذا الموقف يتضمن معني عندي لانني رأيت شخصا ما اعتبره صديق قديم لي فأدركت ان الحركة التي قام بها بمثابة دليل على غضبه • وسيبدو الموقف مختلفا تماما اذا استبعدنا أي حركة من حركاته ، واذا أومأ لي شخص غريب عني تماما أثناء تجواله فسأجد الموقف غير مفهوم • وأخيرا ، اذا حاول صديقي بدلا من قيامه بتلك الحركة المقصودة ، أن يضرب على المنضدة فجأة فستقل المعاني التي تتضمنها الموقف •

وتؤثر اتجاهات الموقف المختلفة على درجة فهمنا له ، فصديقي سميث لم يضرب فقط بقبضة يده ، ولكنه أخذ يضغط على شفتيه ، وهذه ولا شك تعبيرات منسقة يكمل بعضها بعضا • أما اذا تناقضت اتجاهات الموقف بحيث تعبر عن عواطف متعارضة ، كان تصاحب ابتسامة الصديق حركة تدل على غضبه، فسوف يكون فهمي له غامضا • وينطبق نفس الشيء على تطلق أوسع ، فاذا علمت أن صديقي سميث قد لحقت به اهانة أو حدث له احباط حينئذ سيصبح فهمي أكثر وضوحا ، أما اذا كان قد حصل على ترقية أو تزوج من فتاته ، فان الموقف لن يكون مفهوما بنفس الدرجة •

أما أن غضب سميث يعني شيئا بالنسبة لي ، فذلك مرجعه انني أتألم حين أراه في حالة سيئة ، فذلك يذكرني بما اعانيه شخصا من احباط ، اذ قد يكون موقفه هذا له صلة بالظروف التي اعيشها ، بل ربما اكون في حاجة الى معونة سميث ، لكنني اضطر الى الامتناع عن

طلب معوته لأن حالته المزاجية لا تسمح بذلك \*

وهكذا يجد الناس أن المواقف تنطوي على معنى لأنهم يتأثرون بها ويستجيبون لها، ويربطونها بمواقف أخرى، ويحكمون عليها ويفسرونها على أساس ذاكرتهم \* وقد يبدو هذا المعنى معقد بدرجة تقل أو تكبر ، ولكنه دائما ما يكون هو المعنى الأول الذي يدركه الشخص حينما يواجه الموقف \* وهكذا يتسم المعنى بأنه ذاتي وربما اعتقادي ، كما أن المعنى الذي يدركه شخص ما لموقف معين ، يمكن أن يدركه أو يفهمه شخص آخر \*

يبدو من التحليل الدقيق اذن ، أن المعنى مرتبط باستخدام مفاهيم معينة ، هي أحكام تصدرها على أساس نماذج من العلاقات . بحيث تشكل المعنى وتمنحنا أدوات فهمه ، ويمكن أن نطلق على هذه المفاهيم مصطلح المقولات بالمعنى الكامل \* ومن المفيد في هذا الصدد ان نعرض لهذه المقولات ونناقشها ، فكل منها يتناول جوانب معينة من الموقف وما يوجد بينها من تساند متبادل ، ثم هي مجتمعة تمكننا من فهم المواقف المعقدة \*

وثمة علاقة وثيقة بين مظاهر الطبيعة والمحتوى العقلي الذي يجعلها تبدو كتعبيرات جليلة ، فجانب كبير من العالم المحيط بنا يتضح معناه حين ندرك أن ما نراه أو نسمعه لا يزيد عن كونه مظهرا لأفعال عقلية \* . وحينما ننظر الى الحركات مثل الايماء ، والى الأصوات كالكلمات ، والى الموضوعات مثل الأدوات ، فإثنا نفعل ذلك لأننا نفترض ان ما ندركه هو نتاج الفكر الانساني والشعور أو الاحساس \*

وتلك العلاقة النموذجية التي تشكل إحدى مقولات المعنى هي

علاقة قائمة بذاتها Sui generis ولا يمكن ردها الى أي علاقة أخرى . وكمثال عام ، فقد يفكر المرء في العلاقة بين الغضب والعبوس ، أو بين الفكر والكلمات المكتوبة ، أو بين ما هو داخلي وما هو خارجي ، وهذا بالطبع راجع الى التصور العام للعقل بوصفه بناء داخليا مكينا . وبوسعنا أن نقول أن الغضب داخلي ، وأن العبوس خارجي ، ولكننا يمكن أن نقول بطريقة أخرى أن الغضب يتجسد في العبوس ، وأن الفكر تجسده الكلمات . غير أن هذه المماثلات مضللة ، فما هو داخلي لا يعني بالضرورة علاقة مكانية هنا ، فليس معنى أن أفكارنا تكمن داخلنا ، أن العقل يحتويها احتواء مكانيا ، ولا هي متضمنة في الكلمات احتواء البيضة فرخ الدجاج . هكذا يتعين أن نقول في هذا الصدد ان العلاقة هنا هي علاقة التعبير عن محتوى عقلي في صورة طبيعية . وكنتيجة لهذه العلاقة نواجه بمركب معقد فريد نطلق عليه مصطلح : التعبير ذو المعنى . ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نمضي في تحليل هذا المركب الى عناصره المكونة ، ذلك لأنها ستبدو شديدة الارتباط فيما بينها . فنحن نستشعر الجوع دون أن نظهره ، أو نبدو في حالة غضب دون أن يكون لدينا شعور حقيقي بذلك . ولا يفقد ذلك التعبير عن الغضب دلالاته الحقيقية ، ولكنه يعني انني استطيع ان اتعمد خداع الآخرين بالتعبيرات الخارجية تماما مثلما اخدعهم بالكلمات .

ونحن نلمس العلاقات التي ترمز اليها هذه المقولة وغيرها من المقولات مباشرة ، وهذا يجعلنا نميل الى تفسير الاحداث في ضوء هذه المقولة ، فحينما يحكم المرء قبضة يده ربما دل ذلك على ما يشعر به من غضب . على اننا اذا كنا نلمس العلاقة بين المقولات في ضوء حالاتنا الخاصة فليس معنى ذلك ان كل تفسير لسلوك الآخرين في ضوء الخبرة

الخاصة سيكون تفسيراً صحيحاً + فقد نخدع أنفسنا فيما يتعلق بشاعر  
نعانيها فعلاً ؛ على حين تكشف تعبيراتنا الحقيقة واضحة + اذ نستطيع أن  
نقول لشخص ما انه يجب ، قبل أن يكون لديه وعي بذلك + تلك مسألة  
يحددها البحث المبيرقي ، وليست مسألة قرار نظري +

وتختص المقولة الثانية بالعلاقة بين الأجزاء والكل + فمعنى الكلمة  
يتحدد على أساس العبارة أو السياق الذي تظهر فيه ، والبناء الكلي  
للغة التي تنتمي إليها + واعني بذلك شيئاً محدداً بالذات هو البناء اللغوي  
الذي يحدد الاسم أو الفعل ، وترجمة المعاني كما تحددها القواميس +  
فمعنى الايماءة أو الحركة يتضح أكثر فأكثر حينما نربطهما بإيماءات أو  
حركات أخرى ، وبالمواقف التي تظهر فيها + واذا عرضنا على بعض  
الناس جانباً واحداً من وجه شخص ما في صورة فوتوغرافية ، ثم طلبنا  
اليهم تحديد مبلغ غضب هذا الشخص أو حزنه ، فإن الإجابة ولا شك لن  
تكون محددة وثابتة + أما اذا عرضنا عليهم الصورة كاملة فإن الحكم  
سوف يختلف حتماً ، وسيطراً عليه بعض التحسن ، واذا ما عرضنا فيلماً  
سينمائياً يصور الحركات والتغيرات فستكون الاحكام اكثر صدقاً لا  
محالة + واذا جعلنا هذا الشخص في سياق الموقف الذي يعيشه ، كأن  
نصوره مشتركاً في تشييع جنازة مثلاً ، فلن يكون هناك ادنى شك في  
قدرتنا على تفسير مشاعره + وهكذا نستطيع ان نستمع في توضيحنا  
ونقول ان كل ادراك هو جزء من مجال ادراكي ، وان كل حادثة تقع في  
سياق زمني + ومعظم الوحدات التي تتعامل معها كالأجسام البشرية  
والآلات والمجتمعات والنظم والدول هي كلمات مركبة تتألف من أجزاء  
مكونة + واستطيع ان اطبق هذه المقولة على حالة صديقي سميت بطرق  
مختلفة ، فحركة يده مرتبطة بتعبير وجهه ، والحركة الحالية مرتبطة بخبرة

سابقة ، وأثر حالته المزاجية على حالتي الشخصية مرتبط بتاريخ الصداقة  
بيننا .

على أن التفسير لا يتجه فحسب من الكل الى الجزء ، ولكنه يتخذ  
أيضا اتجاها عكسيا . فالكل يتحدد معناه من خلال معنى الاجزاء التي  
يتضمنها . فبدون ادراك المعنى الذي ينطوي عليه كل جزء من الاجزاء لا  
نستطيع ان نفهم المعنى الكلي واذا لم نفهم الكلمات تعذر علينا فهم  
الجملة . وهكذا يتميز بحثنا في المعاني بأنه بحث متشابك ، فنحن نتقل  
من ادراك معنى الاجزاء الى فهم الكل ، ثم الى مزيد من فهم الاجزاء ..  
وهكذا .

ولا يتعذر بالطبع الكشف عن الجذور الأولى لهذه المقولة في ثنايا  
الخبرة الشخصية . فنحن نعي ذاتنا المركبة ، في الوقت الذي نعلم فيه  
اننا مخلوقات ذوات بناء واحد ، ونحن ندرك العالم بوصفه يمثل وحدة  
متباينة ، وما يحدث لنا من حوادث يصبح جزءا من قصة حياتنا المستمرة،  
وهي لها معناها كمراحل محددة لحياتنا ، او فترات من مراحل اعمالنا .

أما المقولة الثالثة فهو مقولة التأثير في البيئة والتأثر بها . وهي  
التي اطلق عليها مصطلح مقولة القوة Power فيحادثه معينة تعني  
لدينا شيئا ما لانها مفروضة علينا ، مثل الرائحة النفاذة التي لا نستطيع  
منها فككا ، فهي تؤثر فينا وتساعدنا أحيانا . وكذلك التغيرات التي  
تقوم بها ذات معنى ، والآثار التي تتركها جهودنا على البيئة . والأزمة  
التي حرمتني من والدي ، أو التي حرمته من عمله تعني شيئا بالنسبة لي  
( لكن المجاعة في الصين قد لا تعني بالنسبة لي نفس الشيء ) . وهذه  
الشجرة تعني شيئا عندي لأنني زرعتها بنفسني ، أما الشجرة التي غرسها  
أنت فلا تعني عندي نفس الشيء .

واضح كيف تشتق هذه المقولة مباشرة من الخبرة الانسانية . ولقد اطلقت عليها مصطلح مقولة القوة ( أو العنف ) لأننا نخبر القوة حينما تتأثر بالظروف الخارجية ، أو حينما تؤثر فيها نحن . وتعاذل هذه المقولة في المجال الطبيعي مقولة العلية . فكلاهما يشير الى نمط من العلاقة تتبع فيه بانتظام حادثة معينة حادثة أخرى يعتمد عليها وقوعها . ومع ذلك ، فمن الضروري ان نفرق بين العلية ( التي تشير الى الارتباط بين الحوادث الطبيعية ) وبين القوة ( التي تعد مقولة من مقولات المعنى ) ، ذلك لأن الارتباط بين الحوادث لا تخبره في الأولى ، على حين اننا نستشعره تماما كخبرة محددة في الأخيرة . فحينما لاحظ ان كرة البلياردو تصطدم بكرة بلياردو أخرى فتتحركها ، فأنني لا ألاحظ سوى مجرد تتابع احداث ، ولكنني حينما بقي بالكرة ، او حينما تصطدم بي الكرة حينئذ اكون على وعي تماما بالعنف واذا ما تحدثت عن القوة أو العنف حينما تصطدم كرة بلياردو بكرة أخرى ، ففي هذه الحالة أكون قد اقتبست مماثلة من خبرة خاصة بي حينما أتاثر بشيء ما أو احدث اثرا فيه . واذا ما اتجهنا في المماثلة الى اكثر من ذلك سوف نقع في خطأ التشبيه . بهذا المعنى تصبح مقولة القوة هي مقولة أساسية أكثر من مقولة العلية .

والمقولة الرابعة هي مقولة القيمة Value ، وهي التي تعطينا الصورة النموذجية للحكم ، والتي من خلالها نضفي معنى على المواقف حينما نربطها بالرضاء أو عدم الرضاء ، وباللذة والاليم ، وبالقبول أو الرفض . فالزهو تعني شيئا بالنسبة لي لأنني استمتع برائحتها ، وكذلك الموسيقى التي أطرب لسماعها . وهكذا تكون المواقف ذات معنى في ضوء ما تثيره فينا من عواطف سلبية أو ايجابية . أما طريقتنا في صياغة الأحكام الاخلاقية أو الجمالية أو الاقتصادية فليست هي موضوعنا ، اذ

ان الأهم والأعم هو خبرة التقويم •  
وأخيرا ، سأشير الى المقولة التي ترمز الى طريقة ربط المواقف  
بأغراضنا وأهدافنا ، ويمكننا ان نطلق عليها مصطلح مقولة الوسائل  
والغايات • اذ قد يبدو شيئا ما على أنه ينطوي على معنى عندي لانه  
مرتبط برغبتني في تحقيق هدف معين ، فتسلق جبل مرتفع شيء له معناه  
عند شخص يرغب في التسلق ، لكنه لن يتضمن هذا المعنى عند شخص  
آخر • وهنا يتضح الارتباط بين هذه المقولة والمقولة السابقة • فقد  
نسعى الى تحقيق ما يدخل علينا السرور ، أو ما له قيمة بالنسبة لنا •  
لكننا لا نستطيع اختزال المقولتين الى مقولة واحدة • فقد ارغب في  
تسلق الجبل ، لكن ذلك لا يعني ان تسلق الجبال له قيمة اخلاقية أو  
جمالية ، او انه يجلب لي اللذة أو السرور • فليس ضروريا أن ترجم  
تحديد شخص معين لهدف ما الى قيمة ، وذلك بالرغم من أن تحقيق هدف  
المرء شيء يجلب اللذة ، لكن هذه الأخيرة مسألة مختلفة • ان الرغبة  
في الحصول على اللذة من أداء شيء ما لا تماثل بالضبط رغبة تحقيق  
هذا الشيء • فقد أطل من نافذة المصنع فألاحظ العدد والآلات المختلفة  
دون أن تثير اهتمامي ، على حين ان شخصا آخر قد يحصى هذه الاشياء  
باهتمام بالغ • وهكذا تكون نوعية الحياة الانسانية هي التي تكسب  
العالم المحيط بنا معناه حينما نحدد لأنفسنا مجموعة من الأهداف ونسعى  
الى تحقيقها • وبعض هذه الأهداف أصيل في تكويننا الفسيولوجي وفي  
الحاجات البيولوجية ، وبعضه الآخر نحدده نحن بأنفسنا ، أو نستمدّه  
من التقاليد •

ولما كانت هذه المقولات لها جذورها العميقة في الحياة الانسانية  
— ذلك اننا جميعا نستخدم الرموز ولنا مشاعر ، وكفاح من أجل غايات  
معينة ، ولدينا وعي متكامل ومعقد — فهي تنطبق بصفة عامة بحسب  
الطريقة التي نستخدمها في التفسير • ومع ذلك ، فنحن لا نستطيع أن

نكمل قائمة المقولات ، كما لا نستطيع أيضا أن نستبعد امكان وجود مقولات أخرى ، اذ من الممكن ان تكون هناك مقولات نوعية تلعب دورا مشابها في حياتنا العقلية • والمعتقدات المشتركة لجيل معين ، أو الاطار النظري لفلسفة ما قد يعطينا المنظور الذي ندرك من خلاله معاني المواقف • مثال ذلك أن فكرة التطور قد تكون بمثابة مقولة تنظم تصورنا لتطور الدول كوحدات محددة • ولا يزال هناك جدل حول أصل هذه الفكرة هل هي ذات جذور في خبرتنا بعملية النمو والنضج ، أم أنها نتاج الأفكار الدينية والفلسفية السائدة في حضارتنا • ومن جهة أخرى نجد أن استخدام مفهوم الطبقة الاجتماعية كمقولة وتفسير المواقف فسي ضوئها هو بوضوح امر له جذوره في أيديولوجية معينة •

ان جانبا مما ذكرت قد يبدو أنه صياغة جديدة لمسائل واضحة مألوقة ، أما الجانب الآخر فهو تحليل فلسفي لبعض العمليات العقلية في ضوء المقولات • ان هذه المقولات ملائمة لمناهج الدراسات الانسانية تماما مثلما تلائم مقولات كانط Kant وبخاصة الجوهر والعلية العلوم الطبيعية •

والعالم الانساني مفعم بلعائني ، فالمواقف تفسر حينما يظهر دارس الانسانيات على المسرح ، أما المعاني التي يكتشفها الناس ، أو يضعونها على حياتهم ، والتفسيرات التي يقدمونها فهي عادة ما يعبر عنها ، ويمكن فهمها من خلال تعبيراتهم •

وهكذا تصبح مهمة الدراسات الانسانية مختلفة عن مهمة العلوم الطبيعية ••• فالأخيرة تهتم بصياغة بناءات فرضية تتعلق بتتابع وارتباط الاحداث، وتعالج الدراسات الانسانية عالما ينطوي على معنى بالنسبة للفعالية، وهي تعمق فهمنا لمختلف ألوان التعبير، انها تجعل فهمنا أكثر عمقا وتنظيما ، كما تمكننا من الوقوف على المعاني الكامنة في حياة الناس •



## الفصل الثالث

### الفهم

- ١ - بعض صعوبات مصطلح الفهم \*
- ٢ - نحو تعريف لمصطلح الفهم \*



## الفصل الثالث

### الفهم

#### ١ - بعض صعوبات مصطلح الفهم .

تتضمن نظرية الفهم التي يناقشها هذا الكتاب ثلاثة قضايا رئيسية،  
فالفهم يمكن تعريفه باعتباره عملية معرفية متميزة ، أي أنه عملية ينتج  
عنها اكتساب المعرفة ، والفهم مطلب لا غنى عنه في الدراسات الانسانية،  
والفهم يطبع مناهج تلك الدراسات جميعا بطابعه .

ولقد كان فلهم ديلثاي رائدا في هذا الميدان ، ثم ما لبثت نظريته  
أن أصبحت جزءا من المناقشات النظرية التي صاحبت نمو علم الاجتماع  
والدراسات الانسانية الأخرى من خلال أعمال ماكس فيبر . ومع أنه  
من الضروري في نطاق المعرفة أن نكشف عن مصادرها وأن نشير الى  
السياق الذي استخدمت فيه المصطلحات واكتسبت معنى محددا ، الا أن  
هذا المؤلف لا يمثل مسحا تاريخيا . ان مصطلح الفهم هو بمثابة المحور  
الذي يدور حوله الجدل في وقتنا هذا ، فلقد هاجمه الوضعيون ، كما  
لعب هو نفسه دورا هاما في الرد على الوضعية التي حاولت أن تجمع  
قواها خلال الحقبات القليلة الماضية .

غير أن الحوار حول قضية الفهم كانت تشوبه مظاهر سوء الفهم الواضحة ، فحتى أولئك الذين كانوا يعرضون نظرية الفهم متعاطفين معها ومدركين أهدافها في التغلب على ضيق نظرة الوضعية يعترفون أنفسهم بأنهم وقعوا في غير قليل من الشك والحيرة فالاستاذ آرون Aron مثلاً حين يكتب عن علم الاجتماع الألماني يتحدث عن الغموض الذي يكتنف مصطلح الفهم ، ويصف الاستاذ بارسونز في مؤلفه بناء الفعل الاجتماعي المصطلح بقوله : « ذلك المفهوم الصعب الى حد ما » ، أما الاستاذ هيوجز Hughes في مؤلفه : الوعي والمجتمع - وذلك في معرض مناقشته لاستجابة الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع ضد الوضعية - فهو يشير الى مصطلح الفهم واعتبره مثلاً لأكثر المشكلات الفكرية صعوبة واجهها في دراسته ، بل انه في رأيه « ضباب يغطي جوانب مظلمة في متاهة المناهج الألمانية للعلوم الاجتماعية » . فليس غريباً إذن ان نجد من بين أصحاب الاتجاه الوضعي من يعجز تماماً عن استيعاب المصطلح .

ويبدو ان طريقة استخدامنا للمصطلح بالانجليزية والغموض الذي أحاط بما ينطوي عليه من معاني قد شجع على ذبوع سوء الفهم هذا . اذ غالباً ما نستخدم الفهم معادلاً للكلمتي Grasping ، Comprehension بالانجليزية . بالمعنى العام للكلمتين . ونحن نقول بهذا المعنى أننا نفهم الكلمات ، والرسائل ، واللغات ، والنظريات والموضوعات ، كالاقتصاد ، والأشياء مثل آلية السيارة ، والعلاقات مثل العلاقة بين البرق والرعد ، ونحن نذهب أيضاً الى أننا نفهم كيفية حدوث الأشياء ، ومن ثم ينطبق الفهم على كل عملية معرفية . ومع ذلك فعالباً ما نستخدم المصطلح بمعنى محدد لنقصد به تلك البصيرة العاطفية التي ننفذ من خلالها الى الحياة

العقلية للآخرين • وليس ذلك مجرد تطبيق لاستخدام المصطلح على فئة خاصة من الموضوعات - الناس - ولكنه يختلف تماما عن أشكال الفهم الأخرى ، فقد يتكون عند شخص ما فهما شاملا للعالم المحيط به ، ولكنه لا يزال يشعر بأن فهمه غير مكتمل لأنه يعدم تلك البصيرة بالناس •

ويؤسس اصحاب نظرية الفهم استخدامهم للمصطلح على ذلك المعنى الذي يقصره على السياق الانساني ، وهم اذ يوضحون ذلك في أعمالهم لن يكون ثمة سوء فهم للمصطلح ، وان كان بعض النقاد يعتبرون أن ذلك يعد ضربا من الفشل ينطوي على خلط في استخدام المصطلح وجهل بمعناه المعتاد • ولقد كتب الاستاذ لندبرج G. Lundberg في مؤلفه : أسس علم الاجتماع يقول : « ان الخطأ يكمن في اعتبار البصيرة والفهم غايتان تسعى الى تحقيقهما كافة المناهج ، وذلك بدلا من التركيز على المناهج ذاتها » ، كما ذهب فون ميسز R. Von. Miesses في مؤلفه : « الوضعية » الى أن « الفهم لا يزيد عن كونه ادماج حادثة معينة في نظرية ابتدائية تغطي مجالا محدودا للخبرة • ومن العسير أن نقرر وجود فعل معين للفهم في الانسانيات يتألف من أي أكثر من مجرد الرد للخبرات السابقة ، والادماج فيما نعرفه وما هو معتاد ، وما يتكرر من ملاحظات » ، ومثل هذه التأكيدات تتجاهل بوضوح وجود اجراء متميز في الدراسات الانسانية ، ومن ثم تثبت من جديد عمومية انطباق المناهج العلمية • وهكذا ، اتسمت كتابات النقاد باللغو بدلا من الفحص النقدي لدعوى نظرية الفهم ، وحتى اذا افترضنا ان للفهم معنى محددا ، فانهم يزعمون انه لا يمكن ان يكون له أي معنى آخر • انك لا تستطيع ان تجادل في لغو حقا ، وحتى اذا تجنينا الحقيقة القائلة بتعدد الاستخدامات القائمة للمصطلح ، فان الاستخدام الشائع ليس مقدسا • ونحن حينما

نستخدم تعريفا مبدئيا آخر يصبح من الممكن ان نحدد فعلا محددا للفهم في الانسانيات ، لكن ذلك ليس هو السؤال الحاسم ان المسألة الرئيسية هي هل يشكل الفهم منهجا متميزا له دلالة .

وثمة سوء فهم آخر ( نجده عند لندبرج ) هو ذلك الذي يفترض أن الفهم منهج « صوفي Mystical » ، فإذا ما قصدنا بالفهم تلك البصيرة بالعمليات العقلية وفرقنا تفرقة حاسمة بينه وبين الاستيعاب Comprehension فهو اذن سيصبح ضربا من الحدس ، لحظة خيال مفاجئة ، أو ومضة ضوء خاطفة ، وجانب الصدق المحدود في هذه النظرة هو ان العمليات الأولية للفهم مثل فهم الكلمة مثلا يجب أن تعالج بوصفها أولية في الدراسات الانسانية تماما كما نعتبر رؤية الحوادث والاشياء مسألة أولية في العلوم الطبيعية . ويمكن وصف العمليتين بأنهما عمليتي حدس مباشرتين في هذا السياق بالذات ، برغم أنهما قد يعتبرتا في سياق آخر من العمليات التي تخضع للتحليل السيكلولوجي أو الابستمولوجي ، ولسوف نعود لهذه النقطة مرة أخرى .

ومع ذلك ، فليس ثمة ما يدعو الى اعتبار كل ضروب الفهم مسألة حدس . أو انها تمثل نوعا من العملية الصوفية المقدسة ، فإذا وافقنا على ذلك لتعذر تحديد مناهج الدراسات الانسانية ولكانت موافقتنا تنطوي على سخرية من هذه الدراسات ولظهر الحدس اذا حددناه بمعنى الحدس الباطني ، والقفزة الى النتائج ، والشعور بالاستنارة المفاجئة في كافة مجالات الحياة ، في الطهي مثلا واثناء السير في الطريق ، وفي البحوث الكيميائية والاجتماعية . ومهما كانت طبيعة الحدس ، فان الرؤية المفاجئة لحل المشكلة تلعب دورا في حياتنا الفكرية عموما ، ولا يمكن استخدامها

التفرقة بين الدراسات الانسانية والعلوم الأخرى • ونحن نعتقد ان الحدس اساسا فجائي ولا منطقي فهيتلر Hitler - مثلاً - راح يفكر تفكيراً عميقاً ثم فجأة اصدر امره بدخول فرق عسكرية اخرى الى ستالينجراد ، وهذا يمثل نموذجاً للانسان الذي يعتمد على الحدس • اننا يتعين ان نضبط دور الحدس في العلم ، واذا قبلنا الفكرة القائلة بأن الدراسات الانسانية تعتمد بصفة خاصة على الحدس فان ذلك معناه انكار جهود الاجتماعيين واعتبار دورهم شبيه بدور العراف الذي لا يحتاج الى الالتزام بالبحث المعلمي الذي يعتمد عليه علماء الطبيعة ، كما أنه غير ملتزم أيضاً باستخلاص نتائج منطقية •

وهكذا ، قد يكون فهمنا للمظاهر الطبيعية الهامة أو وضعنا لآطار من الفروض الفلكية ، هو فهم حدسي بدرجة تقل أو تكبر ، وفجائي بنفس الدرجة ، أو عقلي ومعتمد على الشواهد ، لكن هذه الخصائص جميعاً لا تحدد طبيعة العملية •

## ٢ - نحو تعريف لمصطلح الفهم •

كنتيجة لسوء الفهم هذا ، ولغيره من أنواع سوء الفهم التي ستشغلنا فيما بعد يتعين تحديد معنى الفهم بدقة كلما كان ذلك ممكناً ، وربما لا يكون هو المعنى العادي اذ لم يسبق أن استخدمه احد من قبل بنفس هذا التحديد ، وستوضحه الأمثلة وتظهر التعريفات كيفية ارتباطه بالاستخدامات الأخرى للكلمة ، اذ أنها ستشير الى عملية أو مجموعة عمليات يمكن تمييزها عن غيرها ومن ثم تعطينا معنى واضحاً محدداً لنظرية الفهم •

وقد يكون المثال التالي نقطة بداية مقنعة ، دعنا نفترض انني على

وعني - نتيجة للملاحظة - بحالات اعبر عنها بقولي : « ان الرطوبة قد أفسدت المنضدة في غرفة الطعام » ، ان أي شخص سيسمعني سيشاركني المعرفة ، فكلانا فهم شيئا ما أو علاقة بين احداث ، اما معرفتي أنا فهي نتيجة للملاحظة ، واما معرفته هو فهي مترتبة على الاتصال . والمستمع واقع بوضوح تحت تأثير عمليتين معرفيتين ، حينما أخذ عني ما أقول ، ثم أدرك العلاقة بين الرطوبة والمنضدة . وعلى الرغم من أن الاستخدام العادي للفهم ينطوي على العمليتين ، انني فهمت ما ذكرته ، وفهمت أثر الرطوبة على المنضدة ، الا أنني اعتقد انه من المهم التمييز بينهما ، ومن ثم فسوف استخدم مصطلح الفهم للإشارة الى العملية الاولى ومصطلح الاستيعاب أو المعرفة للدلالة على العملية الأخرى . وبالتحديد هناك ثلاثة عمليات رئيسية، فلقد فهم هو معنى الكلمات ، ثم اقترب من فهم أفكاره، واخيرا ادرك بعض الوقائع . ولسوف اناقش العلاقة بين العمليتين الآن، وطالما أنهما مرتبطتان اشد الارتباط فسأعتبرهما مظهران مختلفان للفهم، اذ ان العمليات الثلاث تتمركز حول فعل واحد ولا يجب ان نفكر في أنها تقع الواحدة بعد الأخرى . والحقيقة انه يمكن وصفهم بأنهم يمثلون جوانب مختلفة لفعل واحد . ومع ذلك فالتفرقة بينهم هامة لكي تتمكن من التركيز على جانب أو آخر . فاذا كان المستمع مهتما بالاثاث حينئذ ستكون عملية الفهم مجرد وسيلة للوقوف على بعض الوقائع التي نادرا ما يلاحظها : أما اذا كان يشك في صدق ما أقول فسيركز على فهم الاتصال . وبعبارة أخرى حينما يكون المستمع مهتما بذاتي أنا ( مثلما يهتم المؤرخ أو المحلل النفسي ) فان المعلومات الخاصة بالمنضدة لن تكون ذات قيمة رئيسية في فهمه بحقيقة ثورتي كنتيجة لما أصاب الاثاث . هنا نستطيع ان نفهم الفارق بين العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية ، فالأولى تهتم بالاستيعاب والأخرى بالفهم .



وهناك الكثير مما يمكن ان يقال لتوضيح عملية الفهم ، ويجب أن اضيف هنا نقطة هامة وهي أن الاستعانة بفكرة المستمع في المثال السابق ليست هي لب المسألة ، ولكنها وسيلة للاقناع . ومن الممكن ان نذهب الى أن تحويل خبرتي الى تصور هي بالفعل ضرب من الاتصال . وهكذا يمكن القول أن كل استيعاب ينطوي على فهم ، ومع ذلك فهذا لا يؤثر في حالتي ، اذ ان علينا ان نميز بين الاستيعاب بوصفه يعبر عن ادراك العلاقة بين الحوادث أو الاشياء وبين الفهم باعتباره يعبر عن ادراك العلاقة بين الرموز .

لقد أوضحت ان الفهم عملية متميزة لا يجب ان يختلط بالحدس الصوفي أو استيعاب اشياء أو حالات معينة، وأشارت في المثال السابق الى التمييز بين فهم الكلمات وفهم الأفكار، وبلورة هذه النقطة وتفسيرها أمل أن اكون قد قضيت على كل غموض يحيط بمصطلح الفهم . فقد أقول : « انني افهم رسالة صديقي » ، ثم استمر في القول و « كنتيجة لذلك ما يدور في ذهنه » . ومن طبيعة الاتصال الناجح ان يكون فهم الكلمات ، والاشارات ، أو صور التعبير الأخرى مؤديا الى فهم الافكار والمشاعر والمقاصد التي يعبر عنها . ان علينا ان نفرق بين هاتين الخطوتين المختلفتين في الفهم ، ويتضح ذلك حين تفشل الاتصالات ، « انني افهم كل كلمة في رسالته لكنني ما زلت لا افهم ماذا يقلقه » . وبالرغم من أن الفشل الجزئي في الاتصال يجعل تمييز الاتصالات عميرا الا أن العمليتين - أي فهم التعبير وفهم ما يشير اليه - مرتبطتين اشد الارتباط ، او هما وجهان لعملة واحدة . اتنا احيانا ما نتحدث عن فهم التعبيرات ، وأحيانا عن فهم الناس أو أفكارهم أو مشاعرهم ، لكننا حقيقة لا نستطيع أن نفهم الشخص دون أن نفهم الطريقة التي يعبر بها عن ذاته . قد يبدو ذلك كله ضربا من المبالغة والتطرف في تحليل امر واضح تماما ، لكن هناك الكثير

مما قيل عن صعوبة مصطلح الفهم وغموضه كما يستخدم في الدراسات الانسانية ، ولقد ركز الذين عرضوا نظرية الفهم على الحديث عن صعوبة فهم الافكار والمشاعر والمحتويات العقلية الأخرى • وحقيقة اننا نستطيع أن نصف هذا الفهم على أساس عملية اعادة التفكير او استرجاع الخبرة والتعاطف او البصيرة التخيلية • غير أننا اذا لم نوضح كيف نصل الى هذه البصيرة فسنترك انطبعا بأننا نفعل ذلك بواسطة عملية غامضة ندخل من خلالها مباشرة الى عقول الناس ، وهكذا نكون قد عرضنا نظرية الفهم عرضا غير ملائم باعتبارها نظرية رومانية جامدة • ومع ذلك فان الحقيقة الواضحة هي ان فهم المحتوى العقلي يحدث دائما من خلال فهم التعبيرات ، ويستخدم المصطلح الأخير للدلالة على كل ما يعبر عن اشياء أخرى أو يدل عليها ويتضمن ذلك الكلمات والاشارات من كل نوع ، وما نطلق عليه السلوك التعبيري ( مثل البكاء ) •

والنقطة الهامة هنا هي اننا حينما ننظر الى تعبير — أو نسمعه — تكون نظرتنا موجهة نحو مظاهر فيزيقية كنقطة الحبر على الورق وكالاصوات وحركات الاجسام ، فنحن نفهم ما يفكر فيه الناس ويشعرون به ، ونستمع الى ما يقولون ، وفلا حظ ما يفعلون • ولقد كان الاستاذ ناجل Nagel على حق بكل تأكيد حينما قال : « ان ملاحظة السلوك الظاهر هي المنبع الوحيد للمعلومات لكل مهتم بتعبيرات الآخرين وأفعالهم » ، لكن ذلك لا ينهي مشكلة الفهم على الاطلاق •

على أن قولنا بأن الفهم يجب أن يعتمد على ادراك صور التعبير لا يضيف كثيرا الى تصورنا لفكرة الفهم كأبسط طريقة لاجراء البحوث في الدراسات الانسانية ، ولتصورنا للباحث الاجتماعي كما لو انه عراف يجلس على اريكته • والتعيزات بوصفها مظاهر فيزيقية يمكن ملاحظتها

أو إخضاعها للتجربة ، ومن ثم فهي يمكن ان تجمع وتختبر وتصنف •  
 فقد يلجأ الباحث الى إخفاء أدوات بحثه كآلة التصوير مثلاً لكي يسجل  
 تعبيرات الأطفال أثناء اللعب، وقد يعثر على بعض النصوص العتيقة ثم يجري  
 على أساس ما اكتشفه فيها بعض الاختبارات الكيميائية • وقد يستخدم  
 الباحث الاجتماعي الآلات الحاسبة في تصنيف استجابات المبحوثين  
 لأسئلة الاستبيان • وليس هناك من بين هذه الاجراءات جميعا ما يدل  
 على الفهم ، ولكنها مقدمات للفهم وشروط ضرورية له ، اذ انه يعتمد  
 بدوره على تلك الاجراءات لكي يتحقق الغرض منه • ومع ذلك - وتلك  
 نقطة رئيسية في نظرية الفهم - فان الموضوع الحقيقي للدراسات  
 الانسانية لا تجسده سوى عملية الفهم • فالباحث بالتأكيد يلاحظ وينظر  
 ويستمع ، لكن المشاهد التي يراها ، والأصوات التي يسمعها ليست هي  
 موضوع بحثه ، انه يهتم بالتعبيرات والتي برغم أنها مدركة بالحواس  
 كغيرها من الموضوعات او الحوادث الا أنها تشترك في خاصية عامة  
 مميزة وهي أن لها - مرجع معين ، ونحن حينما نفهم ذلك فقط نتحقق  
 لدينا المعرفة • فالغصن الذي يسقط على الارض لا يزيد عن كونه قطعة  
 من الخشب ، وحينما نعرف شكله وحجمه ، ونوعية الخشب ، وبتعيين  
 الحقائق الأخرى حينئذ نكون قد عرفنا كل ما يمكن معرفته منه ، ولكن  
 اذا كان غصن الخشب هذا مقطوع على شكل صليب ، فان هذه المعلومة  
 لن تكون ملائمة في هذا الصدد ، لأننا لا نعرف سوى ما هو مائل  
 أمامنا ومن ثم لا ندرک أن الغصن على هذا النحو يصور لنا رمزا دينيا.  
 وحينما يهيء الباحث نفسه لاستقبال المظاهر الفيزيقية يكون في موقف  
 أولى تماما كما يدرّب الفلكي منظاره ، وينكب البيولوجي على مجهره •  
 اما حينما يبدأ الباحث في مرحلة فهم تلك المظاهر كتعبيرات حينئذ

يحصل على بعض الوقائع التي تعد كأساس للدراسات الانسانية .

بامكاننا الآن أن نصل الى تعريف محدد للفهم هو استيعاب بعض المحتويات العقلية التي يجسدها تعبير معين ، تلك هي العملية المعرفية الأولية التي ندرك من خلالها موضوع الدراسات الانسانية ، وهي عملية لا غنى عنها في هذه الدراسات، وما يترتب عليها من نتائج مثمرة هي الهدف الذي تسعى اليه الدراسات الانسانية . والتوجيه نحو الفهم هو السمة المميزة للدراسات المهتمة بالانسان عن العلوم الطبيعية .

### ٣ - دور الفهم في الدراسات الانسانية .

وثمة مثال آخر يكشف لنا كيف ينطوي الفهم على موضوع الدراسات الانسانية ، فاذا كنت على وعي بأن طائفة من الاجسام البشرية تتحرك بسرعات متفاوتة في مكان متسع ، وتصدر عنها أصوات ذات مستوى وعمق معين ، فاني لا أواجه هنا موقفا انسانيا يحتاج الى تفسير سيكولوجي أو سوسيولوجي مهما بلغت معرفتي بهذه الأصوات أعلى درجة من الدقة . ولكنني حينما أفهم أن بعض الاشخاص الغاضبين يسجلون زنجي يحاول اختطاف امرأة بيضاء ، هنا يتمثل امامي موضوع للدراسات الانسانية . وبعبارة اخرى يتعين على أن افهم بدءا التعبير عن الغضب ، ثم بعد ذلك التفسير الذي يقدمه المشاركون في الموقف ومقاصدهم .

ولقد أشار الاستاذ ماكيفر Macivar الى نقطة مماثلة في مؤلفه عن المجتمع حين كتب يقول : « هناك اختلاف بثن من وجهة نظر العلية بين ورقة تطير من النافذة ، وبين شخص يهرول في حشد مطارد ، فالورقة لا تعاني من الخوف ، والرياح لا تعرف أي كراهية ، وبدون

الخوف والكراهية لن يهرول الانسان ، ولن يطارد الحشد » . وغالبا ما يدعى الوضعيون قدرتهم على ترجمة مثل هذه المواقف الى سلوك بحث ، وتلك محاولات تبوء بالفشل كما ذكر هايك F. Hayek في مؤلفه : الثورة المضادة للعلم . كما أن الصياح ، والتلويح بقبضة اليد، والوجه العابس ليس بينها سمات فيزيقية مشتركة وانما تصنف جميعا في فئة واحدة لأنها تعبيرات عن الغضب . يصدق ذلك أيضا حتى اذا افترضنا بأن كل هذه الصور للسلوك تصنف معا على أساس أنها تؤدي الى نتيجة سلوكية واحدة ( الا وهي تحطيم موضوع الغضب ) ، فتجاهل شخص معين ، واثارته ، واهاتته أو حرمانه من شيء يحتاج اليه هي أشياء تختلف تماما من وجهة النظر السلوكية ولكنها كلها يحركها دافع الغضب، ولا يستطيع السلوكي تصنيف المظاهر الاجتماعية وتفسيرها اذا رفض أن يأخذ في اعتباره المظاهر العقلية التي تحرك السلوك ، وان يفهم السبب في أنها كذلك .

ولا يعني قولنا بأن الفهم عملية عامة لا غنى عنها في الدراسات الانسانية — لايعني ذلك أنها العملية الوحيدة التي تستخدمها هذه الدراسات أو انها شاملة أو كافية بذاتها . وأحيانا ما يذهب الوضعيون الى أن نظرية الفهم تدعى ذلك لنفسها ، وبذلك يتكون لديهم الدليل الواقعي على أن اجراءات معينة كالتعميم أو صياغة الفروض تستخدم في الدراسات الانسانية معتقدين بانها تلائم طبيعة تلك العلوم ، لقد ذهب كل من فاجل في مؤلفه بناء العلم ، وميسز في مؤلفه الوضعية ، وهبل في مؤلفه القوائين العامة في التاريخ ذهبوا جميعا الى هذا الادعاء ذاته ( وذلك بالرغم من أن هبل يسلم بأن الفهم وسيلة تعليمية طيبة ) .

انني لا أعرف مفكرا جادا قد عرض النظرية كما تهاجم هكذا ،  
وبالتأكيد ان ديلثاي وماكس فيبر لم يفعلوا ذلك \*

لقد تحدثت عن الفهم بوصفه يقوم بثلاثة أدوار مختلفة فهي  
الدراسات الانسانية ، فهو العملية الأولية التي نبدأ بها البحوث ، وهو  
في نهاية المطاف الهدف الرئيسي للبحث \* واذا لم نميز بوضوح بين هذه  
الادوار فسيبدو الباحث الاجتماعي كما لو انه قد اتم عمله منذ أن بدأ ،  
ومن ثم فليس هناك ما يدعو الى تعلم عملية الفهم وتطبيقها \* وينبغي  
من جهة اخرى ألا نفكر في وجود مفاهيم ثلاثة متميزة للفهم ، وانما  
الفهم عملية مستمرة تنتقل من مستوى أولي الى مستويات أعلى فأعلى،  
واكثر تعقيدا حتى تكتمل العملية \*

وعلىنا أن نميز بين عمليات الفهم الأولية ، وعمليات الفهم العليا  
على الرغم من صعوبة توضيح الانتقال من موقف الفهم الأولي الى  
البحث العلمي الذي يسلمنا الى الفهم المكتمل \* ففي المثال الذي أشرت  
اليه قبل قليل نلاحظ أننا على وعي منذ البداية بأن هناك نشاطا انسانيا  
هادفا ، وأصواتا ذات مغزى ، كما اننا نسمع الصيحات ونفهمها بوصفها  
تشير الى عملية «اغتصاب» أو الى محاولة «تقييد زنجي بقيود معينة» \*  
كما أننا نرى شخصا معنا يحيط شجرة بجبل فنفهم هذه الواقعة \* على  
أن الفهم قد يعانني من بعض الثغرات نتيجة للملاحظة والاستماع وربما  
توجيه الاسئلة \* وفي مرحلة معينة قد يرتبط اهتمامنا العلمي باهتمامي  
الانساني والشخصي ، وهنا تنتقل الى بحث أكثر تنظيما يمتد الى ما وراء  
المشهد الذي أمامنا واللحظة التي تمر علينا \* فالظروف الاقتصادية  
والاجتماعية في منطقة معينة ، والتكوين العقلي للأفراد ، ومعتقدات  
المجتمع وتجزئاته هي كلها ظواهر ممكنة الفهم ، وهي بدورها تسهم في  
فهمنا للموقف \*

ولا يظهر الانتقال من الفهم الأولي الى الفهم الاعلى والاكثر تعقيدا فحسب في المواقف ذات الطابع العلمي كما اشرت من قبل ، فهو يحدث بانتظام أيضا في الحياة العادية . مثال ذلك أن فهم رسالة معينة عملية معقدة تعتمد على عمليات فهم أولية للكلمات المفردة . ولكن كيف تنتقل من الفهم الأولي الى الفهم الأعلى ، وكيف تربط عمليات الفهم ببعضها ، ذلك هو موضوع الدراسات الانسانية .

ان عمليات الفهم — كما ذكرت — هي العمليات المعرفية الأولية التي يجب أن تبدأ بها الدراسات الانسانية، ولا يعني ذلك أنه يتعذر تحليلها الى أبسط من ذلك، اننا نعتبرها أولية في الدراسات الانسانية تماما مثلما نعتبر الادراك في العلوم الطبيعية عملية أولية نجمع بها الوقائع التي تعالجها هذه العلوم . لكن ذلك لا يعني اننا لا نقع في الخطأ حينما نرى شيئا ما بل ان ذلك معناها انه لا توجد طريقة اخرى غير الاعتماد على الحواس لكي نتحقق بها من نتائجنا الأصلية ، ان غاية ما نستطيعه هو أن نعيد النظر مرة أخرى أو نقارن انطباعاتنا ، الحسية بانطباعات الآخرين . وبنفس هذا المعنى نحن قد نخطئ في عملية الفهم لكننا نستطيع اكتشاف هذا الخطأ وتصحيحه بعمليات فهم أخرى .

وعندما نشير الى الفهم في الدراسات الانسانية والادراك في العلوم الطبيعية كعمليتين أوليتين نقف من خلالهما على موضوع الدراسة في هذه العلوم فليس ذلك سوى نوع من التبسيط . فهناك أنماط عديدة للفهم في كل فرع من فروع الدراسات الانسانية وهي أنماط على مستويات مختلفة من التعقيد ، وهذه الانماط تعتبر أولية تماما كما هو الأمر بالنسبة لكل فرع من فروع العلوم الطبيعية هناك

أنماط مختلفة للادراك هي دائما نقطة البداية ، فنقد النصوص يبدأ من فهم التعبيرات اللغوية ، كما يبدأ علم الاجتماع من فهم التفاعل الانساني . واستخدام العين المجردة ، والتلسكوب ، والمجهر هي ادراكات أولية في الميكانيكا والفلك والبكتريولوجيا .

ولكل علم عناصره التي قد تخضع للتحليل الى جوانب أكثر أولية من جانب علم آخر ، فدارس الميكانيكا يدرس حركة البترول ولكنه لا يهتم بالمادة التي صنع منها هذا البترول ، كما أنه يهتم بدرجة أقل ببنائه الذري . وعالم الاقتصاد يتجاهل الخطأ اللغوي في عقد العمل ، وكذلك العمليات الفسيولوجية المصاحبة لعملية الكتابة . ونستطيع في ضوء العمليات الأولية أن نتناول المشكلات المختلفة في العلوم وأن نصل الى حلول لها . وقد يكون في وسعنا أن نصوغ تفسيراً للفارق بين الزهرة البرية والزهرة المزروعة على أساس تكوين الخلايا ، أو نفسر الوثيقة على أساس العمليات الفسيولوجية ، غير أن التفسير الأول لن يساعد البستاني ، والتفسير الثاني لن يمكننا من التنبؤ بتأثير العقد .

انني أكدت هذه النقطة بسبب ما ينطوي عليه مذهب السرد Reductionism من مشكلات ، واعني بذلك البرنامج الذي يضعه من وقت لآخر دعاة فكرة وحدة العلم ، اذ انني حاولت توضيح المكونات الأولية للموقف لكي أفسر موقفهم . فليس هناك شك ان هذا الموقف طبق بنجاح أكثر في العلوم الطبيعية واثمر نتائج مفيدة . لكنه لا يمكن أن ينطبق بصفة عامة دون تمييز . فعلى الرغم من أن الفهم ينطوي على ادراك ، الا أن الأخير لا يرد اليه ، كما أن التعبيرات لا يمكن تفسيرها في ضوء ما فدركه من أحداث . وحتى في نطاق الدراسات الانسانية



نجد أن محاولة رد فهمنا للتعبيرات الى فهمنا للعمليات العقلية للفرد، وهي النظرة التي يطلق عليها معارضوها اسم المذهب النفسي ويسميتها دعائها باسم النزعة الفردية المنهجية ، هذه المحاولة ممكنة الى درجة محدودة جدا . ففهم المسرحية لا يعادل تماما فهمنا للعمليات العقلية عند المؤلف ولا يعتمد عليه كلية ، بالرغم من أن جوانب كثيرة من المسرحية تفهم حينما تفعل ذلك .

وأخيرا ، هناك المطلب القائل بأن الفهم يجب تناوله كعملية أولية داخل سياق الدراسات الانسانية ، ولا يعني ذلك أنه يعالج كمطلب أولي غير قابل للتحليل بعد ذلك ، اذ ان ذلك معناه انه سيكون لدينا انطباع بأن الفهم عملية قدسية غامضة . وهنا تكون المماثلة بالادراك فسي العلوم الطبيعية ملائمة تماما . فرؤية موضوع معين هي عملية معرفية معقدة ، واذا شك أحد في ذلك فليس أمانا سوى الرجوع الى التحليل الشامل الذي قدمه كانط في مؤلفه نقد العقل النظري . غير أن عالم الجيولوجيا والكيمياء يسلمان ادراك الموضوعات والحوادث ويبدآن منها ، وينطبق نفس الشيء على الفهم ، اذ يستخدم عالم النفس وعالم الاجتماع هذه العملية دون حاجة الى تحليل مركباتها أو فحص أسسها النظرية ، فذلك هو موضوع الفلسفة .

وبإيجاز فإن الفهم أولى أو ابتدائي ، وهو عملية متكاملة تتعرف من خلالها على موضوع الدراسات الانسانية وتلعب الانماط المختلفة للفهم هذا الدور في مختلف فروع هذه الدراسات . وتلك ليست عملية غامضة غير ممكنة التحليل ، وانما هي تخضع للتحليل الاستمولوجي . وهكذا تواجهنا مهمة مزدوجة وهي اجراء البحوث على مستويين ، فلدينا من ناحية المشكلة الاستمولوجية التي يصورها التساؤل التالي،

ما هي العمليات التي تتطلبها الفهم والشروط التي ينطوي عليها ؟ وكيف ومتى نحقق فهما لنا ؟ ( بعبارة أخرى ما هي معايير الفهم الصحيح ؟ ) . ومن ناحية أخرى تواجهنا تلك المضامين المنهجية للتأكيدات التي نقدمها والتي يصورها التساؤل التالي ، ما هي بالتحديد الموضوعات التي يتناولها الفهم في الدراسات الانسانية ؟ وكيف تتجسد هذه العملية في اجراءات محددة للبحث وترتبط بالعمليات الأخرى ؟ وإلى أي مدى تضع أساسا مشتركا لكافة الدراسات الانسانية وما هو دورها في مختلف الدراسات ؟

ومن الضروري ان نميز بين هذين الاتجاهين في البحث • أما موضوع الاتجاه الأول فهو الفهم ، وأما الاتجاه الثاني فيهتم بكيفية استخدام الفهم كطريقة للبحث في موضوع من موضوعات الدراسات الانسانية • ويمكن تناول كل اتجاه على حدة إلى حد ما • ولكي نصل إلى نتائج ابستمولوجية ليس ضروريا - بل من المتعذر حقا - ان نطوف حول دائرة المناهج واساليب البحث المستخدمة في الفهم بشكل لا متناهي • والفيلسوف المنشغل بالبحث الابستمولوجي لا يهتم كثيرا بالطريقة التي يوصلنا إليها اختبار رورشاخ (بقع الجبر) إلى الاستبصار • والباحث في هذا الجانب يسلم بإمكانية الفهم ولا يفكر سوى في ملاءمة اجراء معين •

ومع ذلك فإن نظرة عميقة للاتجاهين ستكشف لنا عن مدى الاعتماد المتبادل بينهما وملاءمة كل منهما للآخر • ويعتمد هذا الكتاب على الاعتقاد بأن الفيلسوف يستطيع أن يفيد من النظرة الدقيقة لما تقوم به الدراسات الانسانية بالفعل ، ويستطيع بدوره ان يطور اجراءاتها • والفيلسوف الذي يصوغ اطر المعرفة متجاهلا أو مشككا في الاجراءات

المعرفة المبررة براجماسيا ، أو الذي يعتمد بطريقة غير نقدية على استعارة افتراضاته من العلوم الاخرى دون أن يعترف بها نظريا يسيء الى سمعة موضوع دراسته ، ويمائل ذلك العالم الاجتماعي الذي يسيء توجيه جهوده حين يعتمد على ابستمولوجيا ساذجة • ويحدث ذلك كله حينما تجري البحوث المنهجية الدقيقة دون أن تتساءل بداءة عن مدى اسهام نتائجها في اثراء المعرفة العامة •

وتهتم الابستمولوجيا بطبيعة المعرفة ، ماذا نستطيع أن نعرف ، وما هي شروط المعرفة ؟ ويتناول علم المناهج الاجراءات التي نكتسب المعرفة من خلالها في مجالات معينة وتحت ظروف خاصة ، ولهذا فهو متصل بالابستمولوجيا لأنه يكشف عن طرق اكتسابنا للمعرفة • ومن جهة أخرى فإن النتائج الابستمولوجية تتضمن مضامين منهجية ، ففي ضوءها نحدد فئات المناهج المشروعة أو توسعه ، ونقترح مناهج جديدة ، أو نعيد تقييم المناهج القديمة • والسلوكية على سبيل المثال تعتمد على نظرية معرفية قائمة على ملاحظة مناهج العلوم الطبيعية ، وهي تدين بوضوح بعض المناهج المستخدمة في الدراسات الانسانية ، بينما تزكى مناهج أخرى •



## الفصل الرابع

### الشروط الاستمولوجية للفهم

- ١ - مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها .
- ٢ - الشروط الاستمولوجية الثلاثة للفهم .
- ٣ - ملائمة الشروط الاستمولوجية لمنهج الدراسات الانسانية .



## الشروط الابدستمولوجية للفهم .

### ١ - مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها .

ان الابدستمولوجيا أو نظرية المعرفة هي فرع الفلسفة الذي يعالج مسألة امكانية المعرفة ، وهي تحاول أن تجيب على السؤال التالي : ما هي الشروط الواجب تحقيقها اذا أردنا أن نعرف شيئا ؟ ومن ثم فهي تهتم ببيان ما تنقيد به من معايير أو مبادئ تجعل الجهد المبذول في المعرفة ناجحا .

وسوف نركز نحن في ثنايا هذا الكتاب ، وفي ضوء تناولنا لنظرية المعرفة ، على العملية المعرفية التي تمثل محور الدراسات الانسانية ، ونقصد بها عملية الفهم . وهذا يعني أننا ضيقنا نطاق نظرية المعرفة هنا وحصرناها في تناول السؤال التالي فقط : ما هي الشروط الواجب تحقيقها لمعرفة شيء كتعبير ، وفهمه بما يحمله من سياق عقلي ؟

ومع أن الاعتبار الابدستمولوجية العامة تلائم الدراسات الانسانية، فاننا يجب أن نضع في اعتبارنا بعض الظواهر الطبيعية قبل أن نقوم بعملية فهم التعبير . وذلك لأن مثل تلك الظواهر الطبيعية تعتبر الطريق الذي تمثل عنه كل التعبيرات ، فيجب أن نرى أشكالا وأن نسمع أصواتا ، وبالطبع فلقد أثرت من قبل ، مسألة ثقنتا بحواسنا ( اذ هي

تخدعنا أحيانا ) ومسألة علاقة الحواس بالعمليات العقلية • ولن ندخل في تفصيلات ذلك هنا • ولكننا فكتفي بالقول بأن طريقة تناولنا لمثل هذه المسائل تحدد المناهج التي يجب علينا استخدامها للقضاء على الشك • هذا ونود أن نذكر هنا على أن الشروط الاستمولوجية للادراك الحسي يجب أن تتحقق قبل أن يكون في مقدورنا فهم أي شيء ، ومن هذا المنطلق ندرك أن الفهم يتضمن نفس العمليات المتعلقة بمعرفة العالم الطبيعي •

ان المسألة الاستمولوجية النوعية للفهم تثار ونحن بصدد التأكد من وقائع الطبيعة •• اذ كيف نعرف أن استدارة البرتقالة هي تعبير ، وكيف نعرف ما تعبر عنه ، علما بأن التفسيرات لا تعطى نفسها كتفسيرات في عملية الادراك ؟

اننا نتحقق فقط من أن ما ندركه هو تعبير حينما نفهم أن له معنى meaning ، أي حينما نفهم أنه يعبر عن شيء أو يشير الى شيء • ان الذي قلناه توا يتميز عن فهم التعبير أو فهم معناه • ومن ثم ينشأ لدينا سؤالان متميزان الأول هو : كيف نفهم أن شيئا ما يدل على تعبير ؟ والثاني : كيف نفهم التعبير ؟ واضح — من الناحية الاستمولوجية — أن السؤال الأول يبدو رئيسيا أكثر من السؤال الثاني ، ذلك لأن فهم ذلك الشيء الذي يدل على تعبير شرط لا غنى عنه لفهم التعبير : ومن ثم فيجب أن نبدأ بذكر الاعتبارات التي تميز التعبير عن أي ظاهرة أخرى ، لكننا يجب أن ندرك أن العمليتين لا تتمايزان تماما ، ذلك لأن التعبير يتضمن فهمه الى حد ما ومن ثم يكون التعبير هو المرحلة الأولى لاكتشاف معانيه •

ان الخاصية المميزة لكافة التعبيرات أنها تدخل في علاقة مع الأشياء



الآخرى التي تمثلها أو تشير إليها ، وهي أيضا ترتبط بالضرورة بالنشاط العقلي أو بالمحتوى العقلي الذي يشير أو يبدع العلاقة السابقة، فالمنضدة تشير الى فكرة بنفس الدرجة التي تشير فيها الى موضوع ، الا أنه لوحظ أن بعض الحالات تنفرد بأنها ذات طابع عقلي فقط مثل التهيدة •

والحقيقة السابقة التي تشير الى أن التعبيرات لها صلات بالوقائع الفيزيقية من جهة وبالأفعال العقلية من جهة أخرى تحتاج منا الى تأكيد وتعزيز نظرا لأهميتها البالغة ومعزاها الاستمولوجي • ويذهب البعض أحيانا الى أن الترابط المنتظم في خبرتنا بين واقعيتين ( الصوت والحيوان على سبيل المثال ) يجعلنا نفهم أن واقعة منهما تكون علامة على الأخرى، تماما كما تدلنا خبرتنا على أن السحب الكثيفة يعقبها دائما سقوط المطر •• لكن الأمر ليس على هذا النحو دائما ، فمثلا يوجد ارتباط منتظم بين توهج الضوء في عيوننا وبين فتح العينين وغماضهما على نحو لا ارادي، لكن هذا الارتباط المنتظم - لكونه غير ارادي - فاقه لا يعني ان الواحد منهما يمكن أن يفهم كتعبير عن الآخر ، لكن حينما يطرف رجل بعينه لامرأة فان ذلك يعد تعبيرا لأن الفعل العقلي تدخل فيه •

كيف نفهم اذن كون العلاقة الجزئية التي تجعل الشيء تعبيرا حاضرة؟ ان الاجابة على هذا السؤال بسيطة وواضحة ، وهي أن الارتباط أو العلاقة القائمة بين المحتوى العقلي وبين السلوك أو الشيء المدرك المعبر عنه انما يعطينا لنا خلال خبرتنا ، ومن ثم فنحن نعيه •• اني أكون على وعي مثلا بأني غاضب حينما أعض على نواجزي •• وأكون على وعي بقصدي في الاتصال حينما أشير الى شيء أريد الاتصال به •• وأكون على وعي بالأفكار التي تصاحب الأصوات التي أتنفوه بها ، وحينما أتعرف على الموضوعات والحداثات كتعبيرات فانني أتقدم باقتراح رئيسي ينكره

أنصار المذهب الأنوي Solipsism (١) . ولم تعلن عنه الفلسفات الممتدة من ديكرت الى كانط وحتى تلك التي أتت من بعده اعلانا صريحا ضمن مقترحاتهم الاستمولوجية - وهذا الاقتراح هو : انني لست محاطا فقط بموضوعات ولكنني محاط أيضا بكائنات تشارك معي في الطبيعة الانسانية العامة وهي الكائنات الانسانية . وطبقا لهذا فانه يمكن من معرفة عض على نواجز أخرى غير نواجز ، والى أصابع أخرى غير أصابعي وتشير هنا وهناك على انها تعبيرات \*

ان الاستمولوجيا التي تقف على ساق واحدة تقودنا الى مصاعب لا حصر لها حين نرغب في تفسير معرفتنا بالآخرين . ان الفهم يفتح العالم على مصراعيه من أجلنا ، أنه يركز على سياق تفسيري ، وعلى تعددية أفراد مترابطين . ان الفهم كما حدده ديلتاي بدقة هو « إعادة اكتشاف الأنا في الغير » \*

## ٢ - الشروط الاستمولوجية الثلاثة للفهم \*

هناك افتراض مسبق للفهم وهو أنه توجد كائنات انسانية أخرى ، وأن تلك الكائنات تتشابه معنا . ان أحد العلامات التي لا غنى عنها ، والتي تتعرف بها على التعبير هي من ثم أن التعبير يتصل بكائن انساني ، بل ويجب أن ينتج عن مثل هذا الكائن . لكن هذا وحده ليس كافيا لتمييز التعبيرات ، فعطس الانسان أو ترك آثار أقدامه على الرمال ليس من قبيل التعبير ، ان التعبير يجب أن تكون له علاقة ببعض المحتوى

---

(١) يرى أنصار هذا المذهب ان الانا هي كل ما يوجد أو يكون وانها محور الوجود كله ، وما عداها لاكون ولا وجود .  
المترجم .

العقلي الكامن في صميم خبرتنا الخاصة •

نحن لا نعتبر « المجدار » <sup>(١)</sup> Scarecrow بما يحمله من سلاح مرفوع تعبيراً ، لكننا نميل الى ان نعتبر حركة مشابهة تابعة من انسان على أنها تعبير عن ترحيب أو تهديد • ان أثرا على الرمال به ملامح كلمة انجليزية لا يعد تعبيراً اذا كان البحر قد أحدثه صدفة ، ولكنه يعد تعبيراً اذا كان بفعل انسان • كما أن حديث الببغاء أو تسلم الكمبيوتر لرسائل لا يعد من قبيل التعبير ، لأننا نحن الذين دربنا الببغاء على الحديث ، ونحن الذين صنعنا الكمبيوتر • ويتضح من هذا أن التعبير يتصل بالانسان وبالقدرة الانسانية •

الآخرون يتشابهون معنا ، ونحن نمتلك وإياهم طبيعة انسانية مشتركة ، لكن هذا لا يجب أن يعني أن ثمة توحدا كاملا بين الخصائص الانسانية بحيث لا يميز واحد عن آخر • ان مثل هذا القول يعد سخيفا ومن السهل علينا رفضه • وعلما علم النفس أن هناك فروقا فردية بين الناس في القدرة والمزاج والسمات ، كما يعلمنا التاريخ أن ثمة تفاوتاً بين الناس من عصر الى عصر في النظرة والحساسية والبناء الشخصي ، كما كشفت الاثربولوجيا لنا عن كيفية استطاعة قدرات الانسان أن تتوافق بمرونة بالغة مع مختلف البيئات وأن تغير بالتالي الأنماط الثقافية •

وحينما نشير الى الطبيعة الانسانية فنحن نعتمد على ثبات الموقف

---

(١) المجدار كما يذكر « لسان العرب » هو ما ينصب في الزرع مزجرة للسباع والطيور . وهو ما يعرف في مصر باسم « خيال الماتة » وفي لبنان باسم « الفزاعة » أو « خيال الصحراء » ويعرف في سوريا باسم « الصريقة » .  
المترجم •

الانساني في حدود معينة لا يتخطاها ، وعلى نطاق محدد لامكانياته وقدراته ، وعلى معرفة بميول وأنماط ثابتة للحياة العقلية • فمن طبيعة الانسان انه مائت لا محالة ، وأنه يتمتع باحساسات حسية وبمشاعر وبعمليات فكرية • ونحن نعلم يقينا ماذا تقصد تماما بقولنا أن لنا نوايا، وأننا ندرك المعنى في مواقف مختلفة ، ونعبر عنه • وأخيرا فأننا نستطيع أن نحصي الصلات القائمة في حياتنا العقلية ، ونعلم أن الادراكات الحسية تثير الذاكرة ، وأن المشاعر تنشأ عن الرغبات •

ونود أن تؤكد هنا على أن نكون على ألفة بكل هذا ، لا لأننا متمرسون في البحث النفسي أو حتى لأننا عارفون بالتحليل النفسي ، ولكن لأننا انسانيين • اننا لو لم نعلم تلك الاشياء من خبراتنا الخاصة فلن نستطيع أن نفهم تعبيراتها ، ولا أن نفهم حتى ما هو التعبير • وهذا ليس غريبا ، فالأعمى لا يمكن أن يعرف ما هو اللون الاحمر ولا أي لون آخر ، والانسان المفكر الذي لا تكون لديه خبرة بما يتعلق بالفكر من موضوعات حسية لا يمكن مطلقا أن يفهم معنى الفكر ولا أن يفهم غرضه • ولما كنا نستطيع أن نستوعب اللغة كلغة دون الاشارة الى تبادلاتها الفيزيائية وصلاتها بالنوايا فان هذا الاستيعاب لا يمكن أن يتحول الى فهم باللغة •

ان التأكيد على هذين الشرطين من شروط الفهم وهما : أنه يجب أن يكون ثمة تعبير ، وأن هذا التعبير يجب أن ينبع عن خواص الطبيعة الانسانية المألوفة لدينا، أصبح من الأمور المسلم بها بعد ظهور كتاب هايك F. A. Hayek المسمى « بالثورة المضادة في العلم » والذي تحدث فيه عن المعتقدات والآراء التي لا تتمكن من ملاحظتها مباشرة في عقول الناس، ولكننا نتمكن من التعرف عليها من خلال أعمالهم وأقوالهم ، وما ذلك الا

بأننا نمتلك ببساطة عقولا مشابهة لعقولهم \*

ان الزعم بأننا لا نستطيع أن نعرف كل ما ينطوي على قصد أو نية كالحب أو الغيرة أو الطموح أو اليأس أو الشك ، دون أن تكون لدينا خبرة بهذه الحالات ، هو زعم غير مقبول ويمكن نقده . لقد عارض الأستاذ ناجل Nagel في كتابه « بناء العلم » الرأي القائل بأننا نفهم فقط الشيء الذي يتمثل في خبرتنا الا أن التوضيحات والامثلة التي يستخدمها بغية نقد موقفنا تشير الى درجات من العاطفة قد لا تتمكن من أن نخبرها ، فيذكر ناجل مثلا أننا نتكمن من فهم انطونيو وكليوباترة أو عطيل دون أن نجب بنفس درجة حب انطونيو وكليوباترا ، ودون أن نغير بنفس درجة غيرة عطيل . ليس ثمة حاجة لافتكار هذا ، اذ ليس من الواجب أن نشعر بالضبط بما يخبره ويشعر به الآخرون لكي نفهمهم ، فأنا لا أحتاج الى أن أحب السيدة/سميت لكي أفهم حب السيد/سميث لها، وربما أجد نفسي غير قادر على تخيل أنني أحبها ، فأكتفي بأن استمع من السيد/سميث ماذا يرى في زوجته ، لكن ما يجب أن أعلمه من خبرتي الخاصة هو كيف يعني الحب ، لأن السيد/سميث لا يمكن أن يفسر لي ذلك .

واذا أنكرنا القول بأننا نستطيع أن نفهم ما لم نخبره في هذه الصورة أو تلك الدرجة ، فأننا لن نستطيع أن نتعلم أي شيء من الفهم ، كما أننا لن نستطيع أن نفهم أي شخص يختلف عنا . وفي مثل تلك الحالة فإن الفهم لن تمتد دائرته، ولن يغني خبرتنا، ولن يكون نافعا للدراسات الانسانية \*

ويبدو واضحا ، وبالرجوع الى الدراسة التاريخية ذاتها ، أننا نصنع معرفتنا بالطبيعة الانسانية بتقدير كبير للآداب العظمى ، كما تتمكن من

الاتصال بكائنات انسانية أخرى • ولكن كيف يمكن أن نمر من ألفتنا  
بخواص انسانية رئيسية الى فهم كائنات انسانية أخرى وخبرات غريبة؟  
الواقع أن مثل هذا الموقف يتضمن ثلاث عمليات عقلية مألوفة : الأولى ،  
أننا نضيف المحتوى العقلي المؤلف لدينا الى أناس في مواقف مختلفة عن  
مواقفنا وهذا هو ما تؤكد نقطة التماثل أو التشابه • وعلى سبيل المثال  
فقد أتمتع « بلعبة التنس » ، ويتمتع سميث « بلعبة الجولف » ولكي أفهم  
كيف يتمتع سميث بلعبة الجولف فيجب أن أقارن بين اللعبتين ، حينئذ  
سأجد أن كلا اللعبتين يتسمان بلامح عامة مشتركة مثل كونهما يتمتعان  
بروح المنافسة ، وبالفرح بالفوز ، واحتياجهما لتدريبات وتمرنات في  
الهواء الطلق تؤدي الى كسب المهارة •• ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن  
استمتاع سميث بلعبة الجولف يتشابه مع استمتاعي بلعبة التنس •

أما العملية الثانية فتتمثل في أنه توجد في كل انسان دائرة عريضة  
من الامكانيات أكثر من تلك التي يعيها في ذاته ، فموقف جديد ، وتحد  
جديد قد يستخرجا مشاعر واستجابات لم يكن الانسان يخبرها بوعيه  
في ذاته ، فعطيل ربما لم يكن يعتبر نفسه انسانا غيورا حتى وجد سببا  
لهذه الغيرة ، وعلى الرغم من أنني لم أخبر الغيرة ، فأنني لو سمحت  
لخيالي ان يقف مثل هذا الموقف مثلا ، فسوف أوقف مشاعري الباطنة  
ومن ثم أفهم المسرحية • ان مثل هذه الطريقة هي ما تتعمق به أفهامنا  
بالطبيعة وبأنفسنا بواسطة الآداب العظيمة •

تبقى العملية الثالثة والأخيرة وهي تتمثل في أننا يمكن أن نفهم الخبرة  
العقلية ذات الشدة القصوى عن طريق الحصول على خبرة تعادلها من  
دائرة أكثر تواضعا ، ومن خبرات ذات درجات متفاوتة الشدة من ميادين  
أخرى • ويتضح هذا من مثال الغيرة لعطيل ، ومن بعض التصرفات مثل :

أنه بسبب تواضع طموحي في الترقى فأنني أتمكن بجهد خيالي من أن أفهم الطموح العالي لماكبث ، وبسبب أنني أتهيه أحيانا وأقول « فهي استطاعتي قتل هذا الانسان » فأنني أقدر على أن أفهم الرغبة في القتل •

ويتمثل الشرط الاستمولوجي الأول لفهم شيء ما والتعبير عنه في ألفتنا بالملامح الرئيسية لطبيعتنا الانسانية العامة ، وبوجه خاص في رغبتنا في الاتصال وباتجاهنا نحو التعبير عن أنفسنا • أما الشرط الاستمولوجي الثاني لفهم التعبيرات ، وفي بعض الأحيان فهم أن ذلك الشيء يدل على تعبير فيتمثل في ألفتنا بالقواعد والاصطلاحات التي تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات • فمن الواضح مثلاً أننا لا يمكن أن نفهم الجملة بدون معرفة قواعدها النحوية ، وتركيبها ، والقواعد الاصطلاحية للغة عامة، كما أننا لا نتمكن من معرفة أن حركة ما لليد ليست تمريناً رياضياً لكنها علامة على التحية إلا إذا كنا على ألفة باصطلاحات وعادات سكان المنطقة ، ونفس الأمر ينطبق على قدرتنا على قراءة الخرائط ، وتفسير علامات الطريق ، والتعرف على الصياح ، وتمييز المزاح عن الالهانة •

ان هذا الذي قلناه يعد أمراً واضحاً الصديق فيما يتعلق بفهم أي تعبير خاص ( عدا التعبيرات الطبيعية التي سأعالجها في الفصل القادم ) • لكنه يوقعنا في دوار، ذلك لأننا لا نستطيع أن نفهم القواعد والاصطلاحات إلا بواسطة فهم التعبيرات ، وهذا يعني ضمن ما يعنيه أن الشرط الثاني ليس أساسياً بنفس درجة الشرط الأول كما أنه يعتمد عليه : إذ الشرط الأول يمكننا تحقيقه من فهم الكائنات الانسانية وبالتالي فهم كل ما يمكن أن ينتج عنها •• ان كل ما يخلقه العقل البشري يمكن للعقل الانساني فهمه ، وذلك على عكس الظاهرة الفيزيائية ، ففي حين تكون هذه الاخيرة

غريبة وغير مفهومة ، ويكون بناؤها بالغ التعقيد ، بحيث يعجز العقل البشري عن فهمها ، تكون ابداعات الانسان أليفة لدينا ، بحيث نتمكن من فهمها ، والتعرف على جزئياتها ، لأننا نحصل سمة التآلف معهم . نعم أنني أجد فلسفة هوايتهد أو نظرية نيوتن في الجاذبية غير مفهومين . لكن سبب عدم فهمي يرجع الى نقص ذكائي أو عدم تمرسي بالموضوعين ومع ذلك آكون على ثقة من حيث المبدأ بأن أسرار تلك الفلسفتين سوف تنكشف لعقل انساني باحث .

سال مداد الباحثين حول عيوب الدراسة الانسانية ، خصوصا حينما نقارنها بالعلوم الطبيعية ، وذهبوا الى أن سبب تلك العيوب انما يرجع أساسا الى تميز الدراسات الانسانية بالتعقيد الكبير بحيث تكون في وضع يجعلها غير خاضعة للتكسيم ولا للتجريب العلمي خضوعا كاملا ، وهاهنا تكون الدقة فيها صعبة ، كما تكون الموضوعية فيما تتناوله عسيرة المثال لكن تلك العيوب ونواحي النقص هذه انما يمكن تعويضها بتلك الميزة الفريدة التي ذكرناها ونعني بها ميزة الألفة ( هذه الميزة لا توجد في ميدان الطبيعة الفيزيائية ، لأنها في آخر الأمر غريبة عنا ، كما أنها لا تكشف عن عملياتها ، علاوة على أن نظرياتنا عنها ستبقى مجرد تكوينات افتراضية ) . وعلى العكس من الطبيعة فاننا نضرب بأنفسنا تلك العمليات التي توجد وفقها ملامح العالم الانساني ، لكننا حينما نبدأ أبحاثنا العلمية فاننا نجد أنفسنا توا وسط الأشياء .

وبعبارة أخرى فاننا نفهم الروايات ، والأعمال الفنية ، والمؤسسات ، والاقتصاد ، والتنظيمات ، والأديان ، والاصطلاحات لأننا نكون على ألفة بها ، وعلى مقدرة من اعادة تكوين العمليات التي أدت الى انتاجها ،



وفهم الاهتمامات والنوايا التي تتضمنها ، وإدراك الأفكار والحالات  
والمشاعر التي تعبر عنها •

ولأن النشاط البشري هو الذي أبدع العالم كله ، فانا يمكن أن  
نستخدم في الإشارة الى ذلك كلمة ثقافة Cultur والثقافة تتضمن  
هنا : اللغة والأدب والفنون والدين والقانون والعادات والفولكلور والعلم  
والتكنولوجيا والحرف والصناعة والزراعة والعلاقات الاجتماعية •• ان  
طريقة صنع الأواني ، وترتيب الأشجار وتهذيبها ، وتصوير الأب لكيفية  
تربية ابنه هي كلها مظاهر ثقافية •

وفي كل عصر من عصور الزمان ، وفي كل موضع من مواضع المكان  
نجد ثقافات متباينة •• هناك أديان متباينة تباينا لا نهاية له ، ولغات  
متفاوتة ، وعادات زواج لا حصر لها ، ومع ذلك فان الانسان يعيش في  
عالم من صنعه - خلال سياق ثقافي - يمتاز بأنه كلي • وأبعد من ذلك  
فان كل الثقافات تحتوي على أعظم ان لم نقل على كل الملامح التي  
ذكرتها ، لأنها تتوافق مع متطلبات الانسان واتجاهاته • ان كل جماعة  
انسانية نعرفها تطور لغتها ، وتحدد قواعدها وعلاقاتها ، وتوجه طقوسها  
نحو قوى تعتقد أنها تحكم العالم بأسره •

يمكننا بطبيعة الحال أن نتقل من الألفة بالطبيعة الانسانية الى  
معرفة كل ما يبدعه الانسان ( العالم الثقافي كله ) وهذا أمر ضروري لأن  
ذلك العالم جسد كلي من القواعد والاصطلاحات اللازمة لفهم التعبيرات،  
وفي هذا الصدد لا يعد ذكرنا لقواعد نوعية أو اصطلاحات فردية الا من  
قبيل التبسيط ، فقواعد اللغة والتركيب لا تكفي لفهم عبارة ما ، اذ يلزم  
أن ندرك أيضا كل القواعد المكونة لسياق جزئي ، وبالمثل فاذا أخذنا

مثالا من الفلسفة ، فانه لا يكفي أن تبحث في المعنى القاموسي لكلمات تكون عبارة كـانط «التركيب الترانستندالى للوعي» كي نفهمهما، اذ القواعد التي تحكم استخدام هذه العبارة تتجسد في فلسفة كـانط كلها كما جاءت في كتابيه : « نقد العقل النظري الخالص » و « نقد العقل العملي الخالص » . وينطبق هذا أيضا على محاولتنا فهم عمل المهندس : اذ يتعين علينا دراسة التكنولوجيا التي يقوم بتطبيقها .

لقد ذكرت منذ قليل فكرة وقوعنا في دور ابستمولوجي ، وسنمحص هذه الفكرة الآن . ان هذا الدور يتمثل ببساطة في أن فهمنا للعالم الثقافي كله يجب أن يكون نتاج فهمنا للتعبيرات الفردية التي لا حصر لها — فهذا هو الهدف النهائي للدراسات الانسانية — لكننا ذكرنا أيضا — وهذا هو ما أوقعنا في الدور الابستمولوجي — بأن فهم التعبيرات الفردية يحتاج الى فهم العالم الثقافي كله ، فكيف نحل هذه المشكلة ؟

نحن نحل هذه المشكلة عمليا بنوع من الحركة المكوكية . فالفهم التقريبي لبعض التعبيرات يقودنا الى فهم تقريبي للملامح العالم الثقافي كله ، وهذا الفهم بالعالم الثقافي كله يساعدنا في المقابل على فهم تلك التعبيرات الجزئية بصورة أعظم . وهكذا تكون معرفتنا بالعالم الثقافي متحركة ذهابا وايابا ، وهي في حركتها تلك تعمق تقدم فهمنا بالعالم الثقافي وتبدياته الجزئية في الوقت نفسه .

أما الشرط الثالث والأخير من الشروط الابستمولوجية للفهم فيتعلق بفهم السياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات . وهذا الشرط واضح وضوحا لا لبس فيه ، فالكلمة تكون أكثر دقة اذا فهمناها من خلال عبارة، وفهمنا العبارة من خلال فقرة ، وفهمنا الفقرة من خلال كتاب . وفهمنا الكتاب من خلال العرف الأدبي . فبمثل هذا الطريق يكتشف القارئ أو

الناقد بالأحرى معنى ما يقرأه ، وفهمه فهما كاملا . وبغية فهم أكبر يلجأ رجال الأعمال والاجتماعيون والاقتصاديون الى ربط الأفعال بالمواقف التي تحدث فيها ، ويلجأ المؤرخ لكي يفهم رجلا مثل نابليون الى دراسة عصره وبيئته وخليفته كلها .

ان تحقيق الشرط الثالث له أهمية خاصة بالنسبة الى الدراسات الانسانية ، ولكنه لا يخص تلك الدراسات وحدها ، اذ هو شرط ينطبق على كل المعارف والعلوم بما فيها العلوم الطبيعية ، فلكي تعلم لماذا يدور جسم سماوي في مدار معين ، فيجب أن تأخذ في حسابك الاجسام الاخرى التي تؤثر فيه ، ولكي تعلم لماذا تنمو الأزهار على النحو الذي تنمو به عليه فيجب أن تأخذ في اعتبارك التربة والخضروات المزروعة حولها وأحوال الطقس ، لدرجة انه قيل أحيانا أن معرفتنا بالزهرة يتضمن معرفتنا بالعالم . وبالطبع فان الرأي العام ومتطلبات الحياة اليومية يرفضان مثل هذا القول الأخير ، فنحن نعلم أن ثمة أشياء جزئية وحادثات فردية رغم افتقارنا لما يسمى بالمعرفة الكلية .

ان مسألة التداخل الكامل أو الاستقلال بالنسبة للفهم تحدث أيضا بالنسبة الى التعبيرات ، ففي الطرف الأول نحن نميل الى القول « هذه مقطوعة من الشعر ، ولو تكن احدى سونيتات دون Donne الدينية » . انها كتبت لكي تفهم بذاتها ، ومن ثم فاننا نستطيع أن نقرأها ، وأن نفهمها ، بدون أن نكون حاصلين على تفوق دراسي « أما في الطرف المضاد فنحن نميل الى القول « ان عليك لكي تفهم نفس المقطوعة السابقة أن تعرف شيئا عن نظرية وتاريخ الشعر ، ولكي تقيم هذا الأئموذج فعليك أن تعلم شيئا عن الاصطلاحات والعادات الفكرية الذاكرة في عصر دون Donne وأن تعلم شيئا عن مؤلفها ذاته ، ولما كانت تلك

المقطوعة دينية فعليك أن تفهم بعض العقائد اللاهوتية المتعلقة بها ، ولكي تفهم هذه الأخيرة عليك أن تبحث في تاريخ الديانة المسيحية وعلاقتها بتاريخ الانسانية » ان هذا يؤدي دون شك الى وجوب قيامنا ببحث معرفي شمولي قبل أن تلك المقطوعة فهما حقيقيا .

ان الموقف الأول عبث مثل الموقف الثاني فكل واحد من هذين الموقفين يتطرق تطرفا مبالغا فيه ، لكن التوسط بينهما تكون له فائدة . ذلك لأننا اذا اعتقدنا أننا لا نستطيع فهم أي شيء دون أن نفهم كل شيء ، واذا اعتقدنا بأننا لن نستطيع ان نصل الى الفهم الكامل بالنسبة لأي حالة فردية ، فلن تكون لدينا الشجاعة في أن نبدأ بتناول أي مسألة أيا ما كانت ، وسوف نغلق على أنفسنا دائرة بحثنا .

ان عمل الفهم ليس هو عمل كل شيء او عمل لا شيء ، اننا نحصل على فهم حقيقي في مختلف مراحل البحث ، لكن هذا الفهم يمكن أن يعمق وأن يصبح أكثر ثراءا اذا أعطينا للتعبير الذي نحاول فهمه أبعادا أكبر . وعلى سبيل المثال يمكن أن أرى انسانا يحرك ذراعه ، وأفهم من ذلك مباشرة - بسبب ما أشارك معه من خلفية من الاصطلاحات - انه يحييني تحية الصداقة ، ويريدني أن أعرف بأني قريب من قلبه ، ومن هنا اشارته على أنها نوع من التحية أو التشجيع ، لكن افترض انه سألني في اليوم التالي أن امنحه قرضا ماليا فأتني حينئذ افهم حقيقة اشارته واعتبرها كنوع من الرغبة في أن يفوز بالخطوة عندي حتى امنحه قرضا ، ومن هذا المثال تتضح أهمية السياق في فهم التعبيرات . ومثل ذلك ينطبق على أشياء كثيرة : فحينما ندرس لونا أو نجما أو قطعة معدنية أو زهرة فان هذه الموضوعات تكون أماننا بطريقتها التكوينية ، لكن تعبيراتها لا تكون أماننا كلها ، لأن التعبيرات يجب أن تفهم في سياقاتها .

وأن تشير الى ما ورائها ، ودراستها تقتضي منا الذهاب الى دوائر أبعد منها .

وعلى الرغم من أننا نستطيع ، بل ويجب ، أن نميز بوضوح بين الشرطين الثاني والثالث ، بين معرفة اللغة وبين كونها مألوفة في السياق الذي توجد فيه بعض الكلمات ، فيجب أن نعلم أنهما يميلان الى الالتقاء على مستوى النظرية ، فالثقافة الكلية هي السياق المحدد والمخصص للعمل الجزئي ، كما أن نتاج المؤلف كله يمثل الخلفية الثقافية لفهم اتجاهاته الجزئية . من أجل ذلك ثارت المشكلة الاستمولوجية التي آمل أن أكون قد وفقت من حلها وهي مشكلة الدور والتي تمثلت كما قلنا في أن التعبيرات الفردية يتم فهمها فهما أكبر من خلال سياقاتها العريضة ، وأن تلك السياقات العريضة يتم فهمها من خلال التعبيرات الجزئية .

### ٣ - ملأمة الشروط الاستمولوجية

#### لمنهج الدراسات الانسانية .

ان الشروط الثلاثة للفهم والتي ذكرتها توا : الألفة بالطبيعة الانسانية، ومعرفة الخلفية الثقافية ، والوعي بالسياق ، ليست شروطا مثالية وحسب، فعلى الرغم من أن الفهم الكامل بما هو فردي ، وبما يمثل الحقيقة الكلية بأبعادها التاريخية والاجتماعية هو أمر مستحيل - رغم كونه مطلوباً من الناحية النظرية ، فأننا نحقق فهما في كل من الحياة اليومية والدراسات الانسانية ، وهذا يعني أننا نحقق هذه الشروط في حياتنا العقلية قبل أن نجمع حروف البحث المنهجي، فنحن نكون على الفة تامة بالخواص الأساسية لحياتنا العقلية ، وتتشرب اللغة والعادات والاصطلاحات من مجموعتنا منذ الطفولة ، فاما أن تكون التعبيرات حاضرة بذاتها في سياقاتها كما تحضر الكلمات في عباراتها ، واما أن تنكشف صنوف السياق لنا خلال تتابع الحوادث .

هذا أمر مألوف ، لكن ما معنى قولنا بأن الدراسات الانسانية ترتكز أساسا على ما هو مألوف ؟ ان الاطار الرئيسي لتطور الدراسات الانسانية العلمي يجب أن يدعم بعملية تجعل المؤلف والمقبول من لدى الرأي العام الشائع مفهوما فهما نسقيا ومنهجيا ، ونضالنا نحو تحقيق كامل للشروط الابستمولوجية الثلاثة يمكننا من التوصل الى فهم منهجي دقيق .

ان ألفتنا بالطبيعة الانسانية ، وبالفعل الانساني يمكن أن تتسع وتعمق بواسطة الاستبطان الدقيق ، وجمع الوثائق عن ذلك الاستبطان ، ودراسة الأعمال التي تعبر عن معرفتنا بالطبيعة الانسانية مثل السير الذاتية خصوصا تلك التي دمجها رجال ذوي بصيرة نافذة وعمقا في المعرفة من أمثال القديس أوغسطين وروسو وجوته وجيد ، ومثل مؤلفات رجال عباقرة يتمتعون بخيال قوي من أمثال ستندال وشكسبير ودوستوفسكي ، ومثل أعمال رجال الدولة من أمثال قيصر وبسمارك . ان مثل هذه الكتابات تجعلنا نتعرف على ما هو أليف لطبيعتنا الانسانية .

وعلى الرغم من أننا نفهم أنفسنا في الحياة العادية بمثل هذه الطرق وطرق أخرى ، ونستفيد من بصيرة الآخرين ، وتحقق من صدقها في أفعالنا ، فلقد وجد علماء النفس وعلماء العلوم الاجتماعية صعوبة في الاستفادة من تلك الأمور ، ذلك لأن أفعالنا تتسم بالتعقيد ، وتستعصي على التصنيف ، وعلى قابلية اختبارها موضوعيا . ومع ذلك فانه من الضروري واللازم للدراسات الانسانية ان تجد وسيلة للاستفادة من هذه الثروة الغنية من البصيرة عن طريق جمع كمية هائلة من مادة البحث هذه وتصنيفها وتحليلها . ويجب أيضا أن نستكشف التجربة الداخلية وحكمة الشعوب لا لما يحملناه في ذاتهما من أهمية ولكن باعتبارهما أساس التطور

المنهجي لطرق الفهم • ان ما نحتاج اليه هو الوصف الكامل ، ودراسة الحالات الفردية ، ووصف كيف يخبر الناس الحياة في مواقف محددة •

نحن نرى أن هذه الألفة بالعالم الثقافي انما تتوسع وتمتد بواسطة تراكم الخبرات : الرحلات، والقراءة النسقية، وما شابه ذلك • ان من واجب الدراسات الانسانية جعل معرفتنا أكثر اتساعا وذات صورة نسقية ، وفي ضوء هذا نستطيع ان ندرك لماذا كانت معرفتنا بالفيلولوجيا والدين المقارن والتاريخ وعلم الاجتماع والتي تكشف عن القواعد والاصطلاحات والعادات التي تحكم التعبيرات شرطا ضروريا من شروط الفهم •

لقد وصلنا الى الفهم الواقعي للسياق بواسطة التراكم التدريجي لمواد الدراسات الانسانية، وبالمعرفة التاريخية، والسير الذاتية ، والابحاث الانثربولوجية ، وغير ذلك من معارف اجتماعية وصفية •

ان ما أثرناه حتى الآن من مناقشات يتطابق مع قبيجتنا التي ذكرناها بادىء ذي بدء وهي أنه ليس ثمة نقطة بداية بحتة من الوجهة الاستمولوجية • ان الفكرة القائلة بأن الدراسات الانسانية ذات نسق دقيق يبدأ من بصيرة أولية ويتقدم بخطوات منطقية تجاه الفهم الكامل هي فكرة مضللة وتشبه سراب الغابات will - o - the wisp (١) •

وبدلا من أن يتقدم دارس الدراسات الانسانية في جبهة عريضة واسعة فان عليه أن يقتصر على دراسة الأسس الاستمولوجية لموضوعه، ويمكنه أن يختبر موضوعه ، ويصححه ، ويجعله واضحا ودقيقا بالرجوع الى كل

---

(١) المقصود بسراب الغابات هو توهم الانسان الثائه في غابة انه يرى نورا على بعد وكأنه منبعث من منزل بعيد فاذا ما اقترب كان هذا النور سرابا فلا يجد بيتا ولا قصرا رلا كوخا .

ما هو موجود من معارف مطلوبة له ترتبط بالحقيقة التاريخية والاجتماعية. ان المدخل التاريخي والابستمولوجي له وظيفة محددة ونوعية، فلا يمكنه أن يحل محل البحث بحثا آخرًا ولكنه يستطيع أن يوضح أعمال الباحثين ويجعلها نسقية ، وأن يوجه الباحث نحو غرضه المنشود ، وينظم النتائج من خلال الاطار الذي يوضح العلاقة المتبادلة بين كل ما هو موجود .



## الفصل الخامس

### التعبيرات

- ١ - طبيعة التعبيرات ووظائفها .
- ٢ - تصنيف التعبيرات .
- ٣ - المصامين المنهجية لتصنيف التعبيرات .



## التعبيرات

### ١ - طبيعة التعبيرات ووظائفها \*

تتضمن قضية الفهم كثيرا من جوانب موضوع التعبيرات ، الأمر الذي دفعنا الى الاشارة لهذا الموضوع في الفصول السابقة \* والتعبيرات هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يحدث الفهم من خلالها ، وهي تعد - من ناحية معينة - الموضوع الوحيد للدراسات الانسانية ، ثم هي من ناحية أخرى الموضوع الذي يتحقق الفهم من خلاله \*

والتعبيرات مظاهر فيزيقية نستقبلها بواسطة الحواس ، فنحن نرى الكلمة المكتوبة تماما مثلما نرى العلامات المميزة على الزهور ، ونحسن نسمع الكلمات مثلما نسمع صوت الرعد \* لكن الكلمات بعكس تلك المظاهر الأخرى لها طبيعة مزدوجة فهي تحيلنا الى ما هو كامن وراءها ، وهي تجسد لنا المعاني التي يمكن فهمها ويتعذر ادراكها \*

ولكي نستكمل تعريفنا للتعبيرات الذي سبق أن عرضناه يجب أن نوضح طبيعة تلك الاحالة \* ثمة علاقتان متميزتان بين المظهر الفيزيقي وما يكمن خلفه ، ووظيفتان مرتبطتان للتعبير ، الوظيفة الاولى تتعلق بالحالة العقلية التي تنشأ عنها التعبيرات وما يترتب على ذلك من وظائف تؤديها كافة التعبيرات تتصل بالتعبير عن تلك الحالة العقلية واظهارها ، فصرخة

الألم ، وعبوس الوجه مظاهر تحقق تلك الوظيفة في أكمل صورها • أما الأفعال ، وهذا هو الأهم ، فهي تحقق شيئا لا يرتبط بعالم التعبير اذ هي تكشف عن المقاصد والاتجاهات ، فاذا مزقت قطعة من الورق ، فقد يعني هذا التعبير انني أريد ترتيب مكتبي ، كما أنه يعبر أيضا عن نفاد صبري ورغبتني في الترتيب • وهكذا ، فحتى حينما تستخدم التعبيرات لتحقيق وظيفة الاحالة ، فهي تحقق في الوقت ذاته وظيفتها الأولى ، ذلك أن الحديث الموضوعي عن القوط مثلا يعبر عن مقاصد المتحدث واهتماماته واتجاهاته ، والواقع أن هناك اعتمادا متبادلا بين الناحيتين ، فاذا كانت طريقة الحديث تعبر عن خوف المتحدث ولا تكشف عن تفكيره ، ففي هذه الحالة يتعذر القول بأنه يتحدث عن القوط •

أما الوظيفة الثانية للتعبيرات فهي الاحالة Reference ، فالمظهر الفيزيقي يصبح تعبيرا محققا لتلك الوظيفة اذا ارتبط بشيء فيزيقي ما أو عقلي ، أو بفعل حادثه يشير اليها ويمثلها ، وتتحقق تلك العلاقة بفعل عقلي يظهر هو الآخر من خلال التعبير • وهكذا تعتمد الوظيفة الثانية على تحقيق الوظيفة الأولى ، فما تحيلنا اليه التعبيرات هو الذي يحدد معناها ، ومن ثم تصبح الاعلام والكلمات وعلامات الطريق تعبيرات تنطوي على معاني •

ويطلق على التنظيم الدقيق للتعبيرات من أجل تيسير مهمة الاحالة مصطلح اللغة • وهذا تعريف عام لا يتضمن فحسب لغات مثل الانجليزية أو الفرنسية ولكنه يشمل أيضا الأفكار الرياضية أو الجغرافية والقواعد المتفق عليها ، مثل القواعد المتبعة في ارسال البرقيات أو اشارات القطارات ، أو نظم اشارات المرور • واذا رمزنا لأنواع الزهور المختلفة بمعاني محددة فاننا نستطيع في هذه الحالة أن نتحدث عن لغة خاصة

بالزهور • وهناك فروق شكلية بين هذه اللغات ، فبعضها أولى ، وبعضها الآخر يعتمد على امكانية ترجمتها الى لغة عادية ، لكنهما يرتبطان معا تحت مصطلح اللغة لكي تتضح خصائصهما المشتركة •

واللغة هي نسق اصطلاحي للتعبير ، وهي اصطلاحية لانها من صنع الانسان ، ثم هي نسق لأنها كل يتألف من أجزاء تحكم العلاقات المتبادلة بينها قواعد محددة هي قواعد اللغة والمنطق ، وتلك القواعد هي التي تجعل عملية الاحالة ممكنة ومنسقة ومفهومة وفعالة • أما مكونات اللغة فيمكن وصفها بطريقتين مختلفتين ، أما كما تظهر في التعبيرات الفردية المتعددة التي يعبر عنها الناس ( وفي هذه الحالة استخدم مكونين للغة حين استخدم كلمة القطعة مرتين ) أو كوحدات تمثل المعنى الذي تشترك فيه عدة تعبيرات لا تطلق الا على فئة واحدة ( وفي هذه الحالة لا توجد سوى كلمة واحدة هي القطعة مثلا في اللغة الانجليزية ) •

تلك معالجة مقتضبة للغة ، وان كانت أساسية ومألوفة عند دارس المنطق • وليس من الضروري هنا أن تقدم نظرية شاملة للغة ، ولكننا أشرنا فقط الى الموضوع لكي تتجنب سوء الفهم ونمهد لمزيد من مناقشة التعبيرات والعلاقات التي تشكل عملية التعبير ، والاحالة التي تحدد أيضا طبيعة التعبيرات ، هي علاقات قائمة بذاتها Sui generis لا يمكن اعادة تعريفها أو ترجمتها ، فهي متضمنة بالفعل عند استخدامنا للغة ، وهي أساسية بدرجة تفوق علاقات السببية ، اذ في ضوءها نصف العالم • والحقيقة أننا حين نحاول ، كما فعل بعض السلوكيين ، أن نجعل العلاقات بين التعبيرات وما تشير اليه مسألة خاضعة للملاحظة المنظمة نكتشف انه ليس ثمة شيء يمكن ملاحظته • حقيقة انني ابحت عن الشراب حين استشعر العطش ، لكن العلامات الفيزيائية التي أظهرها قد لا يكون بينها

شيء مشترك سوى المعنى ، فقد أطرق الحائط ، أو اومى ، أو اكتسب ملاحظة أو اتحدث بالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية •

ومن المهم أن نؤكد أن مفهوم التعبير أوسع من مفهوم اللغة ، فاللغة بأكملها تعبير ، ولكن ليس كل تعبير لغة ، وهذه نقطة هامة فما يتعلق بتحديد دائرة الدراسات الانسانية في ضوء التعبيرات • فالتعبيرات غير اللغوية كتغيرات الوجه ، والايماة التلقائية ، والأفعال المقصودة هي كلها تعبيرات تمنح الدراسات الانسانية شواهد تدل على حالات عقلية ، وهي مادة مماثلة تماما للمادة التي تقدمها لنا اللغة وهي تتضح بصفة خاصة حين نركز على الوظيفة التعبيرية للغة ، اذ أن هذه الوظيفة — وليست وظيفة الاحالة — هي الملائمة في هذا الصدد لأنها تحدد اتجاه الاهتمام في الدراسات الانسانية • والمثال قد يوضح الفكرة اكثر ، فالانجليز كما نعلم يتحدثون عن الطقس • اما ما يشير اليه هذا الحديث — كالقول بأن الطقس ممطر خلال شهر يوليو مثلا — فلا ينطوي على أهمية عند دارس المسائل الانسانية ، لكن التعبير ذاته وما ينطوي عليه من اهتمام بالطقس وامتثال لبعض الاصطلاحات هي بالتأكيد جوانب من موضوعه • وبعبارة أخرى تشير اللغة الى أشياء كثيرة لا تشكل جميعا اهتماما مشتركا في الدراسات الانسانية • أما ان الكائنات الانسانية تعبر عن أفكارها وتهدف الى الاتصال بعضها ببعض ، فذلك يشكل اهتماما وموضوعا هو لب الدراسات الانسانية •

## ٢ - تصنيف التعبيرات •

ان كافة التعبيرات تكشف عن محتوى عقلي ، وبعضها يحيل الى هذا المحتوى • ولما كانت هناك أنماط مختلفة للتعبير ، فان الفهم أيضا يختلف

باختلاف هذه الانماط ، وسوف يمكننا تصنيف التعبيرات من الكشف عن مدى اختلاف أنماط الفهم والصور التي يتخذها • وعلينا أن نعتمد على مبادئ مختلفة للتصنيف لكي نقسم ميدان التعبيرات • ولقد أشرنا بسرعة الى التصنيفات الممكنة حينما ذكرنا التفرقة بين التعبيرات النظرية والتعبيرات التي تقوم بوظائف أخرى ، وقد لاحظنا أن بعض التعبيرات هي تعبيرات اصطلاحية • وكل مبدأ من مبادئ التعبير يصور جانباً خاصاً ينطوي على أهمية بالنسبة للمداخل المستخدمة في مختلف العلوم •

دعنا نبدأ بتصنيف التعبيرات الى تعبيرات اصطلاحية وتعبيرات طبيعية ، ان كافة التعبيرات اللغوية ، بل ان لكل التعبيرات التي تعد جزءاً من اللغة بالمعنى السابق كالرموز الرياضية ، الاشارات الموسيقية • • الخ هي تعبيرات اصطلاحية ، كذلك الاشارات الأخرى مثل اشارات المرور والعلامات المميزة هي تعبيرات اصطلاحية حتى وان كان من الصعب اعتبارها جزءاً من النسق اللغوي • فالإيماءات لا تفهم الا في ضوء الاصطلاحات ، واسلوب التحية الانجليزي قد يبدو سخيفاً في نظر الألمان ، كما أن القبلية التي نطبعها على جبين شخص ما قد تعبر للفرنسي عن صداقة متواضعة ، بينما يعتبرها الانجليزي علامة على انعدام القدرة على ضبط النفس أو الحماس الزائد •

وهناك من ناحية أخرى تعبيرات طبيعية نفهمها لأننا على انفة بالمشاعر والأفكار والمقاصد التي تصاحب بعض المظاهر الفيزيائية ، كالصيحة التي تعبر عن الألم والرغبة • ومثل هذه التعبيرات الطبيعية قد تلعب بالضبط نفس الدور الذي تلعبه التعبيرات الاصطلاحية في عملية الاتصال • فأننا أستطيع أن أعبر عن حبي بقصيدة ، كما أستطيع تقديم باقة من الزهور الحمراء ، تماماً كما أكشف عن حبي بإبتسامة ونظرة

حاملة . كما أن عامل الإشارة المختص بسير القطارات يحاول أن يستوقف  
القطار مستخدماً إشارة متفق عليها ، أما إذا سقطت منه الإشارة ، فإنه  
يحاول أن يستوقف القطار بحركة يديه ، وسيفهم السائق الماهر هذه  
الحركة بوضوح تماماً كما يفهم الضوء الأحمر .

إن التمييز بين ما هو طبيعي وما هو اصطلاحي ليس تمييزاً  
حاداً دائماً ، لأن بعض الاصطلاحات نستوعبها منذ الطفولة المبكرة من  
البيئة ومن ثم تصبح تعبيرات طبيعية، وأحياناً لا تعرف العنصر الاصطلاحي  
فيما يبدو أنه تعبير طبيعي ، فالبكاء مثلاً هو تعبير طبيعي عن الألم أو  
الحزن ، وأحياناً عن الفرح ، ونحن قد لا نستطيع في هذه الحالة أن  
تضبط مشاعرنا ، ولكن الاصطلاحات تمنعنا من التماهي فيها . فخلال  
فترات تاريخية معينة ، في عصر هو ميروس مثلاً كان الناس يعبرون عن  
عواطفهم بسيل منهمر من الدموع ، أما أصحاب المدرسة الانجليزية فهم  
لا يوافقون على ذلك مطلقاً ، فأقارب الميت حينما يجدون أنفسهم لا  
يستطيعون البكاء غالباً ما يشعرون بالذنب لأنهم لم يكشفوا عن عواطفهم  
الحقيقية ، بينما قد يبكي الآخرون بكاء المناسبات . والحالات المتطرفة  
واضحة هنا فمن ناحية لدينا صرخة الألم المفاجئة ، ومن ناحية أخرى  
لدينا الصورة الرسمية ، وهكذا يتشابه العنصران الطبيعي والاصطلاحي  
للتعبير ، ويتعين استخلاص كل منهما بالبحث الدقيق .

على أننا قد نصنف التعبيرات أيضاً على أساس كونها وسيلة  
للاتصال أم لا ، وهذا يتخطى التصنيف السابق ، ذلك لأن الضوء الأحمر،  
وحركة يدي عامل الإشارات تهدف إلى توصيل شيء ما . إن كل التعبيرات  
اللغوية ، وكل العلامات الاصطلاحية هي وسائل للاتصال ، وينطبق ذلك  
أيضاً حتى في حالات الكذب والخداع بالنسبة للأفكار المسجلة في



يوميات سرية ، ففي الحالة الأولى يتمثل القصد في توصيل معلومات خاطئة ، وفي الحالة الثانية يكون القصد متصلا بصورة المرء في المستقبل . والكثير من التعبيرات الطبيعية ، من جهة أخرى ، قد يكشف عن محتوى عقلي ، فاحمرار الوجه ، والضحكة المكتومة ، والحركة السريعة هي حالات ممثلة في هذا الصدد .

ومع ذلك ، فإن التعبيرات قد تكون أكثر تعقيدا ، حينما تكشف التعبيرات اللغوية أو الاصطلاحية عن شيء لا يكون القصد منه هو الاتصال . فقد القى محاضرة عامة في جمعية من الجمعيات النسائية الحالية ، وتكون كل كلمة وكل عبارة وكل حركة تصدر عني هادفة الى توصيل نسق من الافكار ، ومع ذلك فقد تكشف هذه التعبيرات في الوقت ذاته ، وبدون ارادتي عن تعيز غير منطقي عندي ضد المرأة .

ولتوضيح ذلك أكثر سوف اقيم تفرقة بين نمطين للتعبير لا يهدفان الى توصيل أي شيء . فتعبير مثل احمرار الوجه خجلا ، قد لا يهدف الى توصيل أي شيء لأنه ليس فعلا مقصودا لكنه لا يهدف الى الاتصال ( أو قد لا يهدف الى توصيل ما قد ينطوي عليه التعبير ) . فاذا كنت اسير على أطراف أصابعي الى أعلى ممسكا حذائي بيدي فذلك بالطبع فعل مقصود طالما أنني لم أحاكي أو أقلد أحدا ، وأنا لا أهدف منه الى التعبير عن أي شيء ، لكنه سيبدو للملاحظ تعبيرا عن السرقة والرغبة في اخفائها .

أما التصنيف الثالث فهو يعبر عن تفرقة واضحة ولكنها غير هامة ، ولقد سبق ان عرضناها عرضا سريعا عند معالجة التعبيرات ، اذ هناك فارق بين التغير المفاجيء السريع الذي يطرأ على سلوك شخص ما في لحظة زمنية معينة - مثل التعبير عن الغضب الذي يمر سريعا على وجه

شخص ما - ومن التعبيرات الأخرى الثابتة نسبيا والناجئة عن نشاط محدد يهدف الى التعبير عن شيء ما \* وليست هناك نتيجة نهائية في هذا الصدد ، فاذا قطبت جيبني فلن يبقى شيء بعد أن يعود الجيبين الى حالته الطبيعية \* أما اذا عبرت عن رأيي في رسالة الى صديق ، فان هذا تعبير عن احساس يمكن أن يظل قائما ، وبالتالي نستطيع الاحالة اليه \* فالكتاب قد يعبر عن وجهة نظر شخص ما ، ومن ثم يعد تعبيرا فلسفيا ، والمراكز الاجتماعية ، والصور ، والروايات ، والمقالات العلمية هي تعبيرات من هذا النوع \* وطالما ان كافة الافعال تعد تعبيرات ، فان نتائج هذه الافعال أيا كان نوعها هي أيضا تعبيرات دائمة ، فالكاتدرائية ، والحديقة المزينة ، والقانون أو الدستور هي بهذا المعنى تعبيرات دائمة ، ومن ثم كانت قابلة للفهم ، تلك جميعا أمور هامة حينما نحدد نطاق الدراسات الانسانية \*

وثمة مبدأ رابع للتصنيف تنضنه المناقشات السابقة ، وهو واضح تماما لا يحتاج منا سوى الى اشارة عابرة \* فقد يكون التعبير بسيطا نسبيا ( كالكلمة ، والايماءة ، والعض على النواجز ) ، وقد يكون مركبا ( مثل قصيدة الشعر ، أو قنابح سلسلة من الأفعال ، أو المقال ) \* وهكذا فاننا قد نصف بناءا مركبا من تعبيرات عديدة من وجهة نظر معينة ولهدف خاص - نصفه كتعبير وحيد \*

وأخيرا ، قد نصنف التعبيرات على أساس التفرقة بين التعبير والاحالة \* فقد نجتمع في فئة واحدة كافة التعبيرات ذات الاحالة ، باعتبار الاحالة وظيفتها الرئيسية ، فاشارة المرور التي تكشف عن وجود منحني في الطريق هي تعبير من هذا النوع ، وكذلك العبارة التي تقول « هناك كرسي مريح في حجرة الرسم » ، ومحاضر الجلسات ، وكتب التاريخ

الطبيعي ، والكتب التي ترشد البحث العلمي كلها تنتمي الى هذه الفئة •

والفئة الثانية تتضمن كافة التعبيرات التي ليست لها وظيفة أخرى سوى وظيفة التعبير فقط ، رغم أنها أيضا تشير الى شيء ما ، فالنفخ وتجفيف جبين المرء ، هو تعبير من هذا النوع ، والابتسامات والدموع ، والبهجة واللعة ، والشعر الهجائي والغنائي هي أمثلة مميزة لتعبيرات من هذا النوع •

والفئة الثالثة تشمل الأفعال التي تحقق غاية أخرى غير الاتصال ، ومن ثم فهي تعبر عن هدف أو اتجاه • فالقائد العسكري يقود فرقته كي يكسب المعركة ، كما يستخدم النجار أدواته في صنع المنضدة ، واللص يتحرك بطريقة مريبة لكي يختلس الهروب • في كل حالة من هذه الحالات يفصح القصد عن نفسه في الفعل ، وهو قابل للفهم اذا ما توافرت بعض الشروط •

### ٣ - المضامين المنهجية لتصنيف التعبيرات •

من الواضح أن التصنيف السابق متداخل ، ويمكن أن يستخدم في تمييز كافة جوانب التعبير بصورة أوضح • فقد يكون التعبير بسيطا أو طبيعيا ، أو عابرا ، أو غير مقصود أو نظري وثمة تعبيرات أخرى قد تكون مركبة ، أو اصطلاحية ، أو دائمة ، أو مقصودة ، أو تشير الى واقعة محددة ، ويحدث ذلك من خلال كافة التركيبات الممكنة • والهدف الرئيسي من هذا التصنيف هدف مزدوج ، فهو يحدد نطاق مصطلح التعبير كما نستخدمه في هذا الكتاب بعد تحديد كافة الصور التي يتخذها ، كما أنه قد يوجه أيضا المدخل المنهجي • والخاصية المميزة لكل

نمط من أنماط التعبير تطرح مشكلات متباينة ، وتتطلب مناهج بحث مختلفة ، غير أن البحوث التي تتناول كل أنماط التعبير يكمل بعضها بعضا .

ان التعبيرات الطبيعية عادة ما تكون تعبيرات جزئية ، غير منظمة ، وغير محددة وفادرة نسبيًا ، ومن العسير غالبا أن نحدد مدى اصالتها، وحتى بالنسبة للابتسامات والدموع قد تكون كما رأينا تعبيرات اصطلاحية . ومع ذلك فهي بالغة الأهمية بوصفها دلائل أساسية حينما لا يوجد اعتقاد عام يجعل الاتصال العادي ممكنا . فالغريب في مجتمع لا يفهم لغة سكانه ، كما قد يعتمد الاثربولوجي الذي يصل الى قبيلة بدائية على الابتسامات والايماءات ، وهو يستطيع أن يفهم نظرة الخوف وحالة الشبع ، ثم يتلمس طريقه رويدا رويدا في لغة غريبة عليه ، وربما تكون هذه هي نفس الطريقة التي يتعلم بها الاطفال اللغة .

والتعبيرات غير المقصودة قد تكون مقتضبة وغامضة ، اذ لا يستطيع سوى أبطال القصص البوليسية تشخيص نظرة الرعب . وفي الممارسة يصعب علينا أن نحدد هل احمرار الوجه يعبر عن احساس بالسعادة أم الارتباك . غير أن مثل هذه التعبيرات ضرورية للفهم ، انها تمكننا من التغلب على الخداع ، ومن اليسير أن نكذب في الكلمات لكن ليس يسيرا أن تتجنب رعشة يديك . تلك تعبيرات ، تكشف لك عن شيء ما بالنسبة أن تتجنب رعشة يديك . تلك تعبيرات ، تكشف لك عن شيء ما بالنسبة لشخص قد يجد نفسه عاجزا عن التعبير اللغوي لأنه ببساطة لا يعرف على وجه الدقة ما يريد التعبير عنه . فحينما نصادف شخصا قلقا غير مستقر نقول له « انك غير سعيد في عملك » وتكون اجابته : حقا انني لم أدرك ذلك الا بعد أن أشرت لي .

ومن الاسهامات الكبرى لفرويد معالجة للقلق والاحلام وهفوات اللسان وأخطاء الذاكرة والسلوك القهري بوصفها تعبيرات تكشف شيئا عن المنطقة اللاشعورية من العقل ، ولقد أقام مناهجه على هذا الأساس •  
 وادرك كثير من الاجتماعيين أهمية هذا الاتجاه ، فهناك تحذيرات عديدة من مسح الرأي العام الساذجة ، وبحوث السوق التي لا يدرك فيها الباحث مدى الخداع الذي يلون استجابات المبحوثين لأسئلة الاستبيان أو اجاباتهم على أسئلة المقابلات •

ان دراسة الأفعال السريعة العابرة والتعبيرات ، لها جوانبها الايجابية وجوانبها السلبية • فنحن نواجه التأثير المباشر لشخص ما ، اننا لا نسمع فقط الكلمات ونبرات الصوت ، ولكننا نلمح تعبير الوجه • ان كلامنا قد استشعر عدم الجرأة على أن يكتب في رسالة ما قد لا يتردد في قوله شخصيا ، كما أننا لا نجرؤ ان نقول عبر التليفون ما يمكن أن نتحدث به مواجهة خوفا من سوء الفهم • ففي المواجهة المباشرة استطع أن أوضح أنني أمزح ، لكن كلماتي حين تكتب على الورق أو تذكر عبر التليفون قد تأخذ على أنها سباب •

ومع ذلك ، فهناك صعوبات كبيرة فيما يتعلق باستخدام تلك التعبيرات السريعة ، فحينما ينتهي التعبير لا أستطيع التأكد من قدرتي على تخفيف حدة الكلمات ؟ وواضح هنا أنه ليست هناك وسيلة للتحقق من ذلك • والباحث أيضا لا يستطيع دائما أن يكون ماثلا في الموقف • فحينما يهرب الناس من الانفجار ، لا يحب الباحث أن يتواجد بآلة التصوير في الموقع ، وانما يعتمد على ما سجله شاهدوا العيان ، وعلى خطاباتهم؛ ووثائقهم الشخصية ، والتقارير الرسمية ، وربما على جمع تعليقاتهم •

وهكذا بدأت تظهر بعض فوائد التعبيرات الدائمة ، كما اتضحت

أيضا المشكلات المترتبة عليها ، فالتعبيرات قد تكون قديمة ومجردة ، وقد تقتطع من السياق الذي يلقي مزيدا من الضوء عليها ، ومن مهمة أخرى يمكن ادراكها وفحصها ودراستها ومناقشتها من جديد .

وعلىنا الآن ان نوضح كيف نقارن بين التعبيرات في ضوء مدى قدرتها على الايضاح حينما نصنفها كمعلومات واقعية ، وكأفعال وتعبيرات نظرية .

ان الاتصال في المعلومات الموضوعية يتم عن طريق أشياء مثل اشارات المرور ، والصحف ، والجداول الإحصائية والكتب وغيرها ، وحينما نتعرف على الاصطلاحات يكون الاتصال سهلا ومحددا . ويمكننا التحقق من تلك المعلومات اما عن طريق الاحالة الى الوقائع أو المقارنة بين التصنيفات . وهذا النوع من المعلومات هام في الدراسات الانسانية ، اذ لو أردنا فهم الناس علينا أن نعرف الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه ، وما قد يعرفوه ، أو يعتقدون أنهم يعرفونه عن هذا الموقف .

ومع ذلك ، فان الركائز الهائل من التعبير عن المعلومات الواقعية لا يسلمنا سوى الى القليل من الاستبصار في دراسة الشؤون الانسانية . فالكثير منها يتعلق بظواهر مثل حالة المرور ، وصلابة المعادن ، والمناخ ، والزراعة ، والملكية الحيوانية ، ومن ثم فهي قليلة الأهمية بالنسبة للدراسات الانسانية اذا لم تعبر هي الأخرى عن شيء له دلالة عند المؤلف . وهذا النمط من التعبير غالبا ما ينطوي على قدر محدود من الاحالة الى ظواهر انسانية . فالعبارة الواقعية تحمل نفس المعنى ، لكن طريقة نطقها ومحتواها قد تلقي بعض الضوء على الكاتب . والكتاب الذي يدرس حياة الحشرات لا يحدثنا عن مؤلفه الا في أضيق نطاق ، انه يدلنا فقط على أنه مهتم بالحشرات ، كما قد نعرف أيضا انه دقيق وذكي وليس اكثر من ذلك .

والامر مختلف تماما بصدد التعبيرات النظرية التي تكشف عن طبيعة المؤلف • كما أن بعض نماذج التعبير قد تكون خادعة – راجع التصنيف السابق الذي ميزنا فيه بين مختلف انماط التعبير – • فقد يتظاهر الناس بالأسف أو التعاطف ، وقد يتسمون ولسكنهم يكسبون الشر ، وقد تمثل دموعهم دموع التماسيح ، وفي هذه الحالة علينا أن نعتمد على تعبيرات أخرى لكي نستخلص الحقيقة • وإذا استطعنا التعرف على أن التعبير الذاتي غير مقصود تخلصنا من فكرة الخداع ، كما يمكننا أيضا الاعتماد على التعبيرات الفنية الأصيلة ، فهي لا تحقق أي غرض عملي يواجهنا في حياتنا اليومية ، انها تنبع عن الرغبة الشخصية في التعبير عن الذات والفكر والمشاعر •

ويهتم المؤرخون وعلماء الاجتماع وعلماء النفس والاشربولوجيون اهتماما خاصا بالأفعال • والأفعال ليست مجرد حركات جسمية ، انها مفعمة بالأهداف ، وموجهة بالفكر ، ومستندة الى تفسير الواقع • وهي تكشف بدورها عن هذه الأهداف والأفكار والتفسيرات • والأفعال تذكر لنا أشياء أكثر مما تذكره لنا الكلمات ، ومن ثم فنحن نصنفها كتعبيرات برغم أنها قد لا تكون مقصودة هي الأخرى ، فحينما نلاحظ شخصا يرفع فأسه نفهم أنه يقصد انتزاع شجرة ، لكن الموقف عنده ينطوي على معنى محدد ، فقد تحجب الشجرة عنه الرؤية ، أو قد يسعى الى بيعها •

ويحتاج فهم الأفعال – كما هو شأن النماذج الأخرى للتعبير – الى تكامل منهجي يحقق المطالب الاستمولوجية التي أشرنا اليها في الفصل السابق • ففهم الملامح الرئيسية للطبيعة البشرية ، ومعرفة الاصطلاحات والتقاليد التي تحدد صورة الفعل وتعين سياقه ، مسائل هامة لتحليل الأفعال تحليلا مشمرا •

والمطلب الأخير له أهمية خاصة في حالة الأفعال ، لأنها محددة وموجهة نحو المواقف بدرجة لا تتحقق في التعبيرات الأخرى . فقائد المعركة الحربية تحكمه طبيعة الأرض ، والقوى السائدة ، ومبلغ قوة العدو . وهذا بدوره يحدد لنا الأفعال التي يمكن أن تدلنا على طبيعة القائمين بها ، فالرواية تكشف عن جوانب عديدة من شخصية مؤلفها ومزاجه ، وعزله ، وإحساسه بالمخاطرة ، اذ هي تمنحه فرصة حرية التعبير عن ذاته . لكن الأفعال لا تكشف سوى عن القدرات الانسانية الملائمة لموقف ما ، فقد يكون القائد جريئاً ومخاطراً ، لكن الموقف لا يسمح له سوى بفعل دفاعي . فاذا أردنا أن نفهمه بغض النظر عن المعركة التي يخوضها ، علينا أن نتخلى سلوكه العسكري ، فندرس رسائله وتاريخه الشخصي ، ومحادثاته المسجلة ، وما يحلم به ، وما يجب أن يفعله ، فتلك أمور هامة تعادل في أهميتها أهمية أفعاله .

وفضلاً عن ذلك لا تكشف الأفعال عن الدوافع التي تحركها مثلما تكشف عن المقاصد . فرؤية شخص يرفع رأسه تعلمنا أنه يريد أن يسقط الشجرة . لكننا يمكن أن نستنتج أيضاً معاني أخرى في هذا الموقف كأن يكون مثلاً قد فهم أن إزالة هذه الشجرة سوف تترتب عليها مجموعة من النتائج ( قد يبدو هذا المثال بسيطاً ، لكن ذلك راجع الى أن الموقف مألوف لدينا ) . ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نقف على كل دوافعه في هذا الموقف . هل هو يقطع الشجرة لأنها تحجب عنه الرؤية ؟ أم يريد من ذلك ان يقنع زوجته بمبلغ قوته ؟ أم انه يريد ازعاج جيرانه ومضايقتهم ؟ وهل هو يريد ان يجعل الرياح تمر دون عائق ؟ لكي نجيب على هذه التساؤلات علينا أن نفحص مختلف الشواهد ، كتعبيرات وجهه، وتصرفاته التلقائية . وقد يكون فهم المقاصد كافياً بالنسبة لكثير من البحوث ، الا أنه في بعض الحالات يتعين علينا أن ندخل الى مجال



الدوافع • غير أن ذلك ليس أمرا ضروريا دائما ، والا كان مصيرنا هو الوقوع في الشك والريبة، ذلك أن الدافع الحقيقي خفي دائما عند الفاعل نفسه ، فكيف يتأكد الباحث من اكتشافه ؟

هكذا ، يواجه الباحث في الدراسات الانسانية بطائفة متنوعة من التعبيرات ، وكل نمط منها له مشكلاته الخاصة ، ويفتح آفاقا محددة للبحث ، اذ أن كلا منها يكشف عن جوانب خاصة للمواقف ذات المعنى، وكذلك فإن فهم مختلف نماذج التعبير يعبر عن عمليات يعتمد بعضها على بعض ، ويكمل بعضها بعضا •



## الفصل السادس

### الفهم والمنهج العلمي

- ١ - المنهج العلمي في الدراسات الانسانية .
- ٢ - وقائع الدراسات الانسانية .
- ٣ - العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية ( العلل والاسباب ) .
- ٤ - الموضوعية والذاتية .



## ١ - المنهج العلمي في الدراسات الانسانية .

علم المناهج هو العلم الذي يدرس المناهج التي نكتسب المعرفة من خلالها ، بينما الابستمولوجيا فهي تلك التي تدرس الشروط الرئيسية اللازمة للحصول على المعرفة . . . ويعالج علم المناهج العمليات المعرفية التي تفرض على البحث مشاكل تنبعث من طبيعة موضوعاته . أما المنهج فهو تجمع نسقي من عمليات معرفية ترتبط بتقنيات نوعية أو بإجراءات خاصة .

ان عمليات مثل التصنيف والتصور والتجريد والحكم والملاحظة والتجربة والتعميم والاستقراء والاستنباط وغيرها عمليات معرفية ، والفهم أيضا يمكن أن نضعه ضمن ذلك التصنيف لأن الفهم ليس منهجا . ويجب أن نذكر هنا أنه لا واحد من تلك العمليات يتصف بأنه له موضوع واحد ينطبق عليه أو بمعنى آخر ليس ثمة تطبيق خاص وبحث لأي عملية من تلك العمليات ، انها جميعا تستخدم في التوجيه العملي لكافة الدراسات والعلوم ، رغم أن لكل منها حدودها الخاصة التي لا تتخطاها ، وعلى سبيل المثال فالتجربة قد تكون مستحيلة في علم الفلك ، كما أن الفهم يجب أن يكون محددا بإطار السياق الانساني . لقد تمت مناقشة معظم هذه العمليات في الكتب المنطقية ، ولكننا يجب أن نقول شيئا عن الفهم اذ يبدو أن هذه الكتب لم تذكر الكثير عنه ، وفي هذا الصدد يجب أن نشير الى أن التأكيد على دور الفهم لا يتضمن أن ليس ثمة أدوار للعمليات الأخرى في مناهج الدراسات الانسانية ، فليس هناك من يدعو بشكل جدي الى تعضيد مثل هذا الرأي الذي يمكن تفنيده ودحضه بسهولة كبيرة . ففي حقل الدراسات الانسانية يلاحظ الاثربولوجيون ويصنفون ، ويجرب علماء النفس ويعممون ، ويتصور المؤرخون ويستنبطون .

أما التقنيات فهي إجراءات خاصة تتوافق مع فحص المشاكل الجزئية، وترتكز غالبا على بعض الاقتراحات المنهجية : فالتداعي الحر المستخدم في علم النفس هو تكنيك ، كما أنه يرتكز على افتراضات تتعلق بما يكشفه . وبعض التقنيات تكون بالغة التخصص وبعضها يكون متوافقا مع عدة أبحاث وأغراض . وعلى الرغم من أن هذه التقنيات تكون جزءا من المنهج ، فافها انما تحكم حين استخدامها بالاعتبارات المنهجية ، بل وقد تفتح في بعض الأحيان المجال أمام امكانيات منهجية جديدة .

ولقد ناقشنا في الفصل السابق طبيعة إحدى العمليات المعرفية وأقصد بها الفهم ، وذهبنا في هذا الصدد الى أن الفهم يرتبط بالدراسات الانسانية على وجه خاص ، الا أنه ينبغي حين النظر في منهج أو مناهج الدراسات الانسانية أن ننظر أيضا في كيفية قيام العلاقة بين الفهم وبين سائر العمليات الأخرى .

ولما كان الفكر الانساني منتظما بطرق متفاوتة ، ومطبعا على دوائر كثيرة ومتنوعة ، فيجب أن تكون هناك مناهج مختلفة ينبغي أن نميزها عن بعضها البعض ، فالتأمل الفلسفي يتضمن تركيبات متميزة من العمليات الفكرية ، أي يتضمن منهجا خاصا في البحث ، ونفس الشيء ينطبق على التأمل الأخلاقي ، وعلى التقدير الجمالي . وبالطبع فان مثل هذه المناهج ليست هي المناهج المستخدمة في دائرة العلوم الطبيعية ، التي تستخدم بدورها مناهج أخرى تمكن العالم من الحصول على معرفة نسقية دقيقة بالوقائع الموضوعية . من أجل ذلك نحن نقول أن كلا من العلم والدراسات الانسانية يستخدم المنهج العلمي ، لكن النسق العلمي يختلف عن نسق الدراسات الانسانية فقط فيما يتناولانه ، فيتناول الأول الوقائع الموضوعية ، وكيف الثاني المنهج لبض المتطلبات أو

المسائل الخاصة • وها هنا يقع الاختلاف بين العلوم وبين الدراسات الانسانية •

ان ماهية المنهج العلمي تتمثل في تلك العلاقة الحميمة والنسقية والقائمة بين التنظير والخبرة • وغالبا ما تستخدم الملاحظة والتجربة تقنيات دقيقة ، تمكنهما من امداد التعميمات والفروض العلمية بالمواد اللازمة لهما ، لكن هذه التعميمات وتلك الفروض تصبح بعد ذلك عرضة للاختبار أي عرضة للتحقق من صدقهما أو كذبهما ، فاذا ثبت التعميم أو الفرض العلمي أمام الاختبار أصبح قانونا علميا ، واذا كان الأمر عكس ذلك بحثنا عن تعميمات أخرى أو فروض علمية أخرى ، هذا ونحن نتأكد من صحة التعميمات أو الفروض بملاحظات وتجارب أخرى • ان هذا الوصف المبسط للمنهج العلمي في اطار العلوم الطبيعية مثالا يكفينا هنا طبقا لأغراض هذا البحث • وبالتالي فليس من الضروري أن ندخل في مناقشات تجري الآن حول الأهمية النسبية لكل خطوة من خطوات المنهج التجريبي، وحول النظام الذي تحدث وفقه ، أو يجب أن تحدث وفقه •

ان القول بأن الدراسات الانسانية تستخدم المنهج العلمي كما حددناه ، هو قول لا جدال فيه، فنحن لا نجد أمامنا أي رأي حول الطبيعة المحددة للدراسات الانسانية يتناقض مع هذا القول • لكن يحدث أحيانا أننا نبقى كلمة « علمي » للبحث المرتكز على القياس والتحكيم الفيزيقيين، فاذا حدث هذا ، أمكن لنا أن نصف الدراسات الانسانية بأنها « لا علمية » • لكن مثل هذا الرأي الأخير يمثل تصورا تعسفيا وضيقا لطبيعة المنهج العلمي ، بحيث اذا استطعنا أن نحدد ذلك المنهج تحديدا أوسع وأكثر شمولية ، فأننا سوف نلمس ان باستطاعتنا استخدام المنهج العلمي في حقل الدراسات الانسانية استخداما كبيرا • واذا تم ذلك

فسوف نجد في صميم الدراسات الانسانية توضيحات غزيرة للدالة التي تم جمعها بدقة ، وتعميمات لتجارب ماهرة وذكية ، وصياغات لاطارات تم وضعها بعناية ، واختبارات تتحقق من صدق الفروض أو كذبها •

وبعد أن شيدنا المنهج العام للدراسات الانسانية تشبيدا يتصف بأنه علمي ، فإن علينا أن نبث في دور الفهم خلال هذا المنهج • لقد أكدنا سابقا على أن العملية المعرفية أو العملية العقلية ، التي هي الفهم ، ليست منهجا ، وهي من ثم ليست بديلا للمنهج العلمي ، لكن التحليل العميق يرينا بوضوح ان هذا لا يمثل الا نصف الحقيقة ، وها هنا ندرك صعوبة اقامة تمييز حاسم ، ذلك لأن العمليات العقلية يتضمن بعضها البعض الآخر ، فالتصنيف يتضمن التجريد وغيره من عمليات عقلية أخرى بحيث يبدو الأمر على أن التصنيف تجمع من العمليات ( التي هي جزء من تعريف المنهج ) وبحيث يصبح التمييز بين العملية العقلية وبين المنهج راجعا الى الاختلاف بينهما في درجة النسقية ليس الا • أن ما ينطبق على العلم التجريبي هنا ينطبق أيضا على الفهم ، فحينما نفكر على سبيل المثال في حالة فهمنا لقصيدة شعرية فائنا ندرك مباشرة أن ثمة تجمعا كبيرا من العمليات العقلية تتشارك في فهمنا هذا ، أو بمعنى آخر ، نرى عمليات عقلية كثيرة متضمنة في ذلك الفهم •

لكن هذا الأمر ليس دقيقا تماما ، ذلك لأن الفهم لا يمكن معالجته باعتباره عملية عقلية واحدة لها مكانها المحدد الذي لا تتعداه بالنسبة الى العمليات الأخرى وبالنسبة الى المنهج المتبع في الدراسات الانسانية • ان الفهم ليس شيئا نلجأ اليه في مرحلة معينة محددة من مراحل البحث • ان القول بأننا نبدأ بجمع المادة ثم نمارس الفهم ( أي فهم المادة ) ثم نصيغ الفروض ونضعها لاختبار يبين صحتها أو كذبها ثم نصل الى القانون



فالنظرية هو قول لا دليل عليه • كما أن الرأي القائل بأن الفهم لا يشكل  
الاحيلة أو وسيلة تستخدم في صياغة الفروض التي يجب أن تخضع  
لاختبار له اجراءات لا تمت للفهم بصلة هو رأي مرفوض • ان الفهم  
متضمن في كل العمليات العقلية المستخدمة في حقل الدراسات الانسانية،  
انه يحور العمليات أو يعدلها ، وهو بهذه السمات يميز مناهج الدراسات  
الانسانية عن مناهج العلوم •

ويمكن أن نوضح ما ذكرناه في الفقرة السابقة توضيحا أكبر بذكر  
مثال نستقيه من حياتنا اليومية العادية حيث يعمل الفهم فيها بطريقة مألوفة  
لدينا ، لكننا - وكما سيتضح من هذا المثال سنلمس أن دور الفهم في  
حياتنا اليومية يتطابق تماما مع دوره في البحث العلمي • وهاكم المثال :  
إذا سألتني صديق بأن أراه بعض الوقت ، فكيف أتمكن من أن أعرف  
أنه قد وجه لي الدعوة لزيارته ؟ قد يمكنني معرفة ذلك عن طريق فهم  
كلماته ونواياه معا، ولكن لكي أكون قادرا على فهم ذلك فيجب أن تكون  
لدى معرفة باللغة التي تحدث بها ، وبما توافق عليه الناس في مجتمعنا ،  
وبملاح شخصية الصديق ، ومثل هذه المعارف تتضمن فهما - لكن  
لفرض أن الشك قد تسرب الى نفسي ، وأحسست لحظة بأن كلماته  
ونواياه يمكن ألا تعني أنه يدعوني الى زيارته فماذا أفعل ؟ ها هنا يمكن  
لي أن أقوم باختبار فهمي ، أي أن أتحقق من صحة أو كذب فرضي ،  
وهذا لا يمكن أن يتم الا باستخدام أفعال فهم أكثر ، فإذا اعتقدت بأنني  
أسأت فهم كلماته فيمكنني أن أسأله إعادة دعوته أو إعادة صياغة كلماته  
حتى أفهمها • وإذا شككت في نواياه أو مقاصده فأنني أستطيع أن أذهب  
الى منزله وأرى تعبيراته المفاجئة • وأن أحكم حينئذ بما إذا كان سعيدا  
بلقياي أو غير سعيد •

هذا المثال يتضمن عمليات مختلفة ، اذ يجب علي وفقه أن ألاحظ

التعبيرات وأصنفها ، وأن أصيغ الفروض واختبرها ، وإن اتحقق بالتجربة من صحة الفروض أو كذبها • والفهم متضمن في كل تلك العمليات • انني لا أستطيع أن أفكر في أية وقائع موضوعية تؤيد أو تهدم نتائجي وتكون غير متضمنة للفهم •

ومثل هذا ينطبق على اجراءات Procedures الدراسات الانسانية • ويمكننا القول بأن الوقائع التي تؤلف موضوع بحث ما ، اذا ما أردنا أن نتحقق من صحتها تجريبيا ، فاننا سنجدها وهي متضمنة للفهم ، وحينما ننحت المعماري قبرا أو يقيم بناء فانه يجب أن يتحقق من بعض الوقائع الصعبة : فيقيس الاشكال والأحجام ويحصي اكتشافاته، ومع ذلك فهو في خلال هذا الوقت كله يحتفظ بمقياس الفهم أي يحتفظ بالوعي بأنه يعالج شيئا يخدم الأهداف الانسانية • ان خطواته المثالية لا تقوم الا بتصحيح وتعميق فهمه فقط • كما أن المؤرخ الذي تكون مصادره المادية بعض الخطابات ، وبعض أوصاف شاهد عيان، والسجلات الادارية، والوثائق الشرعية يجب أن يكون الفهم حاضرا لديه باستمرار • كما أن السيكولوجي لا يراقب الموضوعات فقط ، أو يستمع الى الأصوات وحسب ، انه يستمع لما يقوله الناس له ، ويدرس أفعالهم القصدية ، ويراقب استجاباتهم لاختباراتهم • وحينما يلاحظ عالم الاثربولوجيا الرقص الشعائري فانه لا يرى مجرد حركات راقصة وحسب، بل انه يدرك أفعالا ذات معنى بحيث اذا تتجت نفس الحركات السابقة من فوبة صرع فانه لا يهتم بها •

ان كل هؤلاء العلماء يبدأون الفهم حين يبدأون الملاحظة ، وحينما يتابعون خطوات أخرى غير خطوة الملاحظة هذه ، فان الفهم يكون متضمنا أيضا في تلك الخطوات ، فتصنيف المقابر ، وايجاد علاقة بين

الوثائق وبين حوادث معينة ، والرقص المعبر عن الطقوس أو المؤدي الى الخصب والانماء ، والاستجابات السيكلوجية واعتبارها أعراض عصبية أو غير عصبية ، كلها تتضمن عملية الفهم •

ان صياغة الفروض المرتكز على الاستدلال من تلك الوقائع ذاتها يمثل مغامرة جديدة لفهم لم تكتمل صورته تماما أي لم تتحقق بعد من صحته أو كذبه • فترتيب المقابر يفترض الاعتقاد ببعث الأجساد ، والرقص الشعائري تعبير عن الخوف من قوى تفوق الطبيعة، والمرض العصبي ينتج عن احباطات جنسية • هذه أنماط من الفروض التي يمكن ان تتوصل اليها والتي يمكن أن تخضع للاختبار، واختبارها أي التحقق من صحتها أو كذبها يعتمد على أدلة وبراهين أكثر ، لكن هذه الأدلة أو تلك البراهين يجب أن تكون مستقاة من نفس النوع الذي بزغ عنه الفرض أساسا •

سأذكر الآن — بدلا من هذه التوضيحات التي تشير الى خطة — مثلا منبعثا من ابحاث واقعية سوف أعود اليه مرارا لتحقيق عدة أغراض ، والمثال مقتطف من كتاب يسمى «الشخصية التسلطية» The Authoritarian Personality • ويدور هذا البحث حول فكرة التعصب العنصري Racial Prejudice وبالطبع فلا بد من أن يكون لدينا فهم أولي بما يعنيه الباحث بالتعصب العنصري ، ومن أجل هذا نجدد يحدد معناه قبل أن يقدم على بحثه حتى نكون على دراية — بادىء ذي بدء — بالمتعصبين عنصريا • أما الخطوة الثانية فتتمثل في ايجاد أمثلة على هذا التعصب من خلال التراث الجاري ، وذلك من أجل استخدامهما في تصميم استبيانات • ان الاجابات على هذه الاستبيانات و نتائج المقابلات والاختبارات الأخرى تمدنا بمادة ذات معنى • وهذه الأيرة هي التي نفهمها • انا حينئذ فقط تتمكن من تقييم النتائج احصائيا • لكن لتتوقف هنا عند الفهم قليلا ،

ان دوره الآن أصبح يتمثل في ادراك لماذا كانت اجابات بعض الاسئلة قادرة بصورة أفضل من الأخرى على تمييز ما هو متعصب عنصريا عن ما هو ليس بذلك ، وأي الأسئلة كان أقدر من الأخرى على توضيح هذا التمييز . والنتائج التي تتوصل اليها الدراسة هي أيضا موضوع فهم لأنها تتبلور في قضية تقرر بأن التعصب العنصري تعبير عن بنيان شخصي معين .

ومن ثم يتضح لنا أن المنهج العلمي المستخدم في الدراسة الانسانية يتضمن الفهم على كل مستوى ، ان الوقائع التي قد تكتشف يجب أن تفهم الى مدى محدد في البداية ولكن التقدم في البحث يعمق الفهم ويصححه .

## ٢ - وقائع الدراسات الانسانية .

لما كان الفهم متضمنا على هذا النحو الذي ذكرناه في كل العمليات، لذا فيجب أن تتطلب الواقعة الموضوعية معنى محددا في الدراسات الانسانية . نحن عادة ما نعتقد بأن الوقائع الموضوعية كالحوادث الفيزيائية وما يماثلها من حالات هي وقائع يمكن أن تلاحظ بالحواس ، ويتثبت الآخرون منها عن طريق الحواس أيضا . لذا فأننا حينما نقول بأن وقائع الدراسات الانسانية لا تنكشف لنا قط الا عن طريق الفهم ، فأننا انما ننكر مثل تلك الوقائع أمام حواسنا . لكن الحقيقة هي أننا نرى شيئا ، ومع ذلك فهذا الذي نراه ليس موضوع بحثنا في الدراسات الانسانية ، بمعنى أنه ليس واقعة من وقائع تلك الدراسات : نحن نرى حفرة في الأرض ، ولكننا لا نرى مكافا معدا لجسد ينتظر أن يبعث بعد الموت ، ونحن نرى رجلا بدائيا يهز أطرافه ، ولكننا لا نرى فعل التكفير

الشعائري عن ذنب ما • ونحن نرى علامات على الورقة ، ولكننا لا نرى رسالة تنم عن ذكاء ، وبعد فهذه أمثلة على وقائع الدراسات الانسانية : « بعض القدماء يعتقدون بالبعث بعد الموت » و « طموح رجل السياسة » و « تخاف القبائل من غضب الأرواح » • بمعنى آخر ، تتمثل وقائع الدراسات الانسانية في الأفكار والمشاعر والنوايا ، وهي تلك التي يعبر عنها الناس بأفعال فيزيقية • ان هذه الوقائع تتميز دائما بكونها ذاتية، لأنها تكون على الدوام أحوالا للذات •• اننا نبحث هنا عن ما يشعر به الانسان ، وكيف يخبر موقفه ، وكيف يرى العالم • ( لا تعني الذات هنا بالضرورة شخصا فرديا ، بل يمكن أن تشير الى مجموعة من الناس • اذ يمكننا أن نتحدث عن الذات باعتبارها مشيرة الى مشاعر الاسرة أو اتجاه نقابة ) •

ان فهمنا لتعبيرات تلك الأحوال الذاتية يجعل وقائعنا المعطاة قصيدة لا مجرد علامات على ورقة ، وعبادة لا مجرد حركات • ويمكننا أن نكرر فعل الفهم ، وأن نقارنه بفهم ملاحظين آخرين ، ومن ثم فان أحوالا مثل X يجب Y أو Z ينظر الى العالم بمنظار أسود تحتل موضع الوقائع الموضوعية ، ومع ذلك فيجب أن نتذكر دائما أن كل واقعة موضوعية من هذا النوع تحتفظ بالحالة الذاتية التي تختلف تماما عن الواقعة الموضوعية حسب مجرى الحديث العادي • ومن أجل الاختصار سوف أطلق على هذه الوقائع الموضوعية اسم الوقائع العقلية •

ونظرا لأهمية تلك الفكرة فسوف أعيد صياغتها بكلمات جديدة • اذا أردنا معالجة تفسير الواقع ، فلن نجد أمامنا الا الوقائع وطبيعتها ، لكن هذا التفسير كثيرا ما يشير الى وقائع ذات نظام آخر تكون خارج دائرة الدراسات الانسانية • ومن ثم فانه على الرغم من أن الواقعة

الموضوعية تتمثل في الدراسات الانسانية طبقا لوقائعها ووفقا لطبيعة هذه الوقائع ، فان هناك دائما - حين نفسرها - تطلع نحو عدم الالتزام بهذه الوقائع وحدها واللجوء الى وقائع من دائرة أخرى قد تخرج عن دائرة الدراسات الانسانية ذاتها. فثمة واقعة موضوعية تهتم بها الدراسات الانسانية وهي واقعة اعتقاد الـاس بوجود اله ، وتأثير هذا الاعتقاد على أفعالهم . لكن تفسير هذا قد لا يرتبط بهذا وحده ، ويقودنا نحو السؤال « هل الله موجود أو غير موجود » ، ان الاجابة على السؤال الأخير تندرج في دائرة غير تلك التي ننظر فيها . ومن هنا يجب علينا أن نميز بين الاعتقاد وبين صحته ، كما نميز بين الاعتقاد بكون قرن الحيوان وحيد القرن مثيرا جنسيا وبين صحة هذا الاعتقاد .

هناك علاقة واضحة بين هذه الأنماط من الوقائع المرتبطة بالدراسات الانسانية ، الا أننا يجب أن نعلم بأن الاعتقاد هو حكم مسبق قد بخطيء فيه الفرد أو يضل أو يخدع أو يكون غارقا في الخيال ، وهذه تتضح بجلاء حين مقارنتها بالوقائع الفيزيكية . ومع ذلك فيجب أن تؤكد على هذا التمييز لأن الأحوال الذاتية (فيما يتعلق بوقائع الدراسات الانسانية) تكون واقعية سواء أكانت مرتكزة على سوء فهم أو غير ذلك . ويمكن أن يتضح هذا في سياق أو آخر ، وسنضرب على ذلك مثالين : فحينما طور فرويد مناهجه في الرجوع الى ذكريات الطفولة عند المرضى العصبيين، وجد نفسه يواجه بطائفة هائلة من الظواهر مثل الزنا بالمحارم والاعتصاب الجنسي ، لقد صدم أول الأمر بظواهر الفسق والفساد الشائعة بين أفراد الطبقات الوسطى في فينا ، لكنه أدرك مؤخرا انه انما يعالج خيالات ولا يعالج أحداثا تقع بالفعل . ان هذا الخطأ قد حدث لأن الخيالات هنا قد تم ادراكها وكأنها ذكريات لحوادث واقعية فعلية . انها تلعب نفس

الدور في الحياة العقلية للفرد كما لو أنها كانت قد حدثت بالفعل .. انها ذاتية ولكنها فعلية .. انها خبرات تنتج أعراضا عقلية سواء أكانت تلك الخبرات مرتكزة على وقائع أم لا .. ان علاج مثل هذه الاعراض لا يتأثر في قليل أو كثير بما اذا كانت تلك الخبرات قد نتجت عن تجارب واقعية أو فعلية أو كانت محض خيال . بل اننا كثيرا ما نرى أن الخيال قد ينتج عنه ما هو أقوى من الحقيقة وأعمق أثرا من الواقع ، فالاعتصاب الجنسي أو الواقعي قد يحدث دون أن يترك انطباعات عاطفية عميقة ، وفي هذه الحالة يكون أقل واقعية وتأثيرا في العقل الانساني من الاعتصاب الجنسي الذي صورته الخيال . ان المثال السابق يركز بقوة على مذهب التحليل النفسي لكن ينبغي أن نعطي مثالا مشابها آخر وان كان مستمدا من حياتنا اليومية ، هذه طفلة صغيرة عليها أن تخرج لمهمة أثناء الليل ، وتوهمت أنها رأت قردا وحشيا يمد يديه نحوها ، فأتخذت لها ركنا ، وأخذت في الصراخ ، وصدمت صدمة كبيرة ، لكنها تحققت بعد لحظة من أن ما رآته ليس الا ظلالة لشجرة، وأن هذه الظلال ليست موضوعا للخوف . لكن ورغم هذا من الممكن أن تستمر معاناتها من تلك الصدمة « عن رؤية قرد وحشي » .

هناك أفكار مألوفة في الدراسات الانسانية كال فقر والحرمان والشراء وعضوية الطبقة والجريمة ، وهي ان كانت جميعا لها سمة أنها يمكن التحقق منها موضوعيا الا أنها في نفس الوقت ذات جذور ذاتية . وحينما نحدد الفقر والشراء في ضوء غياب وحضور سلع معينة أو أشياء محددة ، وحينما نحدد الجريمة بأنها انتهاك لبعض القوانين ، أو حينما نحدد المهنة أو آداب السلوك ، فانا نكون في الواقع في حالة معالجة للتفسيرات التي صنعها عصر معين ومجتمع محدد . ومع ذلك فلقد لاحظ السوسيولوجيون اننا حينما نقرب عن كتب من البحث الواقعي فانا نجد هذه الأفكار

وقد فسرت بتفسيرات عديدة ومتنوعة من قبل الأفراد والجماعات الفرعية، فتصبح من ثمة ذات طبيعة ذاتية بأقصى ما تحمله كلمة ذاتية من معاني . لنذكر الآن مثالا يقر بنا من هذه الفكرة : ان السيدة / سميت تقطن في منزل نظيف شبه مستقل ، وتمتلك مديعا ، ومعطفا شتويا ثقيلا ، وتتناول وجبات منتظمة . ان حالتها من ثم تعتبر حالة من حالات الثراء بالنسبة الى الملايين من الآسيويين والأفارقة ، وهي تعتبر في حالة رخاء بالنسبة الى جيرونها ومواطنيها . لكن بسبب أنها لم تستطع ارتداء ثياب من أحدث طراز ، وانها لم تتمكن من ارسال ابنتها الى مدرسة داخلية ، وأنها وجدت أن من الصعب عليها ماليا أن تقتني تليفزيونا ، فانها تعتقد في نفسها أنها فقيرة وأنها تعاني من الفقر مثل الآخرين . وهناك أيضا أفاس آخرون ربما كانوا أحسن منها حالا ، الا أنهم يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم فقراء . ضف الى ذلك أن انسانا ما يمكن أن يعتقد بأنه أحسن حالا من غيره لأنه يكسب أكثر قليلا من انسان آخر يؤدي نفس العمل الذي يؤديه وذلك رغم أنه يعلم تماما بأن دخله ، زهيد نادر بالنسبة الى متوسط الدخل القومي وأنه يمثل جزءا قليلا جدا مما يكسبه الآخرون .

ان الوقائع التي أشرت اليها هي وقائع بسيطة ومألوفة بحيث يصعب على أي واحد ألا يلاحظها . لكننا يجب أن نشير هنا الى أن التفسيرات الاجتماعية كثيرا ما تتعرض للخطأ حين تفشل في تمييز تقديرات الناس بواسطة معيار نظري محدد عن التقديرات الذاتية للأفراد ، فاذا نظرنا مثلا الى عضوية الطبقة في مجتمعنا فيمكن أن نختار مجموعة من المعايير مثل عمق التعليم ، ومستوى الدخل ، وما شابه ذلك ، ثم نقوم بتمييز الناس طبقا لهذه المعايير ، ويمكن أيضا أن نستخدم تحديد المرء بنفسه لوضعه في طبقة أو أخرى كمعيار ، ولكننا ينبغي ألا نندهش اذا وجدنا أن



النتائج جد متفاوتة ، ووجدنا مثلاً امرأة سوداء تنتمي الى مجموعة محدودى الدخل ، وتعتبر نفسها عضواً في الطبقة المتوسطة .

ونفس الأمر ينطبق أيضاً على السلوك الاجرامي ، اذ أن الانتهاكات المختلفة للقانون انما يتم تقييمها بصور مختلفة تماماً عند كل من فئات المجتمع . ويحتاج المرء هنا فقط أن يفكر في جرائم المرور والتهرب من أداء ضريبة الدخل، حيث تأخذ هذه تقييمات تتفاوت بتفاوت أفراد المجتمع وفئاته . لقد روى وايت Whyte هذه الحكاية : أعطيت لمجموعة من نزلاء السجون استبياناً يتضمن هذا السؤال : « هل حدثت بينكم وبين رجال البوليس أية متاعب ؟ » ولدهشتي فلقد أجاب عدد غفير منهم على هذا السؤال بالنفي . وحينئذ وجهت لهم السؤال التالي : « كيف أتيتم اذن الى السجن اذا لم تكن هناك ثمة متاعب قد قامت بينكم وبين رجال البوليس ؟ » وتمثلت الاجابة في دهشتهم من عدم انتباههم لمثل هذه المتاعب ، أو ربما اعتقدوا أن هذه ليست متاعب على الإطلاق اذ كانت الاجابة بالحرف الواحد « لقد اعتقدنا أنك تقصد متاعب » . ان هذه القضية يجب أن تكون موضع اهتمام كبير من كل مصمم ومستخدم للاستبيان .

### ٣ - العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية ( العلل والاسباب ) .

سننتقل هنا من النظر في طبيعة الوقائع الى النظر في العلاقات القائمة بينها . ان الطريقة التي تبعث فيها الوقائع العقلية وقائع أخرى ، أو تؤدي اليها ، أو تغيرها ، لها أهمية خاصة في مجال الدراسات الانسانية ، ومن ثم فيجب أن نناقشها هنا بشيء من الاسهاب . وقبل أن نقوم بذلك علينا أن ننظر باختصار في العلاقات القائمة بين الوقائع

الفيزيائية وبين الوقائع العقلية . اننا نستخدم الوقائع الفيزيائية لكي نعبر بها عن أفكارنا ، ولكي ننفذ بها مقاصدنا ( فنحن نعبر عن أفكارنا بكلمات مدونة على أوراق ، وتحدث بواسطة تحريك لساننا ) كما أننا تتأثر بالوقائع الفيزيائية عن وعي بوجودها ( كما نخاف من رؤية الدب ) ، وتتكون لدينا أفكار ومشاعر تجاهها . لا تحتاج الدراسات الانسانية في بعض الأحوال الى الاهتمام بطبيعة الوقائع الفيزيائية ، وفي بعضها الآخر تحتاج اليها : في الحالة الأولى يمكن أن نفهم أفكار انسان ما بدون أن نهتم بلون الحبر الذي استخدمه ، أو بكيفية تحريكه للسانه كي يعبر عنها ، أننا نستطيع أيضا أن نفهم قلقه بدون أن نحاول البحث عما يقلقه ، كما نستطيع أن نبحث عن الخوف الانساني لفرد ما دون أن نعرف على سبيل اليقين ما اذا كان قد رأى دبا أم لا . وفي الحالة الثانية تكون الوقائع الفيزيائية ماثلة أمامنا ، أو تفرض وجودها علينا حتى ننظر في طبيعتها ، فطريقة تنفيذ الفكرة في تمثال مثالا تتأثر بمدى صلابة الحجارة ، وما يعبر به الشخص في قالب لغوي عن أفكاره قد يتأثر بما يعوقه ( عيب في اللسان مثالا ، أو عيب في اليد ، أو القلم ) . ان التمييز بين الرؤية الخيالية لدب وبين الرؤية الواقعية له يكون له مغزى كبيرا فيما يتعلق بالفهم . وطبقا لتعريفنا فان بحث الوقائع الفيزيائية يقع خارج دائرة البحث في الدراسات الانسانية ، لكن النتائج التي يتوصل اليها المتخصصون بدءا من تلك الوقائع الفيزيائية هي ما تمثل نقطة الاهتمام في الدراسات الانسانية .

وحينما نعالج العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية ، فيجب أن ننظر في العلاقة التي تقوم فوق كل هذه العلاقات ، وأعني بها تلك التي تعادل الارتباطات العلية في المجال الفيزيقي . ان الواقعة العقلية التي تؤدي الى ظهور واقعة أخرى سوف نطلق عليها هنا مصطلح «السبب» ( وذلك لكي

يبقى مصطلح « العلة » للوقائع الفيزيكية التي قد تنتج وقائع فيزيكية (أو عقلية) • ومن أجل الوضوح فسوف أقيم تمييزا حاسما بين هذين المصطلحين على الرغم من أننا نستخدمهما في لغتنا العادية وكأن لا تمييز بينهما • ومن هذا المنطلق تكون الضوضاء علة اهتمامي بها • وحينما يؤدي الاهتمام بالضوضاء الى أن أغلق أذني ، فأنني اسمي ذلك أو أعده سببا لا علة •

ان الأسباب بهذا المعنى تمثل دائرة الاهتمام الخاصة بالدراسات الانسانية ، وكل معاني المصطلح « سبب » توضح أنماطا مختلفة • من الوقائع العقلية التي تؤدي الى المشاعر والأفكار والأفعال • في بعض الأحيان يكون السبب ممثلا في الوعي أو الاهتمام بالموقف الخارجي • وفي بعضها الآخر يثير انفعالا أو شعورا ( حينما نخاف أو نثار على سبيل المثال ) • ان السبب هو هدف أو غرض أو قصد أو غاية أو نهاية ، اما في ذاته ، واما باعتباره وسيلة لأغراض وأهداف أخرى • ونحن نهتم بهذا النوع من السبب حين نقول : « سأحصل على عطلة كي استعيد صحتي » ، أو حين نقول « سأخذ هذا القطار لأنه الوحيد الموصل الى برمنجهام في الوقت الذي يناسبني » •

ان محاولة تفسير كل أنواع الحوادث في ضوء الأهداف أو الغايات ( أي في ضوء « العلة الغائية » كما يخلو للبعض أن يسميها بذلك ) لها تاريخ طويل يمتد من أفلاطون وأرسطو الى ما بعدهما ، الا أنه بنمو الروح العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر رفض الناس فكرة امكان تفسير الأشياء في ضوء الغايات • ويمكن للمرء أن يفكر هنا وعلى سبيل المثال في مناقشته اسبينوزا العميقة حول هذه النقطة كما جاءت في تعقيبه على الجزء الأول من كتابه « الأخلاق » ، ففي هذا

الموضع بالذات وفي مواضع متفرقة أخرى يعبر اسبينوزا عن الروح العلمية الجديدة هذه ، بحيث نجد في صلب أو في أساس تلك الحركة العلمية فكرة عالم آلي يعمل وفقا للقوانين العلية والرياضية . لقد أدت هذه الفكرة الى انقسامات كبيرة بين المفكرين سواء على مستوى النتائج النظرية أو على المستوى العملي التطبيقي . ان مفكرين من أمثال اسبينوزا وهوبز كانوا تواقين الى تطبيق تلك المبادئ التفسيرية وتوسيعها بحيث تشمل الانسان نفسه ، وكانت أسباب ذلك واضحة لديهم تماما . لقد كانوا يحاربون الغموض القاتم المحصن وراء فكرة الغيرية الشاملة للعقل الانساني ، كانوا يحاربون غيبيات الفكر ، ويحاولون فك طلاسمه وأسراره ، كانوا يهاجمون فكرة « أيادي الروح » باعتبارها تأملا سريا للصورة الالهية التي تستمد منبعها من الله . ان هذه المعركة التي حاربت فيها القرون الطوال انتهت الآن بانتصار العقلية العلمية ، اللهم الا القليل النادر من المعارك الذي لا يزال يدور الجدل حولها ولكن بطريقة هينة غير قاسية . ومع ذلك فبينما استوعب مفكر مثل اسبينوزا وبدقة واقع الموقف الانساني ، وملاءمة الاهداف والتقييمات لهذا الواقع ، فان محاولة الوضعين في التوحيد بين المناهج العلمية كانت محاولة متطرفة ومبالغ فيها .

ويمكن للعلوم الطبيعية أن تتخلص من فكرة الغائية هذه ، وبالفعل فانها قد قامت بذلك على نطاق واسع . حقا لقد بقيت فكرة الغائية بصورة غامضة في علم البيولوجيا ، فأفكار مثل الغريزة والتطور استمرت في تواجدها بصورة غامضة في البيولوجيا ، وبدأت كما لو أنها تعني شيئا مثل غاية أو غرض الطبيعة . ومع أنني لا أعتقد بأن الأصوات العالية لباحثي العلوم الفيزيائية والتي تنادي بالتخلص من فكرة الغائية قد أثرت في الممارسة الفعلية أو التطبيق الفعلي للبيولوجي فان هناك في الواقع

اتجاهها نحو حذف أو استبعاد تصورات مثل « الغريزة » التي مثلت فجوة في نظرية المعرفة . وعلى العكس من ذلك تماما فإن فكرة الغائية تمثل فكرة لازمة ولا غنى عنها في حقل الدراسات الانسانية . طبعا نحن نتسكن من تفسير جزء من السلوك الانساني في ضوء مصطلحات عليا طالما أن الانطباعات تؤثر في خلايا المخ، وخلايا المخ تؤثر في الأعصاب، والأعصاب تؤدي الى تحرك العضلات ، وحركة العضلات تؤدي الى أن تزاوّل المطرقة عملها ، والمطرقة تؤدي الى ولوج المسمار في الحائط . هذا أمر ممكن في ضوء العلية ، ولكنه مع ذلك ليس وصفا كاملا ، انه وصف ناقص يغفل نقطة محورية حاسمة ، وهي أننا كائنات نحتاج الى أن نفهم ، وفي هذه الحالة لا نجد صعوبة في أن نفهم بأن انسانا ما يستخدم المطرقة في تثبيت مسمار في حائط كي يضع عليه صورة .

هناك طائفة أخرى من الأسباب تتكون من تشييد قواعد عامة سواء أكانت تلك القواعد قواعد لغة أو قوانين داخلية محلية . نحن نجد أنفسنا هنا أمام تمييز حاسم وواضح بين العلوم الفيزيائية وبين الدراسات الانسانية . اذ بينما تعكس قوانين العلوم الفيزيائية الانتظامات الموجودة بين الاشياء على النحو الذي توجد عليه في الطبيعة كقانون الجاذبية مثلا فهو يعكس الواقع ولكنه لا يجعل الأحجار تسقط الى أسفل - نقول اذ بينما تعكس قوانين العلوم الفيزيائية هذا - نجد قوانين الدراسات الانسانية وهي متطابقة مع القواعد التي صنعها الانسان ، ان المبادئ الأخلاقية التي تعكس تقييماتنا والتي يتم في ضوءها صنع القرارات هي أيضا قواعد من هذا النوع . « حينئذ نقول » سأذهب لكي أدلي بصوتي الانتخابي لأن هذا من واجبي كمواطن » و « X » لا يؤيد الاعداء لأنه يعتقد

بقدرسية الحياة الانسانية ، فان مثل هذه الأسباب تكشف عن اهتمام الدراسات الانسانية بالقيم والمبادئ والمعايير على عكس العلوم الفيزيائية .

ان التمييز الذي أقمناء بين العلل والأسباب يلقي ضوءا على مشكلة الحرية ، والواقع ان مشكلة حرية الانسان أو عدم حريته قد مثلت مشكلة فلسفية معقدة ثار الجدل العنيف حولها خلال العصور ، ولن تتمكن هنا من عرضها عرضا تفصيليا ، وانما سنكتفي بتناولها من زاوية تخدم موضوعنا . ومع أننا نصر على أن الانسان يفعل طبقا لأسباب ، أي أنه يكون محددا بمسئل وبواعث وغايات ومبادئ تعطي معنى أو مغزى كبيرا لفكرة الحرية ، فأننا نفكر في ضوء العلل ، وتخيّل أنفسنا بأننا محتمون بفسولوجيا الجسم . وبتأثير يئتنا الفيزيائية علينا فان الحرية هنا لا يكون لها أي معنى . وعلى عكس ذلك فاذا تحدثنا عن أناس يفعلون طبقا لأسباب ويتبعون الغايات ويلتزمون بالمبادئ فأننا نتحدث عن أناس أحرار . ان قبول الأسباب يتضمن الاختيار ، ومن ثم فأننا نتقل من قرار الى قرار بدلا من أن نكون خاضعين لسلسلة من العلل والمعلومات . أن الحرية بهذا المعنى تصبح واحدة من المعلومات المميزة للعالم الانساني ، كما أن التأكيد بأن الأفعال تنتج من فعل الاختيار الحر لا يغلّق أبواب المسألة . نحن لا نتحدث هنا عن الأفعال التي لا مبرر لها ، ولكننا نتحدث عن الأفعال المحددة بأسباب . ان تبني سببا دون سبب آخر انما ينبع من خاصية الفرد المختارة ، ان فكرة أناس يفعلون طبقا لخواصهم أي طبقا لما يكونون عليه لا تتناقض مع الحرية .

ويجب أن يكون واضحا أن الأسباب كما شرحتها هنا تمثل ارتباطات يمكن فهمها هي الأخرى ومن ثم ندرك أننا يمكن أن نتقل من الفهم بالمرحل الأولى الى الفهم بالمرحل المركبة . من فهم الوقائع البسيطة

نسبها الى فهم الوقائع المركبة . وحينما نستمر في بحثنا عن الأسباب فأننا نصل الى الغايات والقواعد التي تتمكن من خلالها من فهم مجتمعنا كله .

### ٤ الموضوعية والذاتية .

يجب أن نوجه نظرا الآن الى تلك المشكلة الخاصة ، والتي نجمت عن تحديدنا للوقائع وما يقوم بينها من ارتباطات . لقد ذكرنا أن الوقائع كلها ذاتية بمعنى أنها تكون أحوالا لعقل انسان ما ، أو طريقة خاصة للنظر في الأشياء ، أو تفسير ذاتي . وينطبق ذلك أيضا على الأسباب ، انها دائما أسباب شخص ما ، ان سبب غضبك مثلا قد لا يكون هو نفس سبب غضبي . لكننا ذكرنا أيضا أننا يمكن أن نعالج الوقائع وارتباطاتها باعتبارها موضوعية كما يؤكد ذلك ملاحظون مستقلون . فبواسطة ميل الأفعال المختلفة للفهم الى الالتقاء في نقطة واحدة أو الى التقارب فأننا قد نجد أن X يكون غضبانا لأنه لم ينل الترقية المناسبة، وأن القبيلة تقيم طقوس التكفير لأنها تخاف غضب الله . لكن الأفعال المختلفة للفهم ذاتية بطبيعتها في نظرها الى الأشياء وفي تفسيراتها . أين إذن تكون موضوعيتنا ؟

نحن نعالج دائما تفسير شخص ما لتفسير شخص آخر . لكن هل يمكن أن نحذف تصورات الباحث وأفكاره وآرائه ونظرياته وتقييماته الأخلاقية من أجل تحقيق الموضوعية ؟ لقد أنكرت دوائر كثيرة امكان حدوث هذا انكارا قويا . فالماركسية وهي مألوفة لدينا رأت أن نظريات المادة الاجتماعية عبارة عن اهتمامات طبقة معينة . كما ذهب برلين I. Berlin الى نفس هذا الرأي حين قرر في كتابه « ما لا يمكن تجنبه تاريخيا » أن « ليس ثمة كمية أو مقدار للبناء Historical inevitability

لذاتي الواعي أو للطمس الذاتي يمكن أن تستبعد أو أن تحذف رواسب الحكم الأخلاقي ، تلك التي تصنع اختيارنا للمادة التاريخية ، بل تكون جزءا من تلك المادة ، وتصنع وتكون جزءا من تأكيدنا على أن بعض الحوادث والأفراد يكونون أهم وأكثر اثارة أو متميزين عن سائر الحوادث والأفراد العاديين بصورة أكبر من غيرهم » ثم تساءل بعد ذلك « أليس ذلك واضحا جدا ؟ » أليست المقولات الأخلاقية الواضحة كأفكار الخير والشر والصواب والخطأ كما تنضح في تقييمنا للمجتمع والأفراد والخواص والأفعال السياسية ، وحالات العقل ، تكون مختلفة كلياً ومن حيث المبدأ عن مقولات القيم اللا أخلاقية والتي لا غنى عنها مثل ( مهم ) و ( بسيط ) و ( مغزي ) الى آخره ؟ وعلى الرغم من أن برلين ذهب الى أن هذه « الأهمية » يمكن أن تؤسس تجريبيا في ضوء المدى الذي يؤثر به الفعل أو الفرد في أشياء أخرى ، الا أن المسألة أصبحت غامضة عنده حينما اقترح امكان تطبيق نفس الحالة على الأحكام الأخلاقية .

ويبدو لي أنه اذا قُتل شخص ما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وقتل آخر سائق شاحنة ، فإن الأول سوف يؤثر بفعلته تلك على حياة أفراد عديدين ، ومن ثم تحقق فعلا له أهمية أكبر من فعل الآخر . لكن ومع ذلك ، فاذا كان الدافع الى القتل واحدا - كأن يكون الانتقام مثلا - فإن درجة الفساد الأخلاقي في الحالتين تكون واحدة أيضا . ويجب أن يكون واضحا أن مسألة الاختيار وفق الأهمية تمييز عن مسألة التقييم الأخلاقي .

لننظر أولا في مسألة تقرير ما هو « الأهم » والذي يجعل الأفراد يختارون موادهم وفقه . لقد تباينت وجهات النظر في تناول هذه المسألة، ذلك لأننا نستطيع أن نميز بين الاختيارات الذاتية وبين القرارات التي



تدعي الموضوعية : فقد أفضل الاقتصاد على التاريخ السياسي ، وقد أوجه انتباهي نحو تاريخ غطاء الرأس لأن ذلك له أهمية عندي \* . انني أختار ما أدرسه لأسباب قد تكون شخصية تماما دون اعتبار للأهمية الجوهرية لموضوع الدراسة ، ان الموضوع الذي أختار دراسته قد يكون تافها ولكنه قد يؤثر في مهنتي ولا يكون له تأثير على منحتي الدراسية \* . ان مسألة الموضوعية تطبق فقط على الطريقة التي أنفذ بها عملي واضعا في اعتباري الأدلة المتاحة \* . ولكن وعلى العكس من ذلك اذا ادعيت بأن التاريخ الاقتصادي هو أكثر أهمية موضوعيا من التاريخ السياسي ، فان هذا التأكيد يمكن أن يؤخذ بعدة معان ، وكل معنى منها يتضمن معايير مختلفة لتحقيق صدقها الموضوعي \* .

وقد أعني بذلك أن تحليل كل أو معظم المواقف التاريخية ترينا أن العوامل الاقتصادية لها نتائج أكثر من العوامل السياسية ، والدليل على أن الاقتصاد يثير استجابات انسانية أكثر من السياسة هو ما أدى الى قرار اختياري له \* . وهذا يتوافق مع المعيار الذي وضعه الأستاذ برلين عن الأهمية \* .

وقد أعني بذلك أيضا أن الناس في كل العصور ، أو على الأقل في عصري هذا ، فسروا بأنفسهم مواقفهم بمصطلحات اقتصادية أكثر منها سياسية \* . ان تعبيرات هؤلاء الناس وأفعالهم وكتاباتهم تمدني بالدليل على ذلك \* . ان هذه الحالة تتميز عن الحالة الأولى في أنني هنا أسترد التفسيرات من الناس بينما كنت هناك (في الحالة الأولى) أفسر الارتباطات وحسب \* .

وأخيرا فأنني قد أعني بذلك أن المعاصرين لي ، ومجموعة الباحثين

من أصدقائي يتفقون معي على أهمية هذا السياق الجزئي أو ذاك ، أو أنهم يشاركوني الاهتمام به • انه سياق مهم يسبب ظروفنا التاريخية • ان أفعال وكتابة هؤلاء المعاصرين تشهد بالطبع بهذه النتيجة •

نحن نعالج في كل هذه الحالات الأحوال الذاتية في مرحلة معينة أو أخرى ، ان عدم قدرة الدراسات الانسانية على التخلي عن الذاتية بمعانيها المختلفة تمثل ميزة تتميز بها هذه الدراسات عن غيرها من العلوم الطبيعية • ومع ذلك فانا نستطيع أن نتحدث عن الموضوعية في مجال الدراسات الانسانية ، لكن الحديث عن الموضوعية هنا يتخذ له معنى خاصا يختلف عن مثيله في العلوم الطبيعية ، اذ الموضوعية تشير في مجال الدراسات الانسانية الى قدرتنا على ايجاد علاقة تربط نتيجة كل حالة فردية بهيكل كلي من الأدلة يكون في نهاية الأمر معرفة ذاتية أو أنساقا ذاتية تتمكن بها من استبعاد الذاتية الفردية التي قد تفسد جزءا من البحث العلمي ، ان الوقائع التي يعالجها عالم التاريخ أو عالم الاجتماع هي تلك التي أسميناها بالتفسيرات ، وتتمثل الموضوعية في ترك أمثال هؤلاء العلماء يتحدثون بأنفسهم وفق النتيجة التي تنتهي اليها أبحاثهم لا وفق ميولهم وأهوائهم • ولنضرب على ذلك المثال التالي : افرض أنني طبقت استيانا على مائة فرد ، وحرصت على أن تكون اسئلتي واضحة ومتقنة ، وخلصت بعد ذلك الى النتيجة التالية وهي أن « شرب البيرة يمثل أهمية لهم جميعا » ان هذه النتيجة تعتبر نتيجة موضوعية يمكن أن أتأكد من صحتها بعدة طرق ، لكن افرض انني أفا الذي أجريت البحث « أمقت شرب البيرة » واعتبر شربها لا يمثل أهمية بالنسبة الى الحياة الانسانية، واحتفظت مع ذلك بالنتيجة الى توصل اليها الاستبيان ، ولم أصبغ تلك

النتيجة برأيي الشخصي فأنني أكون هنا ملتزما بأكبر درجات الالتزام بالموضوعية • وبنفس النتيجة يتصف بصفة الموضوعية ذلك المؤرخ الملحد الذي يدرس كتابات العصر الماضي والذي يصل الى نتيجة مؤداها أن الدين مهم في فهم ذلك العصر •

I. Berlin لكن ماذا عن التقييمات الأخلاقية ؟ لقد اعتبرها برلين كجزء ملازم لتأملنا في الحقل الانساني نضم اليه أحكامنا الأخلاقية ، تلك التي تعتبر بعض الناس خيرين والبعض الآخر أشرارا ، والتي تحكم على بعض الأفعال بأنها كريهة وعلى بعضها الآخر بأنه يستحق الفخر • وعلى الرغم من صحة رأي برلين هنا ، وعلى الرغم من أننا دائما ما نكون متضمنين بصورة لا يمكن تحاشيها في الاختيارات والأحكام الأخلاقية ، فلا يجب أن يتبع هذا أن ذلك يصنع بالضرورة أحكامنا العقلية • ان على الدائرة الأخلاقية أن تحدد بدقة ، أو أن تحاط بخطوط تفصلها تماما عن الدوائر الأخرى ، وهذه الدائرة الأخلاقية يمكن تحديدها في ضوء الاختيارات والأحكام الأخلاقية التي يمكن أن يقوم بها الشخص ، وخارج تلك الدائرة يصبح الحديث عن الاختيارات والأحكام الأخلاقية من قبيل النفاق أو الأفعال التي لا مبرر لها • ولما كانت الأخلاق لا تمثل موضوعي الرئيسي ، خصوصا وأنها تتعرض لنوع من الجدل الطويل ، لا أقف على تفاصيله ، فأنني سأضع الأمر هنا بصورة قطعية دجماطيقية معتقدا بأنها تتفق مع الرأي النقدي لهذه النقطة •

لست محتاجا لأن أقول بأن دائرة الفعل لا يجب أن تحدد بحيث تصبح ضيقة جدا ، فالأمر لا يتعلق فقط بالفعل وبمبادرة الفعل وحسب في توافقه مع بعض المبادئ فثمة أمور أخرى تدخل معه في تلك الدائرة •

إذا مدحت هنا الأشكال التاريخية الماضية مدحا أخلاقيا فإني انما أبعث في نفسي وفي نفوس الآخرين روح المنافسة . وإذا حكمت على الآخرين فإني أؤثر بذلك الحكم على أفعالهم أو أؤثر على أفعال أولئك الذين يقلدونهم أو يتدخلون معهم بصورة أو أخرى . ان الأحكام الأخلاقية هنا تكون ملائمة ، لكنني كباحث في الدراسات الانسانية يجب أن أجعل ذاتي مستقلة عن دائرة الفعل ، وأجعل فهمي أو وصفي غير محتاج لما يجعله مقتبرا للانضباط والدقة . بمعنى أنني أجعل نفسي خارج دائرة البحث ، فلا أصدر حكما أخلاقيا ولا أقيم فعلا . ولكي نميز بين هذين الموقفين ، أي بين موقف يكون الباحث فيه داخل دائرة البحث ويصبغه بأحكام أخلاقية وبين موقف يكون الباحث فيه خارج تلك الدائرة تقدم المثال التالي : افرض أننا تناول الآن هتلر بالدراسة ، فإن من المناسب أن ندينه أخلاقيا أو نهاجم أفعاله وتصرفاته ، ونصدر حكما أخلاقيا عليه يقرر اتهامه أو اداته ، اذا كنا نريد تحذير الناس من تقليده أو التعاطف مع موقفه . هذا صحيح اذا كنا في نطاق الموقف الأول ، لكن افرض انني مؤرخ أقوم بتاريخ حياة هتلر ، ألا يضيف ذلك شيئا من عندي ، حينما أرفق اداته الاخلاقية بوصفي لأفعاله ؟ انني يجب هنا أن أقف الموقف الثاني واكتفي بوصف أفعاله دون أن أصدر عليه حكما أخلاقيا .

لكن المؤرخ هو قبل كل شيء انسان مثله في ذلك مثل عالم الاجتماع ، وهو باعتباره انسانا لا يمكنه أن يتحاشى رغبته في استخدام أبحاثه من أجل التحذير من الشر ، والدعوة الى تبني كل ما يكون قريبا من قلبه . وهذا ينطبق على المؤرخ وغيره ، فنحن كديمقراطيين نكون شغوفين ببيان أن التاريخ يكشف عن شرور الطغيان ، ونحن كمحافظين نكون بحاجة الى بيان أن النتائج الأخلاقية الغير مرغوب فيها تنتج عن الطفرات الراديكالية المفاجئة .

طبعا أنه لمن الصحيح بالنسبة لأي انسان ، وهذا يتضمن المؤرخ بطبيعة الحال ، أن يعبر عن اعتقاداتنا الأخلاقية . لكننا - رغم ذلك - نحتاج أيضا الى عدم صبغ ابحاثنا باعتقاداتنا الأخلاقية ، بل ويجب أن يكون الأمر كذلك . اذا استطاع المؤرخ أن يجعل اعتقاداته واضحة فهذا لكي يستبعد تأثيرها عن بحثه ، أو لكي يسمح لقارئه بأن يستقطوها من حسابهم عند قرائته . لكن المؤرخ كباحث يستطيع بل ويجب أن يميز بين واجب الوصف والتفسير المفروض عليه من الوقائع ذاتها وبين مسؤولية الحكم على الأشياء الذي يصدر منه باعتباره انسانا . ان الممارسة العلمية هي اطار العلم يجب أن تساعد على تدعيم الانفصال بين ما هو ذاتي وبين ما هو موضوعي ، وبالتالي تدعيم الاتجاه الموضوعي الذي يميز الباحث المدقق عن كاتب الكتيبات Pamphleteer

ولأن هناك احتمالا للغموض والخلط ، فيجب أن نميز بين النقطة التي بحثناها منذ هنيهة وبين تأكيدنا الأول عن أهمية فهم دور التقييمات الأخلاقية في الحياة الانسانية . لقد أكدت منذ لحظة على الغرض من جعل البحث مستقلا وموضوعيا - وغير مصبوغ بصبغة أخلاقية ، فليس من واجب الدراسات الانسانية أن تعلن الأحكام الأخلاقية ، ولكن ذلك من واجب الأفراد الذين يواجهون بالاختيار والحاجة الى الفعل .

وليس من واجب الدراسات الانسانية أيضا أن تنظر في أسس قبول المبادئ الأخلاقية ، ولا أن تسأل عما اذا كانت الأحكام الأخلاقية صادقة صدقا موضوعيا أم لا ، فهذا هو واجب الفلسفة وواجب الأخلاق بوجه خاص . ان الدراسات الانسانية مثلها في ذلك مثل العلوم الطبيعية تهتم بالوقائع ، وذلك رغم أن وقائع الدراسات الانسانية هي من نوع خاص يختلف عن نوع الوقائع الموجودة في علوم الطبيعة ، لكن الواقعة

بالمعنى الذي تستخدمه الدراسات الانسانية واقعة ينتجها كائن انساني ينتج أيضا أحكاما أخلاقية تؤثر في الأفعال الانسانية ، وله معايير وقواعد تعاقب الخارج على القواعد وتكافئ ما يتوافق معها ، علما بأن مسألة ما هي تلك المبادئ والمعايير هي أيضا مسألة واقعية • ان هذا المعنى هو المعنى الذي تدخل به المسألة الأخلاقية دائرة الدراسات الانسانية •

دعوني الآن أعطي مثالا يوضح هذه النقطة : يعتقد عدد غير من مواطني بريطانيا العظمى بأن استخدام الأسلحة النووية ينطوي على خطأ أخلاقي ، ويؤثر هذا الاعتقاد على أفعالهم ، فينظمون المسيرات ، ويكتبون المقالات ، ويتفوهون بنداءات وعبارات ، تؤثر بدورها في الرأي العام ، وفي حزب العمل ، وفي التجنيد في القوات المسلحة • ويعتبر هذا كله هاما جدا بالنسبة الى المؤرخ أو عالم الاجتماع ، وحين يدرس المؤرخ أو عالم الاجتماع تشعب هذه الظاهرة فانه لا يتمكن من اغفال الأسباب الأخلاقية التي تقف وراء تلك الأفعال ، وعليه من ثم أن يبحث في الطبيعة الدقيقة لتلك الأسباب ، لكن ورغم هذا كله فليس عليه أن يقرر الميزة الأخلاقية لهذه الظاهرة ، لأنه اذا تجيز الى جانب أخلاقي معين ، أو اذا أصدر حكما أخلاقيا معينا ، فان ذلك سوف يلقي بذور الشك في بحشه كله •

ويمكن أن أضيف الى هذا أن مسائل مثل : نزع السلاح النووي ، والاشتراكية ، والغاء عقوبة الاعدام ، تتساوى كلها في أنها لا تركز على مبادئ أخلاقية • • انها مسائل تتدعم بتعزيزات واقعية وبافتراضات مبنية على وقائع مثل أن « أنواع السلاح تقود دائما الى الحرب » ومثل « أن قادة الكرمليين يتميزون بالتعقل ، ويحبون السلام ، ويودون باستمرار الوصول الى حالة من التوازن مع الغرب » ومثل « ان الشيوعية

في بريطانيا العظمى سوف لا يتم قمعها كما هو الحال في ألمانيا الغربية» •  
ان مثل هذه الأقوال أو الافتراضات يمكن بل ويجب أن تخضع لنقد  
تمحيصي دقيق في ضوء الشواهد المتاحة وبواسطة مناهج الدراسات  
الانسانية • وها هنا يستطيع عالم الاجتماع أن يتقدم بإسهام ما عمن  
كيفية تحديد هذه المسألة أو تلك • وأود أن أضيف الى ذلك أيضا أن  
عددا من المسائل التي هي الآن موضوع مناقشات سياسية حامية ، يجب  
أن تنتقل من ساحة المناقشات السياسية ريثما تبين الوقائع الملائمة التي  
نفحص بعناية من قبل علماء اجتماع ما اذا كانت مثل هذه الموضوعات  
سياسية فعلا أو أنها تندرج تحت علم آخر •

يجب علينا أن نفهم وقائع الحياة الأخلاقية اذا كان علينا أن نفهم  
العالم الانساني كما عرفه المؤرخون والاثربولوجيون وعلماء النفس  
والسوسولوجيون • ان الأبحاث المتعددة التي وجهت الانتباه  
الى العوامل الأخلاقية أو اكتفت حتى بالتركيز عليها يمكن  
حصرها ، ولكننا سنكتفي هنا بذكر بعضها على سبيل المثال ، فكتاب فيبر  
المسمى بالأخلاق البروتستانتية Protestant Ethic • يمكن تمييزه  
بوضوح عن أي محاولة لنقد الأحكام الأخلاقية • وقد كتب الاستاذ  
جنزبرج بوضوح غير متوقع يقول « ان الأخلاق اذن لا تطابق الدراسة  
المقارنة للقواعد الأخلاقية أو التحليل السيكلوجي  
للالتزام ... فمثل هذه الدراسات لا يمكن أن تكون أخلاقا خالصة ،  
كما نقول بأن تاريخ سيكلوجية الأفكار ليس هو المنطق » ويضيف  
جنزبرج بعد ذلك أن دراسة القيم في علم الاجتماع هي « دراسة لنماذج  
معينة من الوقائع وهي بكل تأكيد ليست كذلك في الفلسفة الاجتماعية» •  
ان أهمية بلورة هذه النقطة تصبح واضحة حينما نجد أن هذا  
المؤلف الممتاز قد أوقع نفسه في الخلط والتناقض ، كما تبين من الفقرة  
التالية : لقد كتب الاستاذ جنزبرج يقول « يبدو واضحا للوهلة الأولى

أن هناك تمييزا بين العلوم الاجتماعية وبين الأنساق الفلسفية، لقد قامت جهود كبيرة في الأبحاث المعاصرة للعلوم الاجتماعية تبين أهمية احتفاظ العلم بحريته وعدم ارتباطه بمشكلة التقييم . والواقع أن الاصرار على الحياد الأخلاقي إنما يرجع في جزء منه الى تلك الرغبة الملهمة والجيدة في الاحتفاظ باستقلال العلم عن الموضوعات التي تتضمن أية انفعالات أو تحيز أو أحكام مسبقة . كما يرجع في جزء آخر الى ذلك الاقتراح المعقول الذي يذهب الى أن أحكام القيمة طالما أنها تتصف بالذاتية فلا يمكن أن تخضع لأي اختبار يجري بواسطة الاجراءات والأدوات العادية للعلم . ويمكن أن نبحت هذه المشكلة من وجهتي النظر التاليتين : فقد نسأل في المحل الأول عما اذا كانت الأخلاق ليست قطعا فرعا من علم الاجتماع ، أليس علم الاجتماع هو الدراسة التي تتناول الطرق التي أصبح وفقها الكائن الانساني عضوا في المجتمع يؤيد ضروبا معينة من الأفعال ويستهجن ضروبا أخرى ؟ ألا يهتم علم الاجتماع بدراسة الأحوال السيكولوجية والاجتماعية التي تنمو وفقها الاعتقادات والممارسات الأخلاقية ؟ وقد نسأل في المحل الثاني عما اذا كانت معالجتنا للوقائع الاجتماعية يمكن أن تستبعد من اعتبارنا كل اشارة الى الأغراض الانسانية والمثل والآمال ، أفليست الغايات والكفاح من أجلها تمثل مادة غنية تقع خارج الأفعال الاجتماعية ؟ ألا نعتبر جزءا من مشكلتنا أن نحدد ما اذا كانت الأغراض والغايات يتم وضعها في الحسبان اذا كنا أمام عملية الحضارة أم لا ؟ أليس واضحا ، بمعنى ما من المعاني أنه يجب أن تكون الغايات والقيم جزءا من العلم الاجتماعي ، وأن يكون التمييز عندئذ بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع غير متطابق تماما مع تمييزنا لدراسة الوقائع عن دراسة القيم ؟ » .

ان الصعوبة التي وجدها الأستاذ جنزبرج في التمييز بين علم



الاجتماع وبين النسق الفلسفي يبدو أنها كانت سبب فشله في الالتزام بتعريفاته الخاصة . ان القول بأن علم الاجتماع يهتم بالطرق التي يضع الناس الأحكام الأخلاقية من خلالها لا يعبر عن الأخلاق تماما كما أن - ونستعيد هنا كلمات جنزبرج نفسه - « تاريخ سيكولوجية الأفكار ليس هو تماما المنطق » . ومن هنا نفهم أن جنزبرج قد وقع في التناقض حينما اعتبر الأخلاق جزءا من علم الاجتماع هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبدو لنا صحيحا أننا لا نستطيع أن نترك الأغراض والمثل والآمال وتأثير ذلك على الحضارة خارج اعتبارنا ونحن نتناول الوقائع الاجتماعية بالدراسة . لكن أليس جنزبرج نفسه هو القائل بأن دراسة القيم والغايات بهذا المعنى هي دراسة أنماط معينة من الوقائع ؟ ليس ثمة صعوبة إذن في الربط بين التمييز بين الفلسفة الاجتماعية وعلم الاجتماع وبين دراسة القيم ودراسة الوقائع . ويجب أن نتذكر هنا التمييز الواضح بين اثبات القيم التي تهتم بها الأخلاق أو الفلسفة الاجتماعية ، وبين اثبات وقائع مثل أن الناس يسلمون بقيم معينة ويعملون وفقها ، فهذه الأخيرة هي موضوع الدراسات الانسانية . ولكي نلخص هذا كله نقول : ان الدراسات الانسانية تستخدم المنهج العلمي ، أي أنها تتشارك مع العلوم الطبيعية في الطرق النسقية العامة التي تربط العمليات المعرفية في سعي حثيث نحو المعرفة . ومع أن الفهم يكون متضمنا في كل العمليات ، ويغير العمليات المعرفية ، لأن الوقائع التي تتحقق منها ونفسرها هي أفكار ومشاعر وآمال ، فإن ذلك كله يظهر في التعبيرات . ولقد ثارت بعض المشاكل عن الموضوعية في الدراسات الانسانية وعن استقلالية الأخلاق وافصالها عن دوائر العلم الطبيعي ، وقد نجمت مثل هذه المشاكل عن طبيعة عمل الباحث الذي يعالج هنا أحوالا ذاتية تتعلق برأيه الخاص حين يواجه باتجاه أو بتفسير أو بتقسيم . لكن ثمة اتجاها تقديرا واهتماما دائما بأن تكون عمليات

الاختيار والفهم متميزة بالضرورة عن التقييمات الأخلاقية التي تشوه  
الشواهد ♦

ولقد لاحظنا أيضا أن الوقائع ( الصعبة ) وهي تلك التي تكون  
موضوع العلوم الطبيعية تلائم وقائع الدراسات الانسانية ♦ ولعل هذا  
هو ما أثار مسألة التخصص والعلاقة بين العلوم وهي التي سنتناولها في  
الفصل القادم ♦

## الفَصْل السَّابِع

التخصص وملاءمة العلوم الطبيعية للدراسات الانسانية

١ - أساس التخصص والعلاقة بين العلوم .

٢ - ملاءمة الوقائع الطبيعية للدراسات الانسانية



## التخصص وملاءمة العلوم الطبيعية للدراسات الانسانية

### ١ - أساس التخصص والعلاقة بين العلوم \*

يهدف هذا الكتاب من محاولته تأكيد الفروق المنطقية والمعرفية بين مختلف العمليات المعرفية الى تحديد الخصائص المميزة للعلوم التي تختص بدراسة الانسانية \* والتعريفات الواضحة بوسعها أن تكشف عن الفروق الجوهرية بين مختلف الدراسات الانسانية ، وتلك بالطبع مسألة تحليل نظري وليست وصف ما يقوم به مختلف المتخصصون \* والواقع أن الارتباط بين خبرات الباحثين في مختلف المجالات ارتباط ضعيف في أغلب الأحيان ، فمجالات الدراسة عند علماء النفس والمؤرخين متباعدة ، كما أن كلا منهم يستخدم طرقاً مختلفة للبحث \* وليس القصد من صياغة اطار للتصنيف هو اقامة عوائق أمام التخصص العنيف ( وتلك مشكلة لا تهم علماء النفس ) ، فلقد بات واضحاً أن عبور الحدود الفاصلة بين العلوم ، والاستعانة بمدخل ذات نظام مترابط أمر يحقق نتائج هائلة ، كما أن النظرية الملائمة هي التي تنبئ فيها تلك المدخل بوضوح ، اذ لكي يكتمل الاطار النظري يتعين تدعيم تصنيف العلوم بتصور عن كيفية الارتباط بينها والتداخل بين كل منها \*

ولسوف أعالج ، بعد أن أعرض لكيفية تعريف علم معين ، العلاقات

بين الدراسات الانسانية والعلوم الطبيعية ، أما الارتباط بين الدراسات الانسانية ذاتها فستتناوله فيما بعد \*

وترجع الحاجة الى التخصص في العلوم المحددة تحديدا واضحا ، وحتى في بعض ميادين هذه العلوم الى نمو المعرفة ، وذيوع تقنيات البحوث وتعدد المشاكل من جهة ، ثم حدود الطبيعة البشرية من جهة أخرى \* ومن غير المنطقي حتما أن نتوقع من خبير احصائي أن يكون عالما في نقد المصادر التاريخية ، كما لا نطالب عالم النفس التجريبي بأن تكون لديه معرفة واسعة بالايديولوجيات السياسية \* اننا ننظر شذرا الى من يدعي العلم بكل شيء ذلك لأن اتساع نطاق المعرفة كثيرا ما يكون على حساب نقص التعمق والتحديد \*

ويصور بناء جامعاتنا ومعاهد البحوث والمكتبات الاعتماد على التخصص بوضوح ، اذ من المقنع أن تكون الجامعات منظمة في أقسام ، وأن تصنف الكتب وفقا لموضوعاتها \* ومن العسير بالطبع أن تتصور كافة المسائل ، لكننا نعترض على تصور وجود حدود قاطعة بين العلوم ، فاذا ما أصبحت موضوعات الدراسة الأكاديمية حصونا مستقلة البناء والتكوين لكل منها اهتمامه الثابت فلسوف يعلق ذلك أبواب الاكتشاف المشر \* ان علينا أن نرحب بكل علم جديد يعتمد في تحديد مجاله على مدخل النظام المترابط في دراسة مشكلة ما أو مجموعة مشكلات ، والأمثلة على ذلك علم الجريمة ، ودراسة الاتصال ، والدراسات الأوروبية \*

ان ما نحتاج اليه هو اطار نظري يبرر التخصص دون أن يخلق حواجز لا يمكن عبورها بين العلوم ، وهذا يدعونا الى فحص الافتراض القائل بأن العلوم تتمايز عن بعضها وفقا لموضوعات الدراسة فيها \* ولقد ذهبت الى أن العلوم الطبيعية تدرس العالم الطبيعي بينما تتناول الدراسات

الانسانية « عالم العقل » كموضوع لها، وناقشت في الفصل السابق بعض خصائص ما نعينه بالعالم الطبيعي • ومع ذلك ، فإذا كان علينا أن نعالج العلاقة بين مجموعتي العلوم يتعين أن ننعم النظر أكثر في طبيعة هذين العالمين •

ولست أريد بالحديث عن هذين العالمين صياغة نظرية ميتافيزيقية حول انتظام الواقع ، إذ الواقع الذي فخره واقع معقد ، وكذلك الأمر بالنسبة للمواقف الفردية ، ومن ثم كان استيعابهما ، أو حتى دراستهما بحاجة الى اصطناع التجريد • فنحن ننتقي ملامح معينة بوصفها ذات أهمية وتتبع الارتباط بينها ، وذلك وفقا لحاجاتنا العملية ، ووجهة نظرنا واهتمامنا بمشكلة خاصة • واثقاء الخبرات على أساس التجريد يتبدى في حياتنا اليومية ويكون هذا الالتقاء مسئولاً عن تصورنا للعالم كما تجسده اللغة والذوق العام ، مثال ذلك أن البستاني يدور تفكيره حول الزهور والاعشاب ، على حين أن عالم النبات لا يفعل ذلك • ولقد نشأت العلوم المختلفة باعتبارها تنظيماً يقوم على هذه التجريدات الأصلية ، مع أنها أحياناً تتخطى حدود الذوق العام ، فهي اذن بمثابة استكشاف للواقع تبرره القدرة على القاء الضوء على الخبرة ، وتناول الواقع وفقاً لحاجاتنا •

ومن اليسير توضيح التداخل والارتباط بين العلوم المختلفة في موقف واحد • دعنا تتأمل محاضرة تلقى في قاعة للدرس ، فلسوف يلاحظ عالم الطبيعة أن القاعة تتألف من بناءات ذرية وموجات ضوئية وصوتية • • وهكذا • أما البيولوجي فسيجد ان هناك كائنات حية تتكون من مادة عضوية تؤدي وظائف فسيولوجية ، كأن نستخدم أعضائها في الكلام والاستماع • وقد يجد عالم الصوتيات أمانة نموذجاً للجدل والمناقشة ، كما يدرس عالم النفس مظاهر الملل ، أما عالم الاجتماع فسيعثر على نموذج للتفاعل الاجتماعي • اننا هنا أمام موقف مألوف لنا

تماما ، وليس موقفا معتقدا ، ومثل هذا الموقف يمكن أن يشكل موضوعا لعدد من العلوم ، وإذا ما أخذنا كل جانب من جوانب هذا الموقف لاتضح لنا أن كل علم من تلك العلوم يمكنه أن يوضح هذا الجانب المتخصص فيه . وكذلك إذا قلنا أننا نستطيع أن نرى السماء ذات النجوم من النافذة فسيجد علم الفلك مجالا له ، وسيبحث البكتريولوجي على موضوع يدرسه إذا سلمنا بأن البكتريا منتشرة في الهواء .

على أن الزعم بأن العلوم المختلفة تتمايز على أساس موضوع الدراسة فيها ، لا يعني أن كلا منها ينفرد بجانب من الواقع يصوره بطريقته الخاصة . ان تصورنا للحدود الثابتة بين العلوم لا يتحقق الا اذا اعتبرنا أن جانبا من الواقع ينتهي عند حد معين ويبدأ جانب آخر ، وهذا تصور مضلل لأن صورة الواقع منتشرة أمامنا تماما كما ينسبط الريف الانجليزي على مدى البصر ، وتنطوي هذه الصورة على العديد من الموضوعات التي تصلح للدراسة في مختلف العلوم ، أما كون هذه الموضوعات تمثل مقاطعات منعزلة فهذه فكرة مرفوضة ، هذه هي خريطة العلوم التي ستكشف لنا عن تتجاوز الفيزياء والبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع تماما كما تتجاوز مدينتي يوركشاير ولاكشاير ، ومثل هذه الخريطة تحجب عنا ادراك مسائل منهجية هامة . وهذا التشبيه المضلل لخريطة المعرفة يصور أخطار فهم كل علم من هذه العلوم فهما مستقلا . فقد يهتم عالم الفيزياء وعالم الكيمياء بدراسة موضوع واحد ، وقد يعثر المؤرخون، والمتخصصون في النقد الادبي وعلماء الاجتماع على وثيقة نصية واحدة تصلح لبحوثهم جميعا ، وقد يهتم العالم بنوعية الورق والمداد الذي كتبت به هذه الوثيقة . كما قد يشترك الاثربولوجيون الاجتماعيون ، وعلماء النفس والاقتصاديون ، وعلماء الفسيولوجيا في دراسة قبيلة واحدة .



وإذا جاز لنا تطبيق فكرة خريطة المعرفة هذه ، فإنها تنطبق على تقسيم العمل داخل كل علم ، وبين الباحثين الذين يشتركون في اجراء بحث واحد ، كأن يعكف كيميائي على تحليل عينة من مادة معينة ، ويقوم زميله بتحليل عينة أخرى من نفس المادة ، ويبدأ الاثربولوجي بدراسة قبيلة في الوقت الذي يقوم فيه زميله بدراسة جيران هذه القبيلة ، ويجري سيكولوجي مقابلة مع سجين بينما تقوم زميلة بالقاء نفس الاسئلة على سجين آخر . هنا يمكن أن توضع النتائج جنباً الى جنب كما لو كانت على خريطة ، ولدينا المبرر لأن يعكف كل باحث على دراسة جانب مختلف لواقع واحد .

ان موضوعات العلوم تتاج لمختلف عمليات التجريد ، وكل علم يتميز ببعض الافتراضات المسبقة التي تحدد وحدات الدراسة فيه ، تلك التي نعتبرها معطيات أو بيانات يتم على أساسها التحليل . وتعريف هذا العلم للبيانات يحدد المناهج والاجراءات المستخدمة فيه ، كما يتحدد هو أيضاً من خلالها . فتحليل « المادة » مثلاً على أساس الأبنية الذرية الفزعية يقتضي استخدام عدة اجراءات تبدأ من تحليل الجزيئات . ولقد تطورت العلوم كاستجابة لمختلف التساؤلات ، سواء كانت نظرية أم تطبيقية ، التي تطرح حول العالم . ونحن لا نريد أن نعرف فوراً كل شيء عن موقف ما ، كما ليست هناك حاجة الى جمع معالجات مختلف العلوم لموقف بعينه ، فملاءمة علم معين لموقف ما تعتمد على طبيعة التساؤل المطروح . وكل تفسير لكي يكون ملائماً يجب أن يرتبط بشيء تفترض أنه غير مألوف في موقف معين ويستحق المعرفة ، ففي مثال المحاضرة الذي أشرنا اليه قد نميل الى معرفة أسباب ملل الطلاب أكثر من ميلنا الى معرفة النجوم كما تبدو لنا من النافذة .

وبإمكاننا أن نكون محددين أكثر من ذلك ، فالتساؤل الواحد حين

ينشأ عن سياقات مختلفة يحتاج الى اجابات جد مختلفة • فاذا تساءل طالب يتردد في اذنه صوت محاضرين آخرين في قاعة الدرس التي يتلقى فيها محاضرة بالذات لماذا لا أستطيع سماع المحاضرة جيدا ؟ فقد يكون الغرض من سؤاله هو معرفة الخطأ في صوت المحاضر • وقد يطرح طالب آخر في نفس هذه القاعة السؤال بطريقة مختلفة كأن يقول : ما الخطأ في الأجهزة الصوتية ؟ ان كلا منهما يحتاج الى اجابة يقدمها علم مختلف • وبالمثل هناك عدة اجابات يتطلبها التساؤل التالي : لماذا كانت محاضرة (X) عن أدلة ديكارت على وجود الله ؟ واذا كان يسأل حقيقة لماذا اختار هذه الأدلة ؟ فعلينا في هذه الحالة أن نقدم اجابة فلسفية • أما اذا كان السؤال هو لماذا الحديث عن ديكارت بالذات ؟ فعلينا أن نوضح القيمة التعليمية لهذا الموضوع • أما اذا كان يريد أن يعرف لماذا يقوم هذا الشخص الذي تعود حياة الفراغ بالقاء محاضرة في الفلسفة ؟ فقد يكون علينا حينئذ أن نقدم اجابة اقتصادية ( كان يكون في حاجة الى المال ) أو اجابة سيكولوجية ( أو أنه يعاني من الملل ) •

وهكذا ، يمكن أن نصف موقف واحد بطرق مختلفة ، فقد يستخدم (X) أعضاء الكلام عنده في أحداث موجات صوتية ، وهو قد يستخدمها في اقامة حياته ، وفي أداء عمله بالجامعة ، أو في القيام بمهمة شخصية ، وفي الدعوة الى ديكارت وتهيئة تلاميذه للاختبار • وكل جانب من هذه الجوانب يمكن أن يصبح موضوعا لعلم مختلف • وأحيانا نحتاج الى أكثر من علم كي نصل الى التفسير الذي نريده •

غير أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فثمة علاقات منتظمة بين العلوم يمكن تتبعها ، وتوضح أهمية هذه العلاقات حينما نعرف الى أي

مدى تكون مهمة علم معين ملائمة لعلم آخر • لقد سبق أن ذكرت أن موضوع العلم يتحدد بعملية التجريد التي يتم من خلالها عزل بعض الملامح من موقف مركب • أما المستوى الأعلى للتجريد فهو يختار الملامح التي تشترك فيها كل المواقف ، والتي تعد بالتالي أكثر ملامح الواقع عمومية ، وهذا هو موضوع الفيزياء • وفي المستوى الأقل للتجريد نختار الملامح الإضافية التي تشترك فيها بعض المواقف فقط ، وهنا نصل الى موضوع علم الحياة ، وأخيرا الى الدراسات الانسانية ، فالتيار الكهربائي ، والفأر ، والانسان - مثلا - بينهم بعض الملامح المشتركة التي تهتم بها الفيزياء ، كما يشترك الفأر والانسان في بعض الخصائص البيولوجية ؛ لكن هذه الخصائص لا تصلح موضوعا للدراسات الانسانية •

وبماكاننا صياغة المبادئ التالية في ضوء تلك العلاقات :

#### مبدأ الاستقلال الذاتي Principle of Autonomy

يعالج كل علم موضوعه من خلال مفاهيم ونظريات مستقلة عن تلك الخاصة بالعلوم الأخرى • والواقعة التي يتناولها علم معين لا تفسر تفسيراً ملائماً بعلم آخر ، لأن كل علم قد قام بتجريد بعض الملامح من الواقع ( فقد تفسر التفكير في ضوء عمليات عقلية لا عمليات دماغية ، لأن مفهوم التفكير لا مكان له في الفسيولوجيا ) •

#### مبدأ الاعتماد المتبادل Principle of Interdependence

لكل موقف خصائصه النوعية وخصائصه العامة أيضا ( حينما يحدث تفاعل اجتماعي تظهر أيضا ملامح فيزيقية وبيولوجية ) • وتنشأ علاقات مختلفة بين هذه الخصائص العامة ونحن نعرفها من الخبرة أو نفترضها

في البحث • وقد نطلق على بعض هذه العلاقات ما يلي :

(أ) انها مرتبطة لأنها متفاعلة ( مثل تأثير الانسان بالتيار الكهربائي )  
وقد تكون العلاقة موضوعا لاكثر من علم واحد ( مثل الفيزياء وعلم النفس ) •

(ب) قد يرجع الارتباط لأن العمليات المؤثرة في الخصائص العامة للموقف تبطن تلك العمليات النوعية وتعد شروطا ضرورية لها • ( فالتفكير يتضمن توظيف المخ وهو لا يحدث بدون ذلك ) •

وحيثما تكون هذه الشروط ثابتة يمكن اهمالها عند التفسير ، ولكنها قد تتداخل مع عمليات نوعية أخرى ومن ثم تصبح ملائمة ، وهكذا ينتج عن هذه النقطة المبدأ التالي :

#### مبدأ التدخل Principle of Interference

وهو يصف مبدأ الاستقلال الذاتي ، فحيثما لا نستطيع أن نفسر حادثة معينة في اطار العلم الذي ننتهي اليه علينا أن نأخذ في اعتبارنا امكانية تدخل بعض العمليات العامة، مثال ذلك اذا كانت عملية الاستدلال يسيرة وفقا لقوانين الفكر فلسنا بحاجة الى عمليات المخ ، ولكن اذا انقطع التفكير فجأة ، فقد تكون اصابة المخ هي التفسير الملائم الوحيد •

#### ٢ - ملائمة الوقائع الطبيعية للدراسات الانسانية

في الممارسة أشرت الى العلاقات التي حاولت أن أحدها فلسفيا بقولي ان عالم العقل له جذوره في العالم الطبيعي • ولكن قد يكون من المقنع لأغراض معينة أن نتحدث عن عالم العقل كمنطقة مستقلة تتضمن اللغة ،

والدين ، والتقاليد ، والادب ، والفكر ، والمشاعر ، والأهداف وهي المنطقة التي يستطيع الفهم وحده أن يدخل إليها . ونحن نفترض واقعية تلك المنطقة حين نقول عبارات مثل « لقد غير الدين من حياتي » ، « ان الادب يعني شيئا عندي » ، أو « ان المعتقدات السائدة في هذا المجتمع تقيد ممارسة الخيال » . غير أن هذا العالم لا ينفصل انفصالا تاما عن العالم الطبيعي مثلما تنفصل افريقيا عن أمريكا . ان عالم العقل لا يوجد بذاته ، انه دائما يتجسد في واقع فيزيقي . فجسمي هو موضوع فيزيقي تحدث له عمليات فيزيقية ، وهو متأثر بالموضوعات الفيزيقية الأخرى ومؤثر فيها، وكل خبراتي ومعارفي انما تعني أن العمليات العقلية تكون في الوظائف التي يقوم بها هذا الجسم ، فأنا أرى بعيناي ، وأسمع بأذني ، ولا أستطيع التفكير بدون المخ . ( لست أريد أن أناقش هنا مسألة وجود الروح بالمعنى اللاهوتي للكلمة ، ومسألة وجود حياة لعقل غير متجسد بعد الموت فهذه التساؤلات لا تهم عالم النفس أو عالم الاجتماع حين يمارس دراسته ، وليس هنا مجال مناقشة الشواهد المحدودة جدا التي تلجأ اليها لاثبات وجود الأرواح ) . وأفعالنا يحكم وقوعها اطار يستند الى الظواهر الطبيعية . كما أن كل تعبيراتنا هي ظواهر طبيعية ، وحينما تؤكد أن الفهم هو فهم التعبيرات نرفض أية فكرة تخضعنا بشكل مباشر وغامض لعالم نظري للعقل .

وهكذا ، هناك ثلاثة مجالات لا يكون فيها بحث الوقائع الطبيعية ( العلوم الطبيعية ) ملائما للدراسات الانسانية . لدينا المظاهر الفيزيقية للتعبيرات ، والظروف الفيزيقية التي تشير اليها التعبيرات ( أو التي تتأثر بها ) والميكانيزمات التي تحدث من خلالها .

فلكي نفهم تعبيراً علينا أن ننظر أولاً الى خصائصه الفيزيقية .

وأحيانا نحتاج الى درجة عالية من التحديد • فعملية التحقيق الصحيح لوثيقة قديمة تتطلب انتباها شديدا للتفاصيل ، اذ قد تحمل الكلمات المتشابهة معاني مختلفة تماما • وقد يكون اللون هاما ، فاذا لم نرى أن الصليب لونه أحمر فلن تتمكن حينئذ من ادراك دلالاته المتميزة • لكن ليست كل التفاصيل الفيزيائية لها نفس الدلالة • فليس هناك فارق عادة بين أن يكتب خطاب بمداد أزرق أو أسود ، برغم أن ذلك قد يدلنا على مدى قدم الخطاب ، وعن كتبه ، ان السياق هو الذي سيحدد ذلك كله •

وقبل أن يدرك المؤرخ تعبيراً مفهوماً عليه أن يعتمد الى حد بعيد على أعمال الطبيعى ، فنحن نحتاج لكي نجعل لوحاً من الصاج مستقيماً ، ولكي نزيل الصدأ الذي علق به وننظفه ، ولكي نعرف عمره الى اختبارات نستخدم فيها وسائل كيميائية • كذلك يعتمد عالم النفس أيضاً على العلم ، فلدراسة تعبيرات الأطفال أثناء اللعب قد نلجأ الى استخدام مرآة ذات عدة جوانب ، أو قد نستعين بالأفلام • وثمة مثال آخر هو استخدام ما يعرف بجهاز كشف الكذب ، اذ يطلب الى الشخص أن يذكر المعاني التي تتداعى عنده حين تذكر له كلمة معينة ، أو أن يجيب على بعض التساؤلات أثناء قياس ضغط الدم والتنفس ، وهذه القياسات تدخل في نطاق الفسيولوجيا ، ولكن اذا كشفت الفروق في معدلات ضغط الدم والتنفس عن اضطرابات عاطفية ، وعن توتر وكف ، ففي هذه الحالة تعالج كتعبيرات • وقد يهتم عالم الاجتماع بالطريقة التي يعبر بها الناس عن مراكزهم الاجتماعية وقد تكون هي الممتلكات ، وقوة سياراتهم ، وحجم منازلهم ، بل قد تنطوي نوعية المجوهرات التي يمتلكونها على أهمية في هذا الصدد •

واذا انتقلنا الى الظروف الفيزيائية المرتبطة بالتعبيرات ، سنرى مباشرة أنها ملائمة في فهم انسان يتسم جسمه بالنعافة ، أو شخص

مستلىء ، أو معمر ، يعيش في منطقة متخلفة في مدينة صناعية ويعاني من سوء الهضم . ولا تعد أية واقعة من هذه الوقائع تعبيراً ، ولا هي وفقاً لتعريفنا تدخل في موضوع الدراسات الانسانية . ويمكن تقدير حجم الانسان ووزنه بنفس الدقة والتحديد اللتان يظهران عند قياس صخره ، كما يستطيع الفسيولوجي أن يستخدم نفس الطرق التي يتبعها في دراسة الفئران عند دراسة عمليات الهضم والشيخوخة ، ويمكن أيضاً دراسة التوافق ، والضوضاء ، والرطوبة ، والحجم بنفس الطرق التي ندرس بها جزيرة أو كهف .

وترجع ملاءمة هذه الوقائع الفيزيكية الى أن الانسان يكون على وعي بتكوينه الذي قد يكون هو سبب خجله أو عدوانيته ، تماماً مثلما قد تؤدي هذه الوقائع الى فشل الحب ، أو عدم القدرة على النجاح الاجتماعي ، فصالة الهضم عنده قد تجعله سريع الغضب . كما تجعله الشيخوخة قلقاً أو بطيء الحركة . وتحدد ظروف الحياة أنشطة الإنسان ( حين لا يستطيع زيارة أصدقائه في المنزل ) أو تؤثر في صحته ، وهذا بدوره قد يؤثر في اتجاهه أو في مهنته . وبعبارة أخرى ، فإن هذه الوقائع وغيرها نخبرها كحدود وتحديات ، أو كغرض تظهر المشاعر والأفكار والأفعال وتعديلها . ان الظروف الفيزيكية تمثل خلفية ضرورية لفهم هذه الاستجابات .

ولهذه النقطة أهميتها في التاريخ ، وعلم الاجتماع ، والجغرافيا البشرية ، والاقتصاد . فالمناخ ، وتكوين التربة ، ووجود أنهار صالحة للملاحة ، ووجود موانئ طبيعية ، وتوافر مياه صالحة للشرب هي عوامل مؤثرة في توطين المدن ونمو الحضارات ، فهي تؤثر في طريقة حياة الناس ، وفي توافر الطعام والمأوى . وفي بعض الحالات لا نستطيع أن نفهم معركة بين جيشين متحاربين ، أو أسلوب القتال بينهما ، دون أن

نعرف أن الأرض منحدره عند طريق معين ، أو أنها مبتلة في منطقة أخرى ،  
أو أن الضباب يغطي جانباً منها •

ان أفعالنا لها نتائج فيزيقية بعضها مقصود وبعضها الآخر غير مقصود ، وهذه بدورها تصبح شروطاً لأفعال أو اتجاهات أخرى • وهكذا تشابك الظروف الفيزيقيه تشابكاً واضحاً مع العلم الانساني ، فالبرنامج الشامل لبناء السفن حينما تصنع من الخشب سوف يستنفذ الغابات التي تغطي منطقة معينة ، لكن النتيجة المصاحبة لبنائها من الخشب تجعل تلال هذه المنطقة عارية من الأشجار ، ومع ذلك فهي تؤثر في ظروف الزراعة ويصبح لزماً على المزارعين أن يتوافقوا مع الظروف الجديدة • والتصنيع نتيجة لجهد مقصود ، ولكن من نتائج العرضية تلويث الهواء بعدام الاحتراق ، مما يزيد من حالات التهاب الحنجرة ، وعند مرحلة معينة تصبح هذه مشكلات اجتماعية ، ومن ثم تعود مرة أخرى الى المجال المتخصص للدراسات الانسانية • كيف يؤثر ازالة الغابات في توافر تقاوى البذور ، وكيف يؤثر العادم في رئة الانسان ، تلك مسائل يبحثها العلم ، لكن نتائجها ذات أهمية في علم الاقتصاد وعلم الاجتماع أو التاريخ •

وتنطبق هذه النقاط ذاتها على علم النفس مثال ذلك أن علم النفس الصناعي قد كشف عن تأثير أداء العمال بشدة الاضاءة وموضعها ، وبألوان الجدران ، وبدرجة الحرارة والرطوبة • وتلك الظروف والنتائج الفسيولوجية يمكن دراستها علمياً ثم تربطها بالاستجابات الانسانية التي تؤثر فيها •



وأخيرا ، دعنا ننتقل الى ما أسميه الميكانيزمات التي تنتج التعبيرات .  
 فطالما أن كافة التعبيرات هي مظاهر فيزيقية فهي تحدث من خلال العمليات  
 الفيزيقية ، فالكلام والكتابة هما نتاج عمليات فسيولوجية ، كما أن هذه  
 العمليات تؤثر في النسخ على الآلة الناسخة ، أو في استخدام القلم في  
 الكتابة . والمعارك الحربية هي الأخرى لا يتحقق فيها النصر الا بالاعتماد  
 على خطط استراتيجية ، الا أنه من الضروري أيضا حفر الخنادق ،  
 واستخدام الأسلحة النارية . ان البشر يعبرون عن أفكارهم ، ويحققون  
 غاياتهم ببناء المنازل ، وحرث الحقول ، ورسم اللوحات ، والسير في  
 المواكب الدينية .

ونحن في الدراسات الانسانية نهتم بما يقوله الناس ، أو ما يسعون  
 تحقيقه في أفعالهم . غير أن اللغة والأفعال لا يظهرون بدون سلسلة من  
 الأحداث الفيزيقية . وإذا أخذنا في الاعتبار كيف تحدث ، أو نحرث  
 الحقل ، فسنصل الى مفهوم « الميكانيزم » الذي يعبر عن نسق مكون  
 من أجزاء متداخلة تؤدي وظائفها على أساس القوانين السببية ، وترتب  
 عليها نتائج محددة . وأعضاء الكلام ، والجهاز العصبي هي ميكانيزمات  
 من هذا النوع ، مثل الآلات الناسخة ، والكمبيوتر وأنظمة السكك  
 الحديدية . وبناء هذه الميكانيزمات هو موضوع عدد من العلوم مثل  
 البيولوجيا والهندسة ، ولكن طبيعة الدور الذي تلعبه هذه العلوم في  
 تحقيق الغايات الانسانية هي التي تجعلها ملائمة للدراسات الانسانية .

وعلى الرغم من أننا نفكر أساسا في الميكانيزم بوصفه يتألف من  
 أجزاء فيزيقية ، فان المفهوم يستخدم استخداما عاما للإشارة الى أي نسق  
 يتألف من عوامل سببية مترابطة . فالاقتصادي — مثلا — يتحدث عن  
 ميكانيزم الثمن حينما يكون مهتما بالعلاقة السببية بين العرض والطلب ،

مع أن العلاقة الأخيرة ليست واقعة فيزيقية ( انني لا أذهب الى أن معالجة الميكانيزمات يجب أن تكون على نحو ما يفعل الاقتصاديون ، اذ لو كان الأمر كذلك لما كان الاقتصاد دراسة انسانية ، وهذا ما سأناقشه فيما بعد ) .

وقد لا نحتاج في بعض الحالات الى الاهتمام بالميكانيزمات ، فسواء كتب الخطاب الذي تلقينه من والدتي بقلم سائل أم بقلم جاف ، أو نسخ على الآلة الناسخة فذلك كله لن يؤثر في شيء . وحينما استمع الى قصة شخص ما لست بحاجة الى معرفة وظيفة أعضاء الكلام . وحينما أدرس معركة كناى Canae قد أهتم باستراتيجية الهانيبال Hannibale أكثر من اهتمامي بأنواع الاسلحة المختلفة ، أو بعدد الفرسان في المعركة .

وفي حالات أخرى يكون اهتمامنا بالميكانيزمات مسألة مفروضة علينا ، فخطاب والدتي تغطيه بقع الحبر ، فهل كان القلم الذي تكتب به يسرب حبرا ، أم أن ذلك تعبير عن حالة اهتزاز غير عادية اصابت يدها ؟ وقد أسمع شخصا يتلعثم ، وقد أريد أن أعرف هل هذا هو نتيجة لعائق جسيمي أم أنه تعبير عن القلق ! وفي دراسة بعض المعارك الحربية يكون الاستعداد المتفوق لجيش معين أكثر أهمية من القيادة في الجيش الآخر .

وهناك العديد من المبادئ التي نضكم اليها في تحديد ملائمة دراسة الميكانيزمات بالنسبة للدراسات الانسانية . المبدأ الأول هو مبدأ التدخل الذي أشرت اليه من قبل ، فالاضطراب ، والتغير ، أو عدم الانتظام مثل التلعثم أو بقع الحبر على الخطاب قد ترجع الى سوء وظيفة الميكانيزم . وثمة مبدأ آخر اقترح تسميته بالوسائلية Instrumentality<sup>1</sup> يوصف بأنه استخدام ميكانيزمات مثل الآلية ، والطباعة والاذاعة ، وتطويرها كوسائل لتحقيق غايات معينة . واستخدام هذه الميكانيزمات يؤثر في

الاتجاهات ، فاستخدام تقنيات الانتاج الفني على نطاق واسع يساعد في تقديم أعمال فنية تؤثر في تقييمنتنا للفن ، وقد يؤدي ذلك الى تعديل الأهداف أو تطوير أهداف جديدة .

وباستخدام مثل هذه المبادئ يمكن تنظيم العلاقة المتبادلة بين العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية والتعاون بينهما .

وعند الممارسة ، نجد أن علوما مثل علم النفس ، والاقتصاد ، والجغرافيا ، والتاريخ تحسب حسابا لهذا الموقف حين تنطوي بداخلها على دراسة علمية للميكانيزمات والشروط والمظاهر الفيزيائية للتعبير . وأحيانا ما تدرس هذه المسائل كفروع من الجغرافيا الطبيعية ، والاثربولوجيا الفيزيائية ، وعلم النفس الفسيولوجي . وسواء حددنا دراساتنا بهذه الطريقة ، أو كما حددتها كدراسات انسانية ذات صلات منظمة بمختلف البحوث الطبيعية ، فهذه مجرد مسألة مصطلحات ، وغاية ما في الأمر هو أنه يجب أن يتكون لدينا تصور واضح للفروق الملائمة والعلاقات المتبادلة بين هذه الدراسات وتلك العلوم .



## الفصل الثامن

### سياق التعبير

- ١ - السياقات المختلفة للتعبيرات وكيف تميز بين العلوم .
- ٢ - كيف تتكون السياقات .



## سياق التعبير

### ١ - السياقات المختلفة للتعبيرات وكيف تميز بين العلوم

إذا كانت هناك علاقات ذات اعتماد متبادل بين الدراسات الانسانية وبين العلوم الطبيعية ، بحيث يمكن أن توصف وصفا نسقيا ، فمن الأخرى أن تكون هناك أيضا علاقات ذات اعتماد متبادل بين بعض اجزاء الدراسات الانسانية وبين بعضها الآخر . والواقع أنه توجد لدينا شواهد عديدة مستقاة من حقل الأبحاث المعاصرة تدل على أن تداخل انعلوم وتعاونها هو أمر مثمر ، وأن عدم توافر مثل هذا التداخل وذاك التعاون يؤدي الى نظرية واحدة الجانب ، والى نتائج خاطئة . ولكي يكون هذا التداخل وذاك التعاون مقبولين ، فيجب أن تمدنا النظرية في الدراسات الانسانية باطارات نظرية تكشف لنا عن الكيفية التي تتكامل وفقها العلوم المختلفة بحيث يكمل بعضها البعض الآخر .

ولتحديد ذلك فسوف نكشف عن كيفية اختلاف العلوم فيما بينها وفقا للموضوع وطبقا للمدخل ، فنحن جميعا نعلم ما هو علم النفس ، وما هو علم التاريخ ، وما هو علم الاجتماع ، اذ لدينا تعريفات عديدة تبين لنا ذلك . ومع أن البعض يلجأ الى تحديد ضيق ودقيق لموضوع كل علم ، كأن يعرف علم النفس مثلا بأنه دراسة السلوك الانساني ، ويوجه

الانتباه الى الخواص التي يتشارك فيها الانسان مع الفأر ، على حساب الاختلافات الهائلة بينهما ، وكأن يستخدم البعض في تعريفاته عبارات قد ينشأ عنها مشاكل فلسفية خطيرة فيعرف علم النفس مثلاً بأنه دراسة العقل ، ويعرف التاريخ بأنه دراسة الماضي ، ويعرف علم الاجتماع بأنه دراسة الأنساق الاجتماعية والمجتمع أو البناء الاجتماعي ، فان مثل هذه التعريفات تؤدي في أحسن أحوالها الى الغموض ، وتؤدي في أسوأ أحوالها الى التضليل . صف الى ذلك ، ذلك الغموض الذي واكب مسألة العلاقات القائمة بين العلوم ، والذي يرجع في صميمه الى نسبة موضوعات مختلفة الى بعضها البعض رغم التفاوت الكبير بينها . سنحاول هنا إعادة تعريف بعض العلوم الرئيسية في ضوء تطابقها مع سياقات تعبيراتها ، وهي محاولة اعتقد أنها ستقودنا الى الدقة والوضوح . ويجب أن يكون واضحاً لدينا ونحن نقوم بهذه المحاولة ، أن يكون للمصطلحات الرئيسية المستخدمة معنى محدداً تماماً ، وأن تكون تلك المصطلحات متوافقة مع المدخل المتبع ، وأن تكون على نفس النحو في تعريفات العلوم المختلفة . ان التعريفات من هذا النوع سوف تمكننا من تمهيد المناخ الملائم لمناقشة العلاقات المتبادلة بين العلوم .

لقد كررنا التأكيد في هذا الكتاب على أن الموضوع المشترك والعام لكل الدراسات الانسانية هو التعبيرات ، فهل يمكن أن نميز العلوم المختلفة طبقاً لاختلاف مجموعات التعبيرات التي تعالجها ؟ ان هذا الرأي يبدو معقولاً وشديداً الاحتمال ، اذ التعبيرات الوجهية تؤلف موضوع عالم النفس لكنها ليست موضوع المؤرخ أو عالم الاقتصاد ، والمؤرخ قد يجد اهتماماً مهنياً في تسجيل معاهدة سلام ، ولا يشاركه في ذلك عالم الاجتماع أو عالم الاثربولوجيا الاجتماعية . لكن هذا المدخل — رغم ذلك — قد يؤدي على المدى البعيد الى الغموض والتضليل أكثر مما



يؤدي الى المساعدة ، وذلك لأن التعبيرات التي لا حصر لها قد تمثل اهتمامات لعدد من العلوم المتفاوتة فالجريمة مثلا يمكن أن تكون موضوع اهتمام عالم النفس وعالم الاجتماع والمؤرخ وعالم الاقتصاد . ان التعبيرات يجب أن تفهم من خلال سياقاتها ، ولهذا فأنني اقترح هنا أن يتم تحديد العلوم المختلفة في ضوء سياقات تعبيراتها . فكل علم يختص بسياقات تعبير تختلف عن سياقات تعبير علم آخر .

وسياق التعبير هو شبكة من التعبيرات المترابطة التي تقع فيه ، وتساهم معه ، وتفهم من خلاله ، فالشعر وتاريخ حياة الفرد ونادي الجولف هي تعبيرات من هذا النوع ، كما أن أنماط السياقات المختلفة يمكن تمييزها . وسوف أقدم تعريفات لهذه التي تبدو مناسبة . ان السياق يكون :

من حيث الموضوع Thematic اذا ربط بين تعبيرات تتميز بأثبات ذات محتوى عام مشترك . ان كل ملخصات الكتب وكل رسوم مادونا Madonna ( وهي صورة العذراء مع السيد المسيح ) هي من هذا النوع .

تصنيفيا Classificatory اذا ترابطت التعبيرات فيه على أساس التشابه ، ومثال ذلك « كل التعبيرات الموسيقية » أو « كل الكتب المساعدة » .

وظيفيا Functional اذا كانت التعبيرات فيه ذات علاقة ببعضها البعض في بناء يخدم أغراضا معينة ، ويمكن فهم كل منها في ضوء دوره الذي يقوم به . ان الشعر أو الجامعة هي من الامثلة على ذلك .

تاريخيا Historical حينما يتكون من سلسلة زمنية من  
التعبيرات يؤثر فيها السابق على اللاحق تأثيرا كبيرا • ان تاريخ الفلسفة  
خير مثال على ذلك •

وجوديا Existential اذا تكوّن من تعبيرات ذات موضوع  
واحد، أو كيان يدوم في زمان • ان كل ما يقوله الانسان أو يفعله ويكون  
جزءا من حياته يكون سياقاً من هذا النوع •

ويجب أن نضيف الى تلك التعريفات بعض التعقيبات التفسيرية  
منها أن السياقات لا يجب أن يستبعد بعضها البعض الآخر ، فعلى سبيل  
المثال يكون للكتاب سياقاً وظيفياً حيث تخدم فيه كل فقرة وكل فصل فكرة  
معينة يكون لها دورها الوظيفي بالنسبة للكتاب ككل • لكن بما أن هذا  
الكتاب نفسه يتحدث عن موضوع جزئي معين فيلزم أن يكون له أيضا  
سياق يتصل بالموضوع •

ان التعبير دائما ما يحدث في سياق ، أو يتعلق بسياق أو عدد  
من السياقات ، لأن من طبيعته أن يشير الى ما وراءه • وهذه الإشارة  
نفسها عبارة عن علاقة • ونحن لا يمكن أن نتصور التعبيرات على أنها  
وقائع ذرية تتقوم بذاتها ويمكن ادراكها وهي منعزلة عن بعضها البعض  
كما ذهب الى ذلك فتجنشتين ، فالأمر عكس ذلك تماما ، اذ التعبيرات  
كلها يكون لها سياقات تصنيفية وأخرى وجودية ، ومعظمها يتضمن  
بعضها البعض الآخر • كما أن كل تعبير وان كان ناتجا عن فرد ما الا أنه  
يشبه ذاته عند الآخرين ، بالاضافة الى أن الكثير من التعبيرات الحالية  
تتأثر بتعبيرات سابقة تساهم معها ومع تعبيرات أخرى في تحقيق غرض ما •

ان هذا لا يعني فقط تحديد السياق العيني من وجهات نظر متعددة،

بل يمكن أن يعني أيضا أن نفس التعبير قد يكون له مكانا في سياقات مختلفة عديدة في نفس الوقت ، ومن ثم فيمكن أن نعتبره بمثابة نقطة تدخل هذه السياقات ، ان التعبيرات في سياقاتها ليست كقطع الرخام التي يمكن أن توضع في صندوق واحد في نفس الوقت اذا لم يكن الصندوق الكلبي موضوعا في صندوق آخر ، انك اذا أخذت تعبيرا من سياقه فانه لا يبقى كما هو ، كما تبقى قطعة الرخام على ما هي عليه اذا أخرجتها من صندوقها . فاذا كنت ألعب الجولف ، فان الدائرتين تلتقيان في نقطة واحدة ، فاذا تحرك واحد من هذين السياقين ، فان التعبير تتغير طبيعته .

ان معظم التعريفات التي أعطيناها للسياقات هي تعريفات مستقيمة وواضحة ، وسوف يتضح لنا كيف يمكن لهذه التعريفات أن تميز بين العلوم ، حيث يعالج الاقتصاد التعبيرات الاقتصادية، ويعالج الدين المقارن التعبيرات الدينية ، لكن ألا تمثل التعبيرات الاقتصادية والدينية موضوعا للتاريخ ؟ ان سياقات الموضوع تلعب نفس الدور أيضا ، فالسياق الذي يتكون مثلا من كل تعبيرات الوطنيين الانجليز هو موضوع علم السياسة في المحل الأول ، لكنه أيضا قد يكون موضوع اهتمام المؤرخ وعالم الاجتماع وعالم النفس . كما أن دراسة بعض السياقات الوظيفية مثل « عمل المصنع » قد تدخل كموضوع دراسة لعدد من العلوم ، ضف الى ذلك أن السياقات التاريخية وان كانت الموضوع الواضح لعلم التاريخ الا أنها يمكن أن تستخدم أيضا في دراسة تاريخ الحالة بالنسبة لعلم النفس ولعلم الجريمة . وأخيرا فان السياقات الوجودية تلعب دورا هاما في العلوم المتميزة بواسطة تحديدها للكيانات التي تكون محل دراسة .

ان النقطة الأخيرة تحتاج الى تفسير أكثر ، فاذا أردت حين الحديث عن السياقات الوجودية أن أقول بأن التعبيرات جزء من حياة الأفراد وحسب ، فاقني آكون مذنبا لو عبرت عن نفسي بطريقة مجردة غير

ضرورة • انني أرغب في أن أدعو أيضا الكيانات — وهي ليست ناسا —  
 بالسياقات الوجودية لأنها تؤلف موضوعات علوم عدة ، ولأنها تستخدم  
 في تعريف أو في تحديد تلك العلوم • ان المجتمع والأمة والطبقة والثقافة  
 والعمر والحضارة والدولة هي كيانات من هذا النوع • نعم قد يعترض  
 على هذا ويقال أن هذه لا يجب أن تكون كيانات ، فهي في نهاية الأمر  
 لا توجد بنفس المعنى الذي توجد به الأشياء الفردية وأفراد الناس ، كما  
 أنها لا تمتلك حياة عقلية تستخدمها في التعبير عن ذاتها ، اذ كل  
 التعبيرات تتاج أفراد ، أي تتاج كيانات لها وجود فيزيقي مستقل ، ووجود  
 مستمر في الزمان ، وحياة عقلية تكون تعبيراتها هي الشاهد الخارجي  
 الوحيد عليها • ان المجتمعات والدول ... الخ ليست الا أسماء لتجمعات  
 من الأفراد ، وللعلاقات القائمة بين بعضهم البعض ، ولنشاطاتهم العامة ،  
 كما أن التعبيرات الجمعية كالألعب وترنيمات الجوقة والرعب الجماعي  
 ليست الا تجمعا أو نسقا من التعبيرات الفردية ، واذن فحينما نتحدث  
 عن ارادة الأمة أو أفعال الدولة ، فيجب ألا ننسى أن الأفراد فقط هم  
 وحدهم الحاصلون حقيقة وبالمعنى الدقيق للكلمة على الارادة والفعل •

كل هذا حقيقي ، ولم يكن في نيتي أن أقدم نظرية ميتافيزيقية  
 تناقض وجود الكيانات ، فعلى الرغم من أن الاعتراض على دعوة الأمم  
 والدول والمجتمعات بأنها كيانات تكون سياقا وجوديا ، يمكن أن يصبح  
 اعتراضا مسيطرا وسائدا اذا عرفنا هذه الكيانات بطريقة معينة تبين كيفية  
 معرفتها وفهمها تجريبيا ، فلقد حددت تلك الكيانات بأنها سياقات ثابتة  
 نسبيا ، وتدوم زمانيا ، ويمكن أن تشير اليها بعض التعبيرات كأمر  
 اصطلاحي ومنهجي • ان تجمع أمثال التعبيرات الأخيرة يكون الدليل  
 أو الشاهد التجريبي على وجود تلك الكيانات •

والواقع أن هناك شواهد وأدلة غزيرة على وجود تلك الكيانات ، ونحن غالبا ما نجد ذلك حينما نسأل عن تلك التعبيرات التي تعبر عن شيء أكثر من ، أو عن شيء آخر غير أفكار ومشاعر ومقاصد الشخص الذي ينتجها ، فشراء الزوجة لاحتياجاتها من السوق ، ومحادثات رجل السياسة ، ومبادرة رئيس الوزراء قد تعبر عن قرار عائلي ، أو برنامج حزبي ، أو سياسة قومية • ليس ثمة غموض في هذا ، فلأن الناس يتأثرون بالعادات والاصطلاحات ، ويتفاعلون مع بعضهم البعض ، ويتوصلون الى حلول وسط ، ويلتزمون بقرارات الأغلبية ، ويفكرون في ضوء الاهتمامات الجماعية ، فاننا يمكن أن نتحدث عن مشاعر الأسرة ، أو عن برنامج الحزب ، أو عن أهداف النادي ، أو عن ارادة الأمة • ان الأفراد يعبرون عن كل من الاتجاهات الشخصية والاتجاهات الجماعية ، وربما يكون هناك نوع من الصراع بين هذين النوعين من الاتجاهات ، فأنني كمواطن يمكن أن أحسن ضريبة الدخل القومي ، وان أوجه لوما لرئيس الوزراء ، ولكنني كفرد أو شخص فأنني أكره دفع الضرائب ، وأكون غير مكترث بالفئات التي تعاني من فرد ما لا أعرفه •

وخلال تلك التعبيرات نستطيع أن نفهم المجتمعات والأمم والأعمار والنظم ، وألا يقتصر فهمنا على الأفراد وحسب • وهذا يعني أننا نستطيع أن نفهم الأفكار والمشاعر التي يتفق عليها أو يتشارك فيها عدد من الأفراد ، وأن نفهم أيضا الأفكار أو الأهداف التي تجسّد المؤسسات أو النظم العديدة ، رغم أن المؤسسات أو النظم أو الأمم •• الخ لا تفكر ولا تشعر ولا تتمتع بمقاصد أو نوايا • ولكن لما كانت السلسلة الكلية لأفعال الفهم لها موضوع عام مشترك يدوم في الزمان فاننا نستطيع أن نتحدث عن كيان يمدنا بسياق وجودي • ان هذه الشروط يمكن أن تتحقق بشدة أقل أو أكثر في حالات مختلفة ، بحيث يصبح ما ندعوه بالكيان أمرا تجريبيا • وفي بعض الحالات قد نجد

التعبيرات نادرا ما تصف كيانا مثل العمر ، ومن هنا تعوق استخدام العمر على أنه كيان •

ان المغزى الابستمولوجي للنقاش السابق يكمن في رفضه للمذهب الفردي المنهجي Methodological individualism الذي ارتبط أحيانا بنظريات الفهم • لقد تعارف الناس على أن الفهم اذا كان مهتما بالمحتوى العقلي الفردي الذي تكشفه التعبيرات ، فان المدخل السيكلوجي سوف يكون المدخل الرئيسي لكل الدراسات الانسانية ، وأن علينا - أيا ما كانت دراستنا - ان نركز على النشاطات العقلية المتضمنة في الفرد الانساني • ان مثل هذا التصور فاسد وخاطيء ، ذلك لأن الاستيعاب الواضح لما تكون عليه التعبيرات ، وكيفية تعامل الفهم معها ، يبين أن الفهم يمكن أن يكشف عن المحتوى العقلي دون أن يشير الى عمليات عقلية خاصة بالأفراد ، فنحن يمكن أن نفهم النظام الانجليزي في ضوء أفكار وقيم وأهداف متجسدة فيه بدون الاشارة الى سيكلوجية الأفراد • ان السياق الوجودي يتمثل هنا في حياة الأمة • ولعله يكون أمرا يستحق التكرار هنا وهو أن هذا النقاش لا يتعلق بمسألة ميتافيزيقية ، ولكن يتعلق بمسألة ابستمولوجية • نعم يمكن أن يكون النظام الانجليزي نتاج عمليات سيكلوجية فردية لا حصر لها ، ولكن هذا ليست له أية قيمة ابستمولوجية ، خصوصا اذا علمنا أن باستطاعتنا فهم هذا النظام دون أن نفهم تلك العمليات السيكلوجية الفردية ( فنحن لا نستطيع أن نصل أو نحقق هذا النوع من الفهم الأعرق ) •



## ٢ - كيف تتكون السياقات \*

يجب أن نفحص الآن طبيعة السياقات على نحو أكثر عمقا وأن نتساءل عن ماهية العلاقات التي تربط التعبيرات في سياقات وكيف تتكون هذه الأخيرة ؟ ان اجابتي على هذا السؤال هي ان التعبيرات أو المحتويات العقلية على نحو أدق انما تترابط بواسطة وجودها في الوعي ، ومن أجل الوعي ذاته ، وأن السياقات تتكون ثمثذ بالأفعال العقلية \* ( ان التعبيرات تكون أيضا ذات علاقات زمانية ، باعتبارها كيانات فيزيقية لها أماكن حسية ، ولكن هذه لا تؤلف سياقات \* \* انها تكون في أغلب الأحوال شواهد على السياقات ) \*

ان مصطلحات : الوعي ، والمحتوى العقلي ، والفعل العقلي ، التي استخدمتها في اجابتي السابقة ، لا يمكن أن يحدد معناها بدقة ، لذا فيمكن فقط أن نلجأ الى ما هو مألوف أو أن نستخدم مصطلحات مرادفة ، ان المحتويات العقلية هي ما تعبر عنها التعبيرات ، والأفعال العقلية هي ما تنتج التعبيرات ، والوعي هو الاهتمام بالمحتويات والأفعال العقلية معاً .

ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نستخدم هذه المصطلحات لكي نبين بها كيف تتكون السياقات المختلفة ، فحينما تكون السياقات الوجودية أفراداً ، فان هذه السياقات تتكون بواسطة وحدة الوعي ( حيث ترتبط المحتويات العقلية حتى وان لم يكن بينها علاقات ، لأنها تخص شخصاً واحداً ) ، أما السياقات التصنيفية فانها تتكون عن طريق التعرف على التشابه القائم بين التعبيرات المختلفة ، وتتكون سياقات الموضوع من تكرار الاهتمام بموضوع واحد أو بنمط معين من الموضوعات مثل الزيارات المختلفة لرؤية صورة معينة ، وقراءة عدة كتب عن نابليون ،

وتتكون السياقات الوظيفية من الخبرة بالعلاقات الداخلية القائمة بين العمليات العقلية المختلفة في استجابتها لموقف واحد ، ومثال ذلك اذا رأينا شيئا وتعرفنا عليه ، فان الذكريات توقظ المشاعر ، والمقاصد تقود الى الحل وتؤدي اليه ، وتختار الوسائل لتحقيق الغاية • ( ان مثل هذه العمليات وما شابهها متضمنة في الفعل العقلي ) •

ومن أجل الدقة والضبط يجب أن نذكر أن حديثنا السابق يرتبط بنوع واحد من السياقات هي تلك التي توجد فقط في فهم شخص ما يعاين دائرة من التعبيرات • والواقع أن هناك نوعا آخر من السياقات وهو ذلك المتعلق باستيعاب أو استنتاج تعبيرات لا بواسطة شخص واحد ولكن بواسطة أشخاص مختلفين يتشاركون في اهتمام محدد أو في هدف معين ، هاهنا قد تجد الواحد منهم يقوم بجمع المعلومات الضرورية : والثاني يقرر الأولويات ، والثالث ينفذ الأفعال المطلوبة • ان مثل هذا يعتبر سياقاً وظيفياً ( حيث يقوم فيه كل فرد بدور معين يؤدي مع مجموعة الأدوار الأخرى الى تحقيق هدف ما ) • ان السياقات الوجودية والتصنيفية تتكون بنفس الطريقة •

ان كل العلاقات التي تتكون السياقات تخبر فعليا ، ويتم استيعاب معناها في ضوء المقولات التي ذكرتها في الفصل الثاني ( مقولات الكل والجزء ، والغايات والوسائل ، والقيمة والقوة ) كما تبدى أهميتها الاستمولوجية في تمييزها لموضوع الدراسات الانسانية عن موضوع العلوم الطبيعية ، فنحن نخبر النتائج ، وتتحد بحوادث الطبيعة ، ونصنع الفروض حول طبيعة الصلات القائمة بين تلك الحوادث •• نحن نخبر ذلك الذي يسقط لا كيف تسقطه الجاذبية الأرضية • ان خبرتنا المباشرة تتمثل في كيف يحفزنا الغضب الى الفعل •



ان أعظم العمليات العقلية أهمية في تكوين السياقات هو عمل الذاكرة . والذاكرة تتصل مباشرة بالسياقات التاريخية ، لكن السياقات الوجودية ، لما كانت مهتمة بالكيانات السابقة ، فلا يمكن أن تتصور أيضا بدون عمل الذاكرة هذا . كما أن السياقات التصنيفية وسياقات الموضوع ، لما كانت متضمنة للمعرفة ، فانها لا بد وأن تتضمن الذاكرة أيضا .

ويمكن أن ينقسم عمل الذاكرة هذا الى الحفظ Retention واعدادة التجميع Recollection . ان الحفظ هو الوعي بما يسبق الحاضر مباشرة ، انه يخلق حاضرا ممتدا هو وحدة واقعية من الخبرة ، وبدون الحفظ سوف لا توجد أية خبرة ذات معنى ، فنحن لا نستطيع أن نأخذ أية كلمة ، وأية عبارة ، أو أية نعمة دون أن نربط ما يحدث بما حدث توا في فعل واع واحد . ان هذه هي الحالة النموذجية المثلى للسياق التاريخي كما حددته . أما اعادة التجميع ، أو الذاكرة كما تستخدم عادة ، فهي الوعي بصورة أو بتصور عن خبرة مبكرة .

ان الطريقة التي تعمل بها الذاكرة تحتوي على ملامح ذات أهمية كبرى من الناحية الاستمولوجية . ومن الخطأ أن نعتقد بأن الذاكرة هي مجرد « ألبوم » من الصور تم التقاطها في الماضي بصورة عشوائية . وعلى الرغم من أنها قد تقوم بهذا الدور حينما نغمس في أحلام اليقظة ، فانها تلعب أيضا دورا مختلفا وأكثر أهمية في حياتنا العقلية . هاهنا تواجهنا الذاكرة بعنصر الالتقاء أو الاختيار المتأثر بأنماط ماضية ذات معنى ودلالة . وعمليات عقلية تتكون خلالها كل المعاني . لكن وعلى الرغم من تلك العمليات العقلية ، فاننا يجب ألا نعد نشاط الذاكرة نوعا من النشاط النظري كصيغة الفروض ، واستنباط تطبيقات من النظريات . ان نشاط الذاكرة تلقائي بنفس المعنى الذي تكون فيه رؤيتنا للموضوعات المرئية

تلقائية ، وذلك رغم احتواء الذاكرة على عمليات عقلية •

ان حياة الشخص الناضج عادة ما تنتظم حول عدد من النقاط المحورية : كالعمل والزوجة والأسرة والأصدقاء والهوايات وبعض الاعتقادات حول الأخلاق والسياسة والدين ، وكل واحدة من هذه تلعب دورا في حياته خلال مجموعة من الحوادث التي كونت أنساطا ذات معنى • دعونا الآن نركز على واحدة من هذه ولتكن « العمل » ، ولنسلم معا بأن هذا الرجل يعمل في « السياسة » ، فاذا ما اقتربنا منه عن كثب لوجدنا أن ثمة أنواعا معينة من الحوادث الهامة تسكن ذاكرته : فهو حينما كان طفلا ، كان يشتعل حماسا حينما كان يقرأ قصصا سياسية ، وكان اعجابه بعمه رجل السياسة الناجح ، اعجابا لا حد له ، وفي الجامعة كان تمرسه بالاقتصاد والسياسة ، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا للنادي السياسي ، وأعد بحثا عن الأحزاب السياسية ، وتقدم بنجاح في فهم النظام البرلماني ، وأصبح سكرتيرا برلمانيا وهلم جرا من المناصب السياسية • ان هذه الحوادث مثلت حجر الرقى في الطريق الذي تأدى به لا محالة الى مركزه الحاضر • نحن هنا أمام نمط له معنى • • فيه كشف للهدف وتحقق ناجح ، وهذا هو النحو الذي تبدو فيه حياتنا لنا •

يمكن أن نحكي قصصا مشابهة عن طريقة لقاء هذا الرجل (السياسي) بزوجه وزواجه منها • ان مثل هذه الأنماط هي بوضوح نتاج النظرة التاريخية التي تميز المدخل التاريخي • الا أن هذا الاختيار ( العمل السياسي في هذا المثال ) كثيرا ما يتعرض للانحراف أو التشبث ، فالشواهد المسجلة المتعاقبة في الزمان لا تصنع بوضوح هذا الاختيار الخاص ، فخيال رجل السياسة حينما كان طفلا يمكن أن يكون قد اشتعل حماسا بقصص المآثر الملاحية ، كما أنه يمكن أن يكون قد أعجب أيضا

بأقربائه من المحامين ورجال الآثار ، وهو قد تعلم أيضا الفلسفة الى جانب الاقتصاد والسياسة وكان عضوا بارزا في جمعيات خأرى غير النادي السياسي ، وقد كان عليه أن يقوم بأبحاث أخرى غير أبحاث العمل السياسي لكن ظروفنا خارجة عن ارادته جعلته يفشل في تلك الأبحاث ، ومن هنا نعلم بأن الخبرات التي قادت طريقه الى وضعه الحالي أو عمله الحالي قد وقفت الى جانب خبرات أخرى لها نفس الأهمية ، ونذكر أن ليس ثمة طريق حتمي يمكن أن نميزه ، ولا هدفا واحدي الاتجاه يمكن أن نكتشفه . فحين لا نستطيع أن نتنبأ كيف ستختار الصدفة أو الظروف المتفاوتة امكانية محددة من بين امكانيات لا حصر لها ، وأن نتج نتائج معينة . وفي الأغلب فان التنبؤات الأولية لدائرة التطورات الممكنة قد تكون ممكنة وغير مستحيلة . يمكن أن نقول « ان هذا الشخص لا يمكن أن يكون موسيقارا ، يمكنه أن يكون سياسيا ناجحا » لكن معنى قولنا هذا يصبح واضحا اذا نظرنا لا الى الامام ولكن الى الخلف . الى الزمان الماضي . حيث يمكننا رؤية مجموعة الحوادث المؤدية الى مجموعة من الظروف التي تكثون نمطا له معنى .

ولعل هذا يفسر لنا قيام ما يمكن أن نسميه بالخداع البصري للمذهب الحتمي الذي يذهب الى أننا حينما نتعقب سوابق حادثة ، فان الحادثة لا يمكن لها الا أن تحدث . لكن يبدو أن الأمر ليس على هذا النحو فيما يتعلق بما يقع قبل الحادثة ، فالظاهر أننا نواجه باحتمالات مفتوحة يمكن أن نختار من بينها احتمالا معيناً . ان الصراع بين الحتمية وبين الحرية - على الأقل - بالنسبة لهذا الكتاب هو صراع أوضح من الواقع نفسه ، أنه يتعلق هنا ، بالنظر الى العمليات من منظورات مختلفة .

ان الأنماط لا تثبت مرة واحدة والى الأبد ، فان تغير ظروف

الشخص قد يقوده الى اعادة الترتيب الكلي للنمط ، فاذا توقف ( رجل السياسة ) عن العمل السياسي وأصبح محاضرا في الاقتصاد فان اتجاهات مختلفة من ماضيه في العمل السياسي سوف تظهر مباشرة فسي عقله ، وتكون واسطة أو سلما لعمله الحالي ، كما أن عمله السابق سيكون له معنى جديدا ، اذ سيصبح بالنسبة اليه كهواية ، أو ربما يضمحل ، أو ربما اعتبره كمجرد اعداد عملى لعمله الجديد . ان الذاكرة دائما ما تعيد ترتيب نمط الماضي وهي بازاء أي منظور جديد متميز . ولما كان الجديد يتأثر بفيض الماضي ، ولما كنا نتناول الماضي ونعالجه معالجات مختلفة ، فيبدو أن الماضي يحتاج باستمرار الى معنى جديد . وهكذا تمدنا خبرتنا بالعمل الاتقائي أو الاختياري للذاكرة والذي يتطلب الماضي من خلاله نمطا ، وتبدى الحوادث فيه كمراحل من التطور أو كفصول لعقبة — تمدنا — ببعض الشروط الاستمولوجية اللازمة في تكوين السياقات .

ومن الطريق الذي تختار الذاكرة وترتب وفقه الخبرة السابقة في ضوء الحاضر ، دعونا نعود الى الطريق الآخر الذي تؤثر فيه عمليات الذاكرة في الحاضر : ان استجابتنا لأي خبرة يكون محتما دائما بالذكريات . فنحن نتعرف ونصنف ما نواجهه ، أو نفشل في ذلك ، ونشعر بأن هذا مألوف أو غير مألوف ، وأن هذا هام أو غير هام في ضوء خبرتنا السابقة . أنا لا أحتاج الى أن أستعيد كل صور الذاكرة عن الكلاب لكي أعرف على الحيوان الذي يقف أمامي ، ولكن اذا لم أعيد جميع تلك الصور بطريقة تلسكوبية فأنني لن أستطيع أن أعرف على الكلب . واذا استنتجت أن ليس في مقدوري أن أعرف على هذا الحيوان ، فان هذا الاستنتاج انما قد أقيم على محاولة — وهي غير ناجحة في هذه الحالة — ربط الانطباع الحالي ببعض صور الذاكرة .

ان تأثير الذاكرة على الخبرة تأثير تراكمي ، واذا كان الأمر كذلك

فلن يكون ثمة تكرار في خبرتنا ، فإذا أسقطت حجرة مرتين ، فإنها ستسلك نفس الطريق في الحالتين ، لكنني اذا أخذت طفلا الى باريس مرتين فانه لن يتصرف نفس التصرف في المرتين ، لأن الخبرة في المرة الثانية تختلف عنها في المرة الأولى . . يمكن أن آخذه لنفس الفنادق . وأن أجعله يزور نفس المتاحف ، لكن المرة الثانية تختلف عن المرة الأولى لأنها ببساطة خبرة تالية للخبرة الأولى . ان كل التعبيرات تقوم فسي سياقات تاريخية، لأن أي محتوى عقلي تعبر عنه انما يصنع بوعي الخبرات السابقة .

ان العمليات التراكمية لا تخص الكائنات الانسانية وحدها ، ذلك لأن الموضوعات، بما فيها أجسامنا ، تتأثر بنفس الطريقة ، فالضرب المتراكم بالمطرقة قد ينتج تغيرا تراكميا في قطعة من المعدن ، يمكن أن تنكسر قطعة المعدن هذه أخيرا لا بسبب أن الطرقة الأخيرة كانت مختلفة عن الطرقات الأخرى بل لأنها كانت الطرقة العشرون . كما أن العملية التراكمية المشابهة لذاكرتنا يمكن أن تلاحظ في معظم ان لم تقل في كل الحيوانات ( فالحيوان يتعلم من تراكم الضربات ) . أما الاختلاف الجذري الذي يميز الانسان عما عداه فانه يرجع الى استخدامنا للتعبيرات . وبما أننا يمكن أن نفهم ضربات الآخرين ، فهي يمكن أن تؤثر فينا بالفعل كما لو كانت خبراتنا ، فالعملية التراكمية التي تشابه تلك التي تنتج عن عمل الذاكرة والتي لا ترتبط باعادة جميع الخبرات الشخصية يمكن أن تحدث ، ومثال ذلك فقد أتعلم شيئا مما يحدثني أبي عنه من خبراته ، كما أن خبرتي بالحرب يمكن أن تأخذ نمطا وسطا من بين كل ما قرأته عن الحروب ومن ثم فهناك اتصال وتطور يعلوان على حدود الحياة الفردية . . هناك تقاليد وتاريخ للانسان وليس ذلك للكلاب .

ان العمليات الأخرى مثل اختيار ذاكرة الفرد لما يبدو هاما وله مغزى في ضوء الحاضر يمكن أن تحتل مكانا آخر في سياق تاريخي أكبر •  
 ان كل جيل يواجه مشاكله التي تخصه وحده ، ويضع أهدافه الخاصة، ويختار ما يبدو له هاما من الماضي، ويعيد كتابة التاريخ ، ومن هنا تتكون السياقات التاريخية •

لقد استكملنا الآن الاعداد لتعريف العلوم المختلفة، ولقد رأينا أن التعبيرات توجد ضرورة في كل السياقات، وبيئنا كيف تكون السياقات في الوعي من خلال أفعال عقلية مختلفة ، وخصوصا عمل الذاكرة • ان كل التعبيرات تقوم في سياق حياة الفرد وقد تأخذ مكانا في سياقات أخرى وجودية وتاريخية ووظيفية وتصنيفية وسياقات موضوع ، وهذه تؤلف شواهد أو أدلة على كيانات أخرى غير الأشخاص، وتمدنا بأساس فهم هذه الكيانات •  
 ان بعض هذه الكيانات هي موضوع العادات أو التقاليد بالنسبة الي •

## الفصل التاسع

التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع

- ١ - المدخل التاريخي •
- ٢ - المدخل السيکولوجي •
- ٣ - المدخل الاجتماعي •





## التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع

### ١ - المدخل التاريخي •

سوف نحدد في هذا الفصل ونناقش ثلاثة علوم انسانية كبرى هي التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع طبقا للمصطلحات التي وصفناها من قبل • وسوف نعالج هذه العلوم على أنها علوم انسانية ، وعلى أنها دراسات تهتم بالتعبيرات دون الاهتمام بالوقائع الطبيعية الصلبة • وسوف نركز الانتباه على الموضوع الخاص بكل علم منها ، وعلى مختلف سياقات التعبير والمناهج التي تستخدمها • وهذا سوف يمهّد الطريق أمام مناقشة عن الاعتماد الداخلي القائم بينها •

ولقد اخترنا هذه الثلاثة لأنها توضح فيما بينها المداخل الرئيسية المختلفة المستخدمة في الدراسات الانسانية بحيث أن اضافة قائمة طويلة من العلوم لن يؤدي الا الى اعاقه النقاش دون الاسهام بشيء له مغزى • وهناك تضادان قائمان بين تلك المداخل الثلاثة : التضاد الأول يقوم بين المدخلين التاريخي والنسقي وهو ما يميز التاريخ عن العلمين الآخرين ، والتضاد الثاني يقوم بين دراسة الأفراد وبين دراسة الكيانات الأخرى وهو ما يميز علم النفس عن علم الاجتماع ، أما التاريخ فيتخذ لنفسه موقفا وسطا •

سوف ننظر في المدخل التاريخي أولا • والتاريخ بمعناه العريض هو دراسة سلسلة من الحوادث الزمانية الخاصة اللا مرتدة والتي يؤثر فيها السابق على اللاحق • وأقول ( خاصة ) لأن أي نظرية علمية لا تهتم

بدراسة ما هو خاص وانما تركز اهتمامها على سلسلة حوادث باعتبارها أنماط • والواقع أن وصف الحوادث الثقافية التي يؤثر بعضها في البعض الآخر هو أمر هام ومن ثم فإن قولنا بأن الشمس أشرقت بالأمس كما أشرقت اليوم لا يعطينا وصفا تاريخيا ( اذ لا يؤثر اشراق الشمس بالأمس على اشراقها اليوم ) •

ان التاريخ بمعناه العريض لا يكون دراسة انسانية وحسب ، اذ يمكننا من خلال هذا المعنى العريض أن نتحدث عن تاريخ الأرض وعن التاريخ الطبيعي • ولقد كانت هذه الفكرة متمثلة في عقل الاستاذ ناجل Nagel حين كتب في كتابه « منطق التحليل التاريخي » يقول « لا يوجد ثمة أساس — مع ذلك — للدعاء بأن الدراسة التاريخية تنجبه الى تقييم الحادثات الانسانية ... ذلك لأنه على الرغم من أن معظم المسائل التاريخية تهتم بلا شك بالحادثات من ذلك النوع ( الانساني ) فانه توجد لدينا أيضا أبحاث عديدة تطلق عليها أنها تاريخية وتكون من طبيعة أخرى غير هذه ، مثال ذلك الأبحاث المتعلقة بتطور النجوم والأنواع البيولوجية وغيرها كثير » •

ويذكر الأستاذ ناجل في هذا الصدد أن الاستخدام الضيق للتاريخ باعتباره دراسة للحادثات ذات القيمة التي لا يرقى اليها الشك مثل الشئون الانسانية هو استخدام غير تعسفي ، وأنه يمكن تبريره بالاختلافات المنهجية الهامة القائمة بين التاريخ الانساني وبين التساريخ الطبيعي ، كما أنه استخدام يحترمه الذوق العام • • يستطيع أي انسان أن يفكر مثلا تفكيراً تلقائياً بأن الانسان الذي يوصف في البحث التاريخي هو عالم فلك ؟ لكن اذا اشرت الى الاستخدام العريض على أنه دراسة انسانية فأنني لا أستطيع الدفاع عن هذا الاستخدام • ان المعنى

الضيق للتاريخ يجعله منصبا على دراسة سلسلة التعبيرات الخاصة  
اللامرتدة التي يؤثر فيها السابق تراكميا على اللاحق • ( ويجب أن تذكر  
أن الاحداث أو الأفعال هي تعبيرات ) •

وطبقا لهذا يتكون المدخل التاريخي من محاولة فهم التعبيرات  
ورؤيتها في علاقاتها بسياقاتها التاريخية ، وفهم السياق الكلي بواسطة  
الانتقال من تعبير الى آخر • ان عمليتي فهم التعبيرات في سياقاتها وفهم  
السياقات من خلال تلك التعبيرات عمليتان متداخلتان تعتمد الواحدة  
منهما على الأخرى ، والباحث هو الذي يؤكد على واحدة منهما حسب  
اهتماماته ومعارفة •

ولما كنا نهتم بوجه خاص بالعلاقات الداخلية القائمة بين العلوم  
فيجب أن نلاحظ نقطتين عن تلك العلوم فيما يتعلق بالمدخل التاريخي :  
النقطة الأولى ؟ هي أن المدخل التاريخي رغم أنه تاريخي أصلا ، الا أنه  
لا يتحدد في اطار التاريخ وحده ، انه مدخل يستخدم في كل العلوم  
الانسانية ( بالمعنى العريض لتلك العلوم ) • فدراسة تاريخ الحالة لا غنى  
عنها بالنسبة الى دراسة الجناح في علم النفس ، كذا الصراع العائلي  
أو المرض العقلي ، كما أن تاريخ حدوث هبوط الأسعار قد يكون مفيدا  
لعلم الاقتصاد ، علاوة على أن تقدم بعض النظم والأفكار يمكن أن يكون  
ملائما للبحث الاجتماعي ، ويكفي هنا فقط أن نفكر في استخدام ماكس  
فيبر للشواهد التاريخية ، ضف الى ذلك أن تسجيل بعض التجارب العلمية  
قد يلعب نفس الدور فني الفيزياء أو الكيمياء • وهكذا يطبق  
المدخل التاريخي على موضوع خاص بعلم ما أحيانا كدراسة تاريخ الحالة  
في علم النفس ، وعلى النتائج الخاصة بالدراسات التاريخية والملائمة  
لتاريخ الاقتصاد ولتاريخ النظريات الاجتماعية في أحيان أخرى •

ونظرا لأن الفهم يهتم أساسا بالتعبيرات الفردية ، وبالأفكار والأفعال الخاصة ، ونظرا لأن حياة الأفراد تمثل اهتماما ثابتا لنا ، فإن التاريخ والشواهد التاريخية المستخدمة في العلوم المتفاوتة لهما أهمية خاصة في الدراسات الانسانية . ان تحليل فرويد لنفسه وما كتبه عن يوميات فتاة مراهقة يثير اهتمامنا حتى بعد تطور نظريات التحليل النفسي ، وحدث هذا بسبب المنظور التاريخي ، وبالمقارنة فإن التجارب الخاصة بالعلوم الطبيعية تصبح غير مهمة فور أن يتم تأسيس النظرية . وعلى هذا يمكن أن نقول بأن الدراسات الانسانية ذات طابع تاريخي يميزها عن العلوم الطبيعية .

أما النقطة الثانية فهي ترتبط بما سبق أن لاحظناه من أن الارتباطات القائمة بين محتويات يمكن خبرتها ، وأن هذه الخبرة يمكن أن تسترجع بواسطة الفهم . لكن علينا أن نسأل كيف يحدث هذا ؟ اننا نعلم أن قيصر استلم رسالة من روما ، ومن ثم اجتاز ( الرويكون ) — وهو نهر في شمال إيطاليا — كيف نفهم الارتباط بين هذين التعبيرين ؟ ان جزءا من الاجابة على هذا السؤال ترجع الى الفتنا بالطبيعة الانسانية لكن هذه لا تمثل الاجابة كلها والا لتوقفت معارفنا . نعم ان بعض الناس يمتلكون ما يمكن تسميته بالقدرة الحدسية ، لكنني أرفض أي تفسير لعمل الفهم في ضوء مثل هذه المواهب الخاصة ، ان الاجابة هي أنه لكي نفهم هذين التعبيرين ، فيجب أن نضعهما في سياقات أخرى غير تلك التي حدثت فيهما . نحن نعرف أن هذين التعبيرين من نمط معين لكننا يمكن أن نضعهما في سياق تصنيفي نستخدم فيه معرفة نسقية مطلوبة لعلوم أخرى ، وهذا يعني أننا نفهم الارتباطات القائمة بين التعبيرات الخاصة بالسياقات التاريخية بواسطة النتائج العامة للعلوم النسقية .

وباعتبار أن التاريخ علم انساني فانه يرتبط أيضا ويعتمد على الابحاث الطبيعية بنفس الطريقة التي ذكرناها توا ، فالوقائع الجغرافية واوجه التقدم التكنولوجي يتم توظيفهما كشروط وآليات . كما أن الأفعال الانسانية يكون لها نتائج فيزيقية نحتاج الى ان نضعها موضع الاعتبار ، بل أن التعبيرات نفسها يمكن أن تفحص كوقائع فيزيقية .

ان النهج الواقعي للتاريخ يرتكز على افتراض عام يغلف كل أفكارنا عن العالم ، وبدون هذا الافتراض يبقى هذا النهج مربكا أو مجيرا . وهذا الافتراض هو أن الحاضر يكون نتاج الماضي ، وأن كل حالة من الحالات التي تحدث في لحظة خاصة تكون نتاج حالات سابقة عليها .

وها هنا يقوم السؤال التالي : كيف يمكن أن نختار سوابق أي موقف من وقائع الماضي التي لا حصر لها ؟ ان جزءا من الاجابة على هذا السؤال يكمن في عمل الذاكرة الانتقائي وفي الاحكام التي نصنعها طبقا لمقولات المعنى ، كما أن الاهتمامات والمشاكل التي تواجه الباحث أو تواجه جيله يمكن أن تلعب دورها أيضا ، علاوة على أن العلوم النسقية تمدنا بالدليل على أهمية ارتباطات معينة .

ان التاريخ يحاول أن يؤلف قصة ذات مغزى من سلسلة التعبيرات أو من تجمعاتها ، وكل تجمع من تجمعات التعبيرات تكون فريدة لأنها نتاج عملية تراكمية ، ومع ذلك فيمكن ايجاد تجمعات متشابهة منها تكون سياقات تصنيفية ( فكل حرب تختلف عن الأخرى ، ولكن يمكن أن يكون هناك شيئا مشتركا بين الحروب ) . ان مغزى القصة لا يأتي بواسطة اكتشاف نمط سبق انتظامه ، أو حركة هادفة نحو تحقيق غرض مفرد فهذا قد يكون مثار اهتمام الفيلسوف أو رجل الدين لكنه لا يهم المؤرخ . ان المؤرخ يجعل القصة ذات مغزى أولا عن طريق اعادة استيعاب المعنى

الذي حواه الناس في الماضي ووصفوا به موقفهم آنذاك ، وثانياً عن طريق ترتيب العناصر وفقاً لأحكام المؤرخ الخاصة على ذلك المعنى الذي كان في الماضي •

ويجب أن يكون واضحاً من كل ذلك أن التاريخ على الرغم من أنه يختلف جذرياً عن سائر العلوم الأخرى فإنه يمكن أن يكون علمياً بمعنى أنه يستخدم الخطط العقلية ، وينفذ نسقياً في بناء الدراسات الأخرى التي تتضمن الفيلولوجيا والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع •

ولقد ثارت مشكلة ميتافيزيقية زائفة حول المسألة التاريخية ، ادعت بأن التاريخ يجد نفسه في حالة خاصة من الاهتمام بالماضي النهائي الذي يتعذر تغييره ، إذ لما كان الماضي - حسب تعريفه - لا يوجد الآن ، فإن موضوع التاريخ يكون موضوعاً غير واقعي ، وتكون قضاياها غير قابلة للتحقق من صحتها من حيث المبدأ • لكن ألا تكون تجارب العالم الفيزيقي قد مضت أيضاً ولا وجود لها بعد أن يكتب بحثه تماماً كموت قيصر الذي يمنع المؤرخ من استعادته حين الكتابة عن أعماله ؟ الواقع أن التجارب العلمية يمكن تكرارها ، كما أن التجارب المناسبة يجب أن تكون متضمنة في بحث عالم الفيزياء وهذا يمثل تحدياً للعلماء الذين يرغبون في تغيير نتائج هذا البحث إذ عليهم أن يرجعوا عن مثل ذلك التغيير بواسطة رجوعهم إلى نفس التجارب مرة أخرى • أما في التاريخ فلا يمكن لأحد أن ينظر مرة أخرى في قيصر لكي يرى اجتيازه لنهر الروبيكون •

وحينما نستوضح بدقة تلك المسألة في ضوء التعبيرات ومحتوياتها فإن المشكلة تتلاشى • أن التعريفات في ضوء التعبيرات والسياقات والمعنى

والفهم المعطاة سابقا في هذا الكتاب قد وضعت لكي تكشف سر  
المكانة الابستمولوجية لأبحاث الدراسات الانسانية • وسوف تبرهن تلك  
التعريفات على نفعها اذا مكتتنا من ازالة الصعوبة الحالية •

ان التاريخ مثله في ذلك مثل سائر الدراسات الانسانية يعالج لا  
محالة التعبيرات التي تكوّن الشواهد أو الأدلة على كل القضايا • وفي  
حالة التاريخ تكون التعبيرات تعبيرات باقية ، كالخطابات واليوميات ،  
وأوصاف شاهد العيان، والأوراق الرسمية، والتسجيلات الكنسية، والعملية،  
والمباني ، والمقابر • ونادرا ما يشاهد المؤرخ الحوادث التي يسجلها ••  
انه يعالج المراتب أو الأصوات من خلال أوصاف غير مباشرة ، كالصور  
أو تقارير شاهد عيان •• انه يحاول أن يفهم تلك التعبيرات ، والمناهج  
التي يستخدمها من أجل هذا الفهم هي تلك المطلوبة بالنسبة الى كل  
فهم •• وينتج عن فهمه للتعبيرات فهمه لبعض المحتوى العقلي ، ولما كان  
الناس يفكرون فيه ، وما كانوا يرغبونه ، وفهمه أيضا للأسباب التي  
تأدت بهم الى القيام بالأفعال التي قاموا بها •

والمثال التالي سوف يبين لنا بالتأكيد عدم صحة ما يسمى بالماضي  
الميت Dead past : أن صديقي X يتحدث معي في حجرتي ،  
واستطيع أن أفهم حديثه وأحس بما يشعر به اذا تحققت شروط معينة ،  
لكن افرض انه بدلا من أن يراني أرسل الى خطابه ، فهل يمكن لهذا  
الفعل أن يخلق مشكلة جديدة ؟ بالطبع لا • نعم ان التعبير قد فقد حيويته  
لأنني لن أتمكن من سبر تغيير نبرات صوته من الخطاب ، لكن يمكنني  
بالطبع أن أدرس الخطاب بعناية ، وفي فسحة من الوقت ، وعلى أي  
حال يمكنني أن أفهم خطابه ، باختلاف بسيط تماما كما أفهم كلماته  
الملفوظة • لقد عملت من الخطاب بما كان يشعر به بالأمس ، ولكن ربما

تغير شعوره اليوم ، ومن ثم فأنني أقوم بعملية فهم لشيء من ماضي حياته العقلية ، ويبدو لي أنني أفهم هذا الماضي بنفس الطريقة التي فهمت بها كلماته الملفوظة • افرض أن صديقي مات خلال الليل بحيث يكون ما فهمته من الخطاب جزءا من حياة عقلية تنتمي الى الماضي •• انني أستطيع رغم ذلك أن أفهم معنى خطابه •

أأكون قد قدمت مسألة ابستمولوجية جديدة اذا كان الخطاب الذي قرأته قد كتبه قيصر أو نابليون ؟ انني لا أعتقد ذلك ، فمن حيث المبدأ تكون مشكلة فهم التعبير هي كما هي عليه • لقد تعرفت على X منذ زمن طويل ، ومن ثم أصبحت لدي القدرة على فهمه وفهم خطابه ، لكن هذا لا ينطبق على فهمي لخطاب كتبه نابليون ، اذ لكي أفهم هذا الخطاب الأخير فيجب أن أكون حاصلا على معرفة بالسياقات المناسبة ، ويجب أيضا أن أتمثل تعبيرات أخرى لكي ادرك حالة العصر ، والمسائل السائدة فيه ، والقيم الشائعة ، ولغة العصر ، كما يجب أن أعرف حياة نابليون واهتمامه وطموحاته من خطابات أخرى ومن أوصاف شاهد عيان ومن تقارير كتبت عن أفعاله • أن مثل هذه السياقات التي تؤدي الى فهم التعبيرات هو بالضبط واجب المؤرخ •



## ٢ - المدخل السيكلوجي \*

إذا ما اقتلنا من المدخل التاريخي الى المدخل النسقي فيجب أن ننظر فيما يعنيه هذا العلم الانساني أو ذلك حين يهتم بما هو نمطي وعام، وحين يهدف الى الوصول الى التعميمات والقوانين وهذا لا يتناقض مع الحقيقة الأولى التي ذكرناها أولاً وهي أن العلوم النسقية تهتم بالحالات والحادثات الفردية ، فالحوادث الجزئية في الفيزياء ، والتعبيرات الفردية في علم النفس ، تشكل الأساس الوحيد الذي تقوم عليه التعميمات ، كما أنها سبب تنوع تلك التعميمات أيضا . وفي اللحظة التي يوجد فيها هيكل معرفي فان هذا الهيكل انما يمكن استخدامه في تفسير حركة الموضوعات الجزئية أو سلوك أناس معينين . الا أنه يوجد ثمة اختلافات بين الدراسة الانسانية وبين العلوم الطبيعية فيما يتعلق بالعلاقة القائمة بين التعميمات وبين الحالات الجزئية ، لكن هذه الاختلافات لا تكون من حيث المبدأ بقدر ما تكون متعلقة باختلاف أوجه الاهتمام ، ومع ذلك فيوجد اختلاف آخر يضع حدودا من درجة دقيقة بين الدراسات النسقية وبين العلوم الطبيعية .

ويبدو أن النجاح الباهر للعلوم الطبيعية يرجع الى أنها تذهب الى ما وراء التعميمات الامبيريقية ، فنظرياتها المفسرة توضح في مصطلحات ناتجة عن تحليل الخبرة أو حتى عن البناء الفرضي مثل الالكترونات والموجات وما شابه ذلك . وإذا حاولنا أن نحلل التعبيرات لأجزائها المكونة لها . فائنا لن نبقى على هذه التعبيرات اللهم الا اذا كان التعبير

المركب قابلا الى أن ينحل الى تعبيرات بسيطة • ولما كان فهمنا قاصرا على التعبيرات ، فاننا لا نستطيع أن نبقى أيضا على هذا الفهم ، وستبعد خطواتنا عن دائرة الدراسات الانسانية وهذا يحدث اذا حللنا الكلمة الى حروفها ، فاذا تم ذلك فاننا نكون حينئذ بصدد تناول ما أسميه بالمذهب الآلي • والواقع أن دراسات من هذا النوع يمكن أن نجدها متضمنة في علم النفس أو علم الاجتماع ، لكنها لا تستطع أن تمكث طويلا باعتبارها دراسات انسانية بحتة تحتوي على تعميمات لأفعال الفهم • ان أفعال الفهم هذه عبارة عن تفسيرات تكون في متناول يدنا ولا يمكن أن تفسر أبعد من ذلك خلال العلوم •

ونظرا لأننا نستخدم عادة أسماء العلوم للدراسات المتعلقة بالتعبيرات وبالآليات في نفس الوقت ، فلقد نتج عن ذلك وجود نظريات تتضمن تعميمات للفهم وتفسيرات آلية في الآن عينه • الا أن الفحص النقدي لمثل هذه النظريات قد تمكن من التمييز بوضوح بين علوم التعبيرات وعلام التفسير الآلي • ان نظريات فرويد تعطينا مثالا على علوم التعبيرات، فالأعراض الهستيرية كحلول للصراعات هي تعميم يرتكز على فهم تلك الأعراض كتعميمات ، وعلى العكس من ذلك فإن الادعاء بوجود موت بيولوجي يقف وراء كل تعبيرات الفناء هو فرض آلي • ولا يحتاج التأكيد على هذه الحقيقة الى اثاره اهتمامنا ، فما هو هام هو التأكيد على أن النتائج تتفاوت بتفاوت العمليات المختلفة •

ان دراسة علمين نسقين وهما علم النفس وعلم الاجتماع يمكن أن يبين التناقض بينهما ، فعلم النفس دراسة انسانية تعالج التعبيرات ذات السياقات الوجودية التي تتكون عن وعي الأفراد بفهم التعبيرات وفهم سياقاتها • ان العلاقة بين فهم السياق كله ، وبين فهم التعبيرات المؤلفة

له هي نفسها التي توجد في علم النفس وفي الدراسات الانسانية الأخرى ، فعلم النفس شأنه في ذلك شأن العلوم التعميمية أو النسقية الأخرى يعالج ما هو نمطي من السياقات الوجودية ، أي يعالج ما هو مشترك بين الأفراد ، ويجب ألا نخلط بين دراسة الأفراد وبين دراسة ما هو جزئي ، فعلم النفس يهتم بما هو جزئي بنفس الطريقة التي تتبعها العلوم الانسانية الأخرى حيث نجد أن التعبيرات الجزئية التي تقوم في سياقات حياة الأفراد الجزئية تكوّن الدليل على هذه التعميمات ، ثم أن هذه التعميمات بدورها يمكن أن تطبق على فهم مثل هذه التعبيرات الجزئية •

ان علاقة علم النفس بالعلوم الأخرى تشابه علاقة التاريخ بتلك العلوم ، فالمدخل السيكولوجي الذي حددناه بأنه فهم التعبيرات في ضوء السياق الوجودي لحياة الأفراد — أيا كان من طابعها النفسي — يشبه المدخل التاريخي في أنه كلي التطبيق • • فكل التعبيرات يتجهها الأفراد وتقوم في سياق حياة مؤلفها ، ولكي نفهمها يجب أن نربطها بتلك الحياة • وليان ملائمة هذا المدخل يجب أن نعتمد على طبيعة التعبير، فمعرفة المؤلف تساهم قليلا في الفهم الدقيق للحالة الواقعية أو لحل معادلة رياضية ، وعلى الرغم من أن الشعر يحتل مكانه في العرف الشعري ، كما يحتل الفعل السياسي سياقاً اجتماعياً ، فانهما يتوضحان أكثر للسياق العقلي الذي انبثقا عنه • ان أي دراسة انسانية في الوقت الحالي تستخدم المدخل السيكولوجي أو نتائج علم النفس قد تلائم الوصف التاريخي وكذا الأمر فيما يتعلق بالدوافع السياسية فان لها علاقة بالتاريخ كما تكون هناك علاقة بين الجشعين من الناس وبين علم الاقتصاد •

وتعتمد التفسيرات السيكولوجية — في مقابل هذا — على اسهامات

العلوم الأخرى ، فالتعبيرات الموجودة في السياقات الوجودية قد تتطلب سياقات مختلفة اذا كان لها أن تفهم تماما • كما أن التعبيرات الدينية التي تلعب دورا هاما في حياة أغلبية الناس قد تكون ذات أهمية خاصة في فهم أناس معينين ، ومع ذلك فلكي نفهم محتوى مثل هذه الاستجابات فإن علينا أن نلجأ الى التاريخ واللاهوت أو الدين المقارن •

والتعبيرات الجزئية أو أنماط التعبيرات ليست موضوع علوم جزئية ، ففعل الزواج مثلا يحتل مكانا سيكولوجيا واجتماعيا واقتصاديا وتشريعيا ، لكن وعلى الرغم من ذلك التداخل فإن كل علم يعالج مرتبة متميزة من التعبيرات التي تم تحديدها بواسطة أهداف رئيسية له • ان التاريخ الذي يعالج سياقات زمانية واسعة يستخدم في أغلب الأحيان تعبيرات تدوم وتبقى لكي يقيم الدليل بها باستمرار ، والصعوبة هي أن علم النفس الذي يتناول الأفراد ويعالج أفعالهم المشتركة لا يمكن أن يعتمد على السجلات الدائمة، فأكثرية الناس لا يرسمون صورا أو يكتبون يوميات أو كتباً أو خطابات ، ومن ثم فإن علم النفس يعتمد على تعبيرات متنقلة ( غير باقية ) طبيعية أو اصطلاحية تقوم كاستجابة للحياة اللحظية للأفراد ، أو لعاداتهم النمطية ، كتعبيرات الوجه ، وطريقة الكلام ، والزي، والاستجابات الكلامية • ان علم النفس هو دراسة نسقية تهدف الى تأسيس تعميمات من حوادث جزئية ، والتجارب العملية ، والعديد من الاختبارات التي تدور حول اختبارات الذكاء ، واختبارات ادراك الموضوع ، واختبارات الذاكرة ، واختبارات الموقف الاجتماعي مثل السيكو دراما تعطينا أمثلة ممتازة عن التعبيرات المضبوطة ، وهذه يمكن أن نبحث فيها •

ان النظرية السيكلوجية قد أدت الى زيادة اتساع دائرة التعبيرات،

كما برهنت افتراضات فرويد عن اللاشعور بأنها افتراضات مشمرة •• انها تعالج ظواهر تتعلق بالسلوك الانساني مثل النسيان ، والهفوات ، والأعراض العصابية والهستيرية ، والتي لا تكون نتاج النشاط الانساني الواعي مثل تعبيرات الأفكار والمشاعر والنوايا •

ان علم النفس لا يحدد نفسه فقط بربط تلك التعبيرات المختلفة بسياق حياة الفرد ، أو بمعالجة محتوى تلك الحياة باعتبارها ظواهر للحياة الفردية ، وانما هو يهتم أيضا بوضعها في سياقات خاصة ، ان علم النفس يستخدم التصنيف حينما يميز الأفكار والعواطف وما شابه ذلك ، كما أنه يعالج سياقات الموضوع حينما يعالج الأنماط المختلفة من التعبيرات التي تحدث في فترات متفاوتة ، كما أن التفاعل بين أنماط الفعل العقلي المختلفة لانتاج التعبير ( ومثال ذلك صبغ الذاكرة بالعاطفة ) انما تتم معالجته في ضوء السياقات الوظيفية •

لقد وضعت وحددت واجبات علم النفس كدراسة انسانية فقلت أنه يتناول التعبيرات ويهتم بمعانيها، والواقع أن دراسات علم النفس حاليا تدور حول : دراسة الذكاء والذاكرة ، التحليل النفسي ، وعلم النفس الاجتماعي الذي يعالج موضوعات مثل : الاتجاهات السياسية ، والانحياز العنصري ، والرأي العام ، والتقاليد التي تدور حوله • ومع ذلك فإن الانسان باعتبار أنه موجود فيزيقي فانه يسلك في بعض الاحيان سلوكا ناجما عن انغماس شرطي وهذه ليست من قبل التعبيرات ، كما أن الانسان يعيش أيضا في بيئة طبيعية تؤثر فيه ويتداخل معها ، وبقدر ما يكون لهذا التفاعل اثرا على سياقاتنا وتعبيراتنا ذات المعنى يكون منتبيا الى الدراسة السيكلوجية • والواقع أنه سواء آكانت معالجة الأبحاث التي تدور حول هذا التفاعل قد تمت في ضوء علم النفس أو في ضوء

علوم أخرى فان هذا أمر اصطلاحى ولا يشير أى تساؤل هنا من حيث  
المبدأ •

ومع ذلك فثمة نقاش يدور حول ضرورة تحول علم النفس الى  
نموذج من نماذج العلوم الطبيعية لكي يكون أكثر « علمية » وفعالية ،  
ومن هذا المنطلق فيجب أن تجل التفسيرات التي تعطى في ضوء الشروط  
الآلية محل التفسيرات التي تعطى في ضوء فهم التعبيرات ، بحيث يمكن  
توحيد المعرفة في كافة العلوم ويتوقف التحليل المرتكز على الفهم • أن  
مثل هذا النقاش يمثل في الواقع هجوما على نظرية الدراسات الانسانية  
كلها لا على علم النفس وحده ، وهجوما على هيكل كبير من العلوم  
المتميزة باستخدام منهج الفهم الذي لا يمكن احلال غيره محله • ومع  
أن علم النفس قد ووجه بهذا الهجوم أكثر من سيره لأن له علاقة واضحة  
بالدراسات الفيزيائية ويعتمد عليها بصورة أكبر من مثيلتها بالنسبة لعلم  
التاريخ أو فقه اللغة ، فان على علم النفس أن يواجه هذا التحدي •

ان احلال التفسير الذي يتم في ضوء مذهب آلى محل الفهم يمكن  
أن يرفض على الأسس الأربعة التالية :

١ - ان التفسير الآلى ليس عمليا في حالتنا المعرفية الراهنة ، فنحن  
لا نعرف كثيرا عن الارتباط القائم بين الأفكار التي نستطيع أن نفهمها ،  
وعن العمليات الدماغية المصاحبة لهذه الأفكار أو المنتجة لها • انسي لا  
أعتقد أن باستطاعتنا أن نحقق الكثير باستخدام المناهج الميسرة لنا لفحص  
خلايا الدماغ •

٢ - ان الحادثات الميكروفيزيائية المصاحبة لعملية مثل زيارة عقل

انسان لبريحتون هي أمور معقدة ، بحيث يكون من المستحيل علينا عمليا وحتى نظريا أن نعطي وصفا دقيقا لها •

٣ - ان الافتراض المتضمن في أنه يجب أن نأخذ حتى الخطوة الأولى تجاه التفسير في ضوء المذهب الآلي هو أمر مثار التساؤل • اني اعتقد على وجه الخصوص بأن مثل هذا الافتراض يماثل فكرة أن الوحدات المركبة يمكن أن تفسر في ضوء بسائطها ، ك تفسير الادراك بالاحساس ، وتفسير التعلم التصوري في ضوء تعلم الحيوان ، والدوافع الانسانية في ضوء السلوك الغريزي للحيوان • اننا نكون في خطر داهم حين نفسر ما هو معروف بما هو غير معروف ، لأن هذا الافتراض نفسه أكثر غموضا من معرفتنا بالادراك أو الدافعية • وهناك مقتطفات أربعة نقتطفها من كتاب « علم النفس في الوقت الحاضر » ل روباك A. A. Roback تؤيد هذه النقطة :

أ - ان كلا من اللغويات والطبيعات الوصفية ( التي تتضمن كل مراحل درجات السلوكية ) رائعة في دقة تحديداتها ، لكن الحياة تتناول دوما الرغبات والمشاعر والأهداف والدوافع والمثل ، واذا قمنا بتحويل هذه الى مشيرات واستجابات ، فان بحثنا عن الوقائع يكون مضللا • نحن لا نستطيع أن نستخرج هدفا من رد فعل الصوت أو الضوء ••• كما أننا لا نستطيع أن نستخرج مكعبا من المربع ، أو مربعا من الخط ( روباك ) •

ب - ان التصورات البسيطة عن السلوك التي تعطي في ضوء آلية المثير - الاستجابة تسقط في تصوير العملية حينما تتقدم أو تتطور ( أندرسون ) •

ج - ان علم النفس يوجه جهوده الى البرهنة على ان الانسان لا يختلف سيكولوجيا عن العضويات الدنيا كما تم افتراض ذلك بوجه عام .  
لقد أصبحت النتيجة الرئيسية لمذهب التطور على أيدي علماء النفس المتأخرين ليست اثراء لحقل الظواهر البيولوجية في تضمين الصفات الغير العادية للانسان - كقدراتهم الخاصة في الحياة الاجتماعية، وامكاناتهم في العلم والفن - ولكن رد القدرات الانسانية الى عضويات أدنى .  
وهذه النقلة تؤدي الى التقليل من قيمة المميزات الانسانية الخاصة .  
( آ ش ) \*

د - ان العمليات المركبة مثل التعلم ، وحل المشكلة ، وتكوين التصور، درست أولا في حيوانات ما قبل الانسان التي - أيا ما كانت اتجاهاتها - تتصف - بصورة ما - بأن لديها تلك القدرات . . لكن حتى اذا استطعنا الحصول على اجابة من القرد ، فانا سوف نظل في انتظار اجابة الانسان ، وها هنا يجب على الاتجاه المقارن الصادق أن يمنعنا من اقامة تعميمات مبنية على نوع معين ويطلقها على كل الأنواع . ( آ ش ) \*

ان هذه الاعتراضات على احلال التفسير الآلي محل الفهم هي اعتراضات جادة على الرغم من أنها ليست حاسمة ، اذ يمكن أن تقام ضدها مناقشات عديدة .

٤ - ان اعتراضي الأخير هو كما اعتقد حاسم . أن الفهم يكشف لنا عن شيء يختلف عما أعرفه خلال التفسير الآلي . ان المعرفة الممكنة خلال الفهم فقط ذات أهمية أصيلة . وعلى الرغم من أن عدم استخدامنا للمعرفة الآلية العلمية يتأدى بنا الى نواحي تقص فانا سوف نظل - لأسباب عملية ونظرية - في حاجة الى أن نفهم الطبيعة الانسانية . فاذا سألنا لماذا كان هذا الاعلان مشيرا ؟ أو لماذا يكون الثواب والعقاب مؤثرا على



قيام ابني بواجبه المنزلي ؟ فأنني لا أتوقع أن تأتيني الاجابة من الأوعية الدموية أو الخلايا الدماغية • ان العلاقة بالعلوم الأخرى واردة هنا أيضا فأنا لا أستطيع أن أتصور فهم التعبيرات على أنها منعزلة عن التاريخ أو الدين المقارن • واذا كان على التعميمات السيكولوجية أن تساعد هذه العلوم فإن هذه العلوم يجب أن تكون ملائمة لمحتوى هذه التعميمات •

وكنتيجة لهذا فإنه من المهم أن تؤكد على الوظائف التي تخدم التعريف الصوري لعلم النفس القائم في ضوء سياقات التعبير • وبالطبع يمكننا أن نناقش أن ما نعرفه ككل عن علم النفس انما يرجع الى ما نعرفه عن الحقل الذي يتناوله هذا العلم ، وعن المناهج التي يستخدمها • ومع ذلك فإن التقدم في ميدان علم النفس انما ووجه بغموض تصوري ، وبغياب للآطار التصوري الموحد • ان علماء النفس غالبا ما يتحدثون بلغة مختلفة ، وليس ثمة ارتباط بين الخطوط المختلفة للمدخل، كما أن المشاكل يتم تناولها من وجهات نظر متباينة بدون أي ربط بينها • ان ما يسمى بمدارس علم النفس المختلفة يمكن أن يرتبط بمجموعات منفصلة من الباحثين يمثلون اتجاهات مختلفة ، وككل فهم لا يتقابلون •

ومن المهم أن نصل الى تعريف يقف وراء الأصول الاستمولوجية لعلم النفس ككل • ان هناك بعض التعريفات الضيقة عن علم النفس يكون لها تأثيرها الفاسد عليه ، من أهمها تعريفه بأنه « الدراسة المضبوطة للسلوك الظاهر والعلني » • اني أعتقد أن هذا التعريف ضيق أو محدود لأنه يخلق الأبواب على خطوط بحث ممكنة ومثمرة مثل تفسير الأحلام، أو استخدام الاسقاط ، فان قيل بأن الاستماع الى شخص يتحدث عن أحلامه هو أمر يمكن ملاحظته باعتباره سلوكا ظاهرا فان هذا يمثل نصف الحقيقة • ومن ناحية أخرى فان هذا التعريف يعتبر مضللا أو فاسدا

لأننا نتحدث عن سلوك الغازات وبصورة أكبر عن سلوك الحيوانات .  
 لكن الاختلافات بين السلوك الانساني وبين سلوك الغازات أو حتى  
 الحيوانات هي اختلافات كبيرة تفوق أوجه التشابه بينها ، وهذه يجب  
 أن تجد تعبيراً في تعريفنا إذا أردنا ألا نطابق مناهج الملاحظة والتجربة  
 المستخدمة في حقل العلوم الفيزيائية على فهم الانسان .

اني اعتقد بأننا يجب أن نكون على حذر من التعريف التالي « ان  
 علم النفس هو علم العقل » ، وذلك لأننا اذا تحدثنا عن « العقل » و  
 « القدرات » و « الدوافع » و « الغرائز » على اطلاقها ، فانه يمكن  
 أن نقاد بسهولة الى الميتافيزيقا ، أو يختلط فهما بكيانات ميتافيزيقية  
 غامضة . وكنتيجة لذلك فان المدخل السيكولوجي يمكن أن يكون  
 مضللاً اذا ارتكز على عمليات غامضة مثل الحدس والبصيرة بالمعنى الذي  
 ندرك بها تلك الكيانات الميتافيزيقية الغامضة .

اني لا أنكر أن علم النفس يدور حول السلوك الانساني فهذا أمر  
 مفيد ، كما أنه مما لا يمكن تحاشيه أن نحدد علم النفس في ضوء هذين  
 المصطلحين ( سلوك انساني — عقل ) هو هراء لا فائدة منه ، ويحمل في  
 ذاته متضمنات فاسدة ، ذلك لأننا اذا بدأنا دراسة موضوعية بافتراضات  
 مسبقة ثابتة ومتجسدة في تعريف العلم فائنا سوف نشوه ما نرى ، أو  
 نتجاهل ما لا يتوافق مع افتراضاتنا المسبقة . ان علم النفس الذي يتم  
 تعريفه في ضوء التعبيرات هو علم النقيض من ذلك تجريبي ومضبوط ،  
 فنحن نلاحظ التعبيرات ملاحظة فعلية ، وحينما نفهمها فاننا نجد أنفسنا  
 أمام محتويات عقلية معينة . اننا يجب أن نتعامل مع هذه التعبيرات في  
 المستوى التركيبي الذي تحدث فيه .

ان القصد بعقل مفتوح الى التعبيرات كما تحدث في مواقف

ودوائر الحياة المختلفة وفي الآداب والسير الذاتية يمكن أن يمدنا بالكثير من المواد الوصفية التي تتطلبها علم النفس من أجل تقدمه ... ومثل هذه الأوصاف وغيرها يجب أن تنتقى من أنماط مختلفة من الناس ومن مستويات ثقافية متفاوتة . نحن نحتاج الى ذلك ، والى كمية هائلة منه ، في سبيل صياغة النظرية في علم النفس .

ان الباحث التجريبي الذي يتمتع بعقل مفتوح يفكر في كميات هائلة من التعبيرات التي تكون في متناوله ، والتي قد تستخدم في علم النفس أو لا تستخدم فيه بسبب نقص الأدوات والخطط التفسيرية التي تواجه الحياة الانسانية التي تقدم نفسها لنا . ان ما يثر اهتمامنا ليس هو « الغرائز » و « القدرات » و « الامكانيات العامة » ، وانما هو التعبيرات المركبة كطموحنا في الحصول على عمل معين أو كالذكريات السارة أو المخجلة عن حب قديم لنا . وحينما نحصل فقط على أدلة تراكمية نسقية من هذا النوع ، وحينما نفهم ما يحدث واقعيا فيما لا حصر له من الحالات فاننا نستطيع أن نبدأ في استخلاص النتائج النظرية وفي انتاج تعميمات ذات أهمية أصيلة ، وفي تقييم العلوم الأخرى ذات الصلة بعلم النفس ، من أجل التبصر في الطبيعة الانسانية .

### ٣ - المدخل الاجتماعي .

ان الكثير مما قلناه عن التاريخ وعلم النفس ينطبق مع بعض التغيير على علم الاجتماع ، فالمدخل الاجتماعي ينطبق أيضا تطبيقا كليا على كل التعبيرات القائمة في - والمتأثرة بالسياقات الاجتماعية التي يعالجها علم الاجتماع . كما أن علم الاجتماع - في المقابل - يعتمد على ويرتبط بالعلوم الأخرى بما فيها العلوم الفيزيكية بنفس الطريقة التي يعتمد فيها التاريخ وعلم النفس على تلك العلوم . علاوة على أن الأسباب

الابستمولوجية التي تتدخل في تحديد علم الاجتماع في ضوء التعبيرات هي نفس الأسباب التي أعطيتها لعلم النفس • وكل ما نحتاجه الآن هو أن ننظر في أفضل طريقة لتعريف علم الاجتماع ، وأن نكتشف طريقة محددة يمارس بها الفهم دوره في هذه الدائرة •

لقد عرّف علم الاجتماع تعريفات مختلفة بأنه دراسة المجتمع ، والأنساق الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعي ، وتفاعل الجماعات التي تتكوّن المجتمع ، والبناء الاجتماعي ، والمؤسسات الاجتماعية • ان الاختلافات في تأكيد واحد من هذه التعريفات ، أو ما يشابهها لا يهمنا هنا • فإذا ما انتقلنا الى « التطبيق » فاننا سنجد أن بعض علماء الاجتماع يتجهون الى تفسير موضوعاتهم بنوع من الدراسة الشمولية للمجتمع ، بينما يقتصر البعض الآخر على نسق خاص يعالج صور العلاقات • ولا يجب :ن نفرد مجالاً هنا للحديث عن مناقشة أساسية للأسس الابستمولوجية لعلم الاجتماع •

ولا أن ننفق جهدنا في دراسة تفسير خاص لعلم الاجتماع ، فان ذلك سيتأدى بنا الى احباط هدفنا المتجه الى اللقاء الضوء على محاولة علماء الاجتماع تحقيق ما يرغبون تحقيقه بطرقهم أو باجراءاتهم المختلفة • ومع ذلك فان كل التعريفات التي ذكرناها أيضا تتسم بأنها غير كافية في تحقيق هدفنا ، لأن مصطلحات مثل « مجتمع » و « اجتماعي » تحتوي على كل الافتراضات التي من واجبنا أن نفحصها •

نحن في حاجة الى تعريف مصطلح « اجتماعي » Social كما يستخدم في وصف الأفعال والأنساق وغير ذلك ، وذلك في ضوء التصورات الناضجة المذكورة في هذا الكتاب ، ولكي نحقق هذا الهدف فانه يجب أن نشير الى دائرة موضوع علم الاجتماع • ان السياق

الاجتماعي هو - بالمعنى الواسع - واحد يتفاعل فيه أشخاص على الرغم من أننا لا نهتم بالتفاعل الفيزيقي المجرد . فحين شخص ما عرضيا بشخص آخر فان هذا لا يَكُون موقفا اجتماعيا .

ويمكن أن نحدد السياق الاجتماعي بأنه ذلك الذي يتأثر التعبير فيه ، ويفهم بدقة في ضوء علاقته بالتعبيرات الأخرى التي لا تقف في نفس السياق الوجودي لحياة الفرد . ان كل التعبيرات تقف في سياقات اجتماعية ، وبالتالي فيمكن أن نَعْرِف علم الاجتماع بأنه دراسة للعلاقة القائمة بين تعبيرات مختلف الأفراد في سياق اجتماعي أو أنه دراسة لتعبيرات كيانات وجودية ناجمة عن العلاقة القائمة بين تعبيرات الأفراد . ومثال الدراسة الأولى التوتر الزوجي ومثال الدراسة الثانية وظائف النقابات . أما أهمية الفهم الصحيح لتلك السياقات ، وما اذا كان المدخل الاجتماعي ملائما لها أولا ، فان هذا يعتمد على التعبير وعلى اهتمام الباحث . فاذا رضينا بتفسير الشجار الزوجي على أنه فقدان الزوج لروح المرح وان نضع ذلك في هيئة التعميم التالي « الأناس غير المرحين يكونون شركاء زواج سيئين » ، فاننا انما نحدد أنفسنا بمدخل سيكولوجي . لكن اذا أخذنا الازعاج أو الاثارة المتبادلة بين الزوجين والتوتر الناتج عن الموقف الزوجي في الاعتبار فان الموقف يصبح اجتماعيا والمدخل يكون اجتماعيا كذلك .

ان الموقف الذي تتأثر فيه تعبيرات فرد ما بتعبيرات أفراد آخرين هو موقف مركب ومعقد . ودعونا نعطي مثالا يوضح ذلك : اننا قد نفكر ، مرة أخرى ، في انسان يلقي محاضرة ، فالى المذئ الذي يعبر فيه عن أغراض وأفكار خاصة به تكون المحاضرة تعبيراً شخصياً ، واضح أن هذا ليس هو الأمر كله ، ذلك أن اللغة التي يستخدمها أصبحت على

م به بواسطة ما لا حصر له من المتحدثين قبله ، كما أن أفكاره  
منسوبة لفراءاته وبمناقشاته مع الآخرين ، علاوة على أن محتوى محاضراته  
انما يتحدد بمتطلبات عمله ، وباحتاجات الطلاب ، وربما بأسئلتهم الخاصة .

والسياقات المختلفة هذه ، والتي تؤلف موضوع علم الاجتماع يمكن  
أن تصنف ، فبعضها يكون وجوديا يؤلف كيانات تدوم في الزمان ،  
وبعضها يكون موضوعا مثل كل تعبيرات أفكار المحاضرة أو الكتاب الذي  
ارتكزت عليه آراء المحاضر ، وبعضها يكون وظيفيا يتمثل في علاقة  
محاضرة باخرى من خلال اطار برنامج تعليمي . كما أن هذه السياقات  
تقف - في مقابل ذلك - في سياقات أوسع ، فالجامعة تقف في سياق  
تصنيفي من حيث أنها تشبه الجامعات الأخرى التي لا حصر لها والمتشرة  
في العالم كله . وهي ترتبط بالسياق الوجودي الخاص بحياة المجتمع ،  
وتلعب دورها في السياق الوظيفي الخاص بالنظام التعليمي كله . ان هذه  
الشبكة الكلية من السياقات هي ما نسميها بالمجتمع .

ولغرض معين فأننا سنعتبر التمييز الرئيسي بين السياقات هو ذلك  
القائم بين السياقات الوجودية وبين غيرها من السياقات . فبين هذه  
الأخيرة توجد انتظامات وتشابهات توصف عادة بأنها تكون البناء  
الاجتماعي ، انني أطلق على هذه بمصطلحاتي الخاصة اسم السياقات  
التصنيفية . ان خاصية التعبيرات يتم تحديدها حسب رغبة الشخص الذي  
يعبر عن نفسه بحيث يجب أن يكون تعبيره مشابها للتعبيرات الأخرى ،  
بمعنى أن يتطابق تعبيره مشابها للتعبيرات الأخرى، بمعنى أن يتطابق تعبيره  
مع العرف السائدة أو النمط المعاصر . . . . هناك ببساطة الرغبة فسي  
التصنيف بطريقة معينة تجعل تعبيرات الفرد منتمية الى لى لى معين ،

والتقاليد ، والعادات ، والاصطلاحات والمرتبة ، والطبقة يمكن أن تفسر على هذا المنوال . فالطبقة الاجتماعية ، على سبيل المثال ، يمكن وصفها بأنها تجمع من الناس يفكرون بنفس الطريقة ، ويوافقون على تعبيرات مشتركة ، ويتزيفون بندي معين ، ولهم اتجاهات اخلاقية محددة ( اذا أصبحت مثل هذه الطبقة على وعي بالاهتمامات المشتركة وعبرت عنها بأفكار وأفعال فانها تصبح حينئذ سياقاً وجودياً ) .

• وهناك نمط آخر من السياقات الغير وجودية يتكون من المواقف المعنية ، فالوجود في حفلة ، أو العمل في جماعة صغير أو العضوية في مقابلة رسمية ، تؤثر في التعبيرات بطرق نمطية والتعميمات منها أمر ممكن .

ان علم الاجتماع يتناول كلا من السياقات الوجودية والسياقات غير الوجودية ولكنه يهتم بوجه خاص من السياقات الأولى بالأنساق الاجتماعية ، والمجتمعات، والتنظيمات التي تعالج باعتبارها كيانات توصف بأنها ذات أهداف وأفعال . ان « التنظيم » هنا تصور محدد بدقة يعني أنه سياق يحكم تعبيرات الناس الخاصة بهم وفقاً لنمط له أهداف وقواعد محددة ، وسوف اسمي هذا النمط باسم « مؤسسة » ان الاتحاد التجاري مؤسسة ، لكن الوحدة الجزئية تنظيم ، وهما يمثلان كلا من سياقات الموضوع والسياقات الوظيفية : الأول لأنه يهتم عادة بأهداف خاصة ، والثاني لأن التعبيرات المختلفة ترتبط فيه كوسائل لتحقيق الغاية العامة . ونحن نعني بالأنساق الاجتماعية وظائف أكثر شمولاً ، وسياقات موضوع أيضاً تحتوي على تنظيمات تساعد على تحقيق وظائفها . وبهذا المعنى نحن نتحدث عن النسق التعليمي والنسق الاقتصادي وهلم جرا .

ان سياقات التعبيرات هي ذاتها سياقات مركبة . ان القصيدة

الشعرية هي تعبير في ذاتها كما أنها سياق بالنسبة الى الكلمة التي توجد فيها في آن واحد ، ومن ثم يقال عن التعبيرات ينطبق على السياقات . ويتبع ذلك أن هذه يمكن أن تقوم في سياقات أوسع ، في أكثر من سياق في نفس الوقت ، وتؤلف نوعا من نقطة التماس بين السياقات .

وحيثما نطبق هذه النتائج على التنظيمات فإنها تساعدنا على فهم الصراع الذي يثار بينها والذي يبقى دون تفسير اذا اقتصرنا على التفكير فيها في ضوء أنساق خلال أنساق وحسب . ان المصنع يمكن أن يكون مثالا على « تنظيم » ، فهو يقف في سياق الصناعة ككل التي هي جزء من النسق الصناعي للمنطقة ، أن المصنع لا ينتج البضائع وحسب، ولكن يجب أن يعطي العمل في منطقة معينة . والانتاج في حده الأقصى يتضمن حركة وانتقال العمال الى منطقة أخرى قد تتصارع مع وظيفة العمالة الزائدة في هذه المنطقة . وبسبب أن المصنع يقف في سياقات متفاوتة ، ويخدم وظائف متباينة ، فان الصراع يكون كامنا في الموقف كله .

ان التأكيد الدائم في هذا الكتاب يتمثل في أن الفهم هو فهم أولي بالتعبيرات ، وفهم المحتوى العقلي من خلال تلك التعبيرات وهما معا بالاضافة الى ما أشرت اليه في الفصل السابق عن السياقات الوجودية يوضحون أن الاصرار على منهج الفهم لا يؤدي الى نزعة سيكولوجية أو الى مذهب فردي منهجي . ان الأمر ليس هو أن نفهم الفرد ، وأن نفهم السياقات التي تقوم فيه من خلال هذا الفرد . نحن نستطيع أن نفهم السياقات ذات التداخل الشخصي مباشرة من خلال تعبيرات الأفراد . وفي حالة السياقات التصنيفية تتمكن نحن من فهم الفكرة أو الأفكار المقبولة بواسطة عدد من الناس . لكن مسألة ما هي تلك الأفكار وكيف تؤثر في التعبيرات وهي مسألة ذات أهمية أصيلة ، مسألة لا تتصل بالنقطة السيكولوجية الخاصة بلماذا يود الأفراد أن يقبلوا هذه الأفكار .



ان تقاليد الزي تحدد ما يجعل المرأة جذابة وفاتنة ، لكن هذا لا ينجم بسبب أن الرجال والنساء يجدون شيئا جذابا ، ولكن بسبب أن هذا هو تقاليد الزي . وحينما نسأل شخصا لماذا ترتدي هذه السيدة نوعا معينا من القبعات فانه يجب بأنها سوف ترد على ذلك بقولها « ان كل سيدة ترتديها » ، ولا يمكن أن تقول « أنا أحبها » أو « انها تناسبني » . وبالطبع فان هناك مصممين أو معلقين على الازياء وهم يساهمون في ابداع زي جديد ، لكنهم رغم ذلك جزء من السياق المركب ، كما أننا لسنا في حاجة الى فهم عملياتهم العقلية الفردية . ولكي نفهم تقاليد الزي، وما الذي يجعل المرأة تبدو أنيقة في زمان معين ومكان معين ، فان علينا أن نقرأ مقالات ، وأن نلاحظ أنواع الزي ، وأن ندرس الاختلافات ، وأن ننظر حولنا ونحن نسير في الطريق .

( ان هذا يعد جانبا واحدا من اهتمام رجل علم الاجتماع ، ويمكن أن نضيف الى ذلك اذا أردنا الحديث عن السياق التصنيفي ، أن تقاليد الزي تتقف أيضا في سياقات أخرى . وعلى سبيل المثال السياق الوظيفي للحياة الاقتصادية لأنه يثير عملية الشراء ) .

وهذا ينطبق بنفس الطريقة على سياق الموضوع ، ففهم الموضوع يختلف تماما عن فهم الأفراد . نحن نستطيع أن نفهم عقائد المسيحية أو آداب منطقة ما ، ولكن هذا يختلف عن فهم رجال الكنيسة أو فهم الشاعر . وعلى سبيل المثال ، فحين نفهم قصيدة فيجب أن نفهم اللغة ، والصور الشعرية ، وتقاليد الحب الرومانتيكي ، كما شعر بها الشاعر .

وأخيرا ففي فهمنا للسياقات الوجودية فاننا نستوعب تقييمات وأهداف ترتبط بكيان متميز يدوم في الزمان . فالنادي مثلا يدوم كما

هو ويظل محتفظا بطبيعته رغم تغير أعضائه ، ان النادي مؤسسة تخدم أغراضا خاصة ، وله قواعد مالية ، وتعليمات محددة يخضع لها أفرادها وموظفوه العاملون في السكرتارية ، وهو يمتلك ملقبات وهلم جرا • ويمكن لنا أن نفهم ما هو هذا النادي بالقراءة عن تكوينه وبملاحظة نشاط أعضائه • وهؤلاء الأعضاء ، وعملهم ، يلعبان دورا متميزا يتحدد بواسطة طبيعة التنظيم والتعبير عنه وعلى الرغم من وجود علاقات هامة ، تستحق الدراسة ، بين شخصية الفرد وبين الدور الذي يؤديه فلا يمكن التوحيد بينهما • ونفس الأمر ينطبق على المصنع وعامله ، وعلى الدولة ومواطنيها •

ان فهم مثل هذه السياقات ليس أمرا ممكنا وحسب ولكنه ضروري أيضا • فربما تقبل على فهم كيف يقيم النسق التعليمي لهذه المنطقة صعوبة بالنسبة « لجون » فيما يتعلق بتعليمه الخلفية الثقافية العريضة والمتباينة بواسطة دراسة الأفعال التعليمية ومتطلبات البحث وما شابه ذلك من مواد • نحن لا نستطيع أن نفهم المشكلة وأن نصيغ اجابتنا في ضوء الأفراد ، فليس الوزير أو الرؤساء المركزيين أو المحليين هم الذين يؤثرون في تعليم جون • ان ما نستوعبه بدراسة الأدلة هي فلسفة التعليم ، وصيغ الأهداف ، وتختلف الوسائل المحققة لتلك الأهداف • ولكي نفهم ذلك فمن الضروري والممكن أن نعرف كيف تتجست فلسفة التعليم وحققت الموافقة عليها ، وما هي التوترات والمصالحات التي تمت بين مختلف الأفراد • ان معرفة نمو السياقات ، ومعرفة تغيرها ، وإنتاجها ، يكتون موضوع دراسات منفصلة •

واذا أردنا أن نلخص هذا كله ، فإنا يمكن أن نقول بأن الواجب الرئيسي لعالم الاجتماع يتمثل في وصف وفهم السياقات المتداخلة

والأشخاص التي تتف التبعيرات فيها • وتصنيف هذه والنظر في العلاقات القائمة بينها على مستوى السياقات الأكبر ، وتحليل الطريقة التي انتجت السياقات وفقها التوافقات القائمة بين التبعيرات مثل التطابق والتعاون أو الصراع ، وأخيرا دراسة أحداث العلاقات المختلفة لتغيرات في السياقات •

ان هذا النقاش حول التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع يبين كيف أن المدخل المقترح في هذا الكتاب يمكن أن يستخدم في تحديد هذه العلوم وغيرها ، وأن يؤدي الى ارتفاع المشاكل الرئيسية المتضمنة في ثنائياها ، ومن بين المسائل التي أثّرت الاعتماد التداخلي المزدوج بين هذه العلوم • ويمكننا الآن أن ننظر بصورة نسقية في العلاقة القائمة بين مختلف العلوم خلال حقل الدراسات الانسانية الذي يؤلف • الأسس النظرية للتعاون الداخلي بين العلوم •



## الفَصْلُ العَاشِرُ

التعاون الداخلي بين العلوم

١ - الاعتماد المتبادل بين العلوم •

٢ - المدخل المتعدد الأبعاد •



## التعاون الداخلي بين العلوم

### ١ - الاعتماد المتبادل بين العلوم \*

لقد كشفنا النقاب في ثنايا هذا الكتاب عن طبيعة وموضوع ومناهج الدراسات الانسانية ، وذكرنا في الفصل السابق بوجه خاص الملامح المميزة للانساق العلمية الفردية ، وعلينا الآن أن نتبع بصورة نسقية الاعتماد الداخلي المتبادل بين هذه الانساق العلمية واضعين نصب أعيننا أساسه الاستمولوجي وضرورة مناقشة الحاجة الى تكامل وتعاون هذا الاعتماد الداخلي \*

لقد لخص الأستاذ أ.س. \* رسل في عدد Listener الصادر في السادس من يوليو ١٩٦١ نتائج كتاب Pyke المسمى « حدود العلم » بقوله « ان التقسيم التقليدي للعلم الى الفيزياء والكيمياء والفلك ... الخ كان هو الفكرة السائدة في العلم ، وهي في حد ذاتها فكرة طيبة بالنسبة الى الطلاب والأساتذة والباحثين ، وتعد خطأ مفيدا يعيننا على تخطي الجهل ، لكنها ليست مدخلا ضروريا يعيننا على فهم الطبيعة . ان الدكتور Pyke لم يبرهن على أن هذه التقسيمات يجب أن تنتهي ، فلقد تساءل عما اذا كانت الحدود القائمة بين العلوم هي مجرد اصطلاحات ، وعما اذا كان التقدم الذي تم والذي يمكن أن يتم قد قطع اشواطاً كبيرة

عن طريق تجاهل هذه الحدود... أم أن انجازا كبيرا قد تم بسبب معالجة الأفكار والنظريات والمماثلات والتقنيات الخاصة بعلم واحد بعيدا عن أي علم آخر . وفي الحاضر نحن نطبق فكرة التطور لا على النباتات والحيوانات وحسب بل على جزئيات الانسان أيضا . ان أدوات الفيزياء أصبحت تستخدم في توضيح الكيمياء ، وبناء البروتونات هي أحد مفاتيح مغاليق الطبيعة الحية للخلية ، والاكتشافات الخاصة بالجزء الأصغر من الذرة - أي النواة - تساعد عالم الفلك - وهو على الطرف المضاد - على فهم العالم الأكبر » .

ان هذا ينطبق أيضا على الدراسات الانسانية وعلى العلاقات القائمة بينها ، فلقد رأينا في الفصل السابع من هذا الكتاب أن موضوع العلوم المتخصصة يمكن أن تعالج نفس الواقع من وجهات نظر مختلفة . ان التعبيرات العقلية ومشاكل فهمها ليست سيكولوجية أو اجتماعية أو اقتصادية... انها ظواهر سيكولوجية واجتماعية واقتصادية... انها تقف في سياقات من هذا النوع ويمكن أن تفهم من خلال تلك السياقات . ان القول بأن سميث أمضى عطلته في إيطاليا يمكن أن يقوم في سياق سيكولوجي ، لأن هذا تعبير يعبر عن رغباته واهتماماته ويؤثر في أفعاله الأخرى كأن يقتصد مالا أو أن يتعلم اللغة الايطالية . لكن هذا التعبير نفسه يمكن أن يقوم أيضا في سياق اجتماعي حيث أنه يمكن أن يشير الى تغيير عادات واهتمامات رجال الأعمال ، كما أن اختيار سميث قضاء عطلته في إيطاليا بالذات دون قضائها في بريجتون أو بلاكبول قد يكون له أسباب ونتائج اقتصادية ، وهاهنا يقف التعبير في سياق اقتصادي . ومن ثم فإن هذا الفعل يتطابق مع ، ويمكن أن يفهم خلال هذه السياقات المختلفة .



ويمكن لنا أن نصف الواقع الانساني بأن له أبعادا عديدة تماما كما نصف المشاكل الانسانية الخاصة بذلك ، وأن نصف مشاكل العلوم الفردية بأنها مشاكل ذات بعد واحد ، اذ لما كان كل علم فردي يعالج تجريدا واحدا من الواقع العيني فان نتائجه لا بد وأن تكون محددة وذات جانب واحد ، ليس ثمة كائن انساني هو ببساطة « انسان اقتصادي » ، ولا يمكن أن تفهم مثل هذا الانسان لو كان كذلك . وليس ثمة فعل انساني يمكن أن يفهم في ضوء مصطلحات سيكولوجية بحتة دون الاشارة الى الظروف الاجتماعية . ان الجناح والتعصب والعلاقات الصناعية المتوترة هي أمثلة قليلة تعبر عن واقع عالمنا المعاصر ، ولكي تسأل عن تفسير ذلك فلا يمكنك أن تجد هذا التفسير في الجانب السيكولوجي وحده أو الجانب الاجتماعي وحده أو التاريخي وحده أو الاقتصادي وحده . ان كل هذه السياقات مجتمعة قد تكون ملائمة لفهم واقع عالمنا ، كما أن التفسيرات ذات المصطلحات المختلفة يمكن أن تترابط في تفسير واحد كامل . وانه لأمر يعود الى السداجة الابستمولوجية أن نخلط بين تفسير يعطي في ضوء علم واحد وبين تفسير كامل لموضوع ما .

ان نتائج العلوم الفردية لا يمكن أن تتأدى بنا الى فهم كامل لمشكلة واقعية عينية ، ولكن يجب أن تمد يد العون الى علم ما من علوم أخرى من نفس دائرته . ويمكن أن ندرك هذا أوليا ولا نحتاج الى أن نبرهن على صحته أو أن نكتشفه تجريبيا ، ومع ذلك يمكن أن نعطي أمثلة على اكتشافات تجريبية نبعت عن أبحاث مضيئة ، نبدأ الآن بمثال منها وليكن من ميدان الجناح : لقد ركزت أبحاث عديدة على عوامل معينة أو على مجموعات معينة - من العوامل مثل علاقة الجناح بوالديه وبالجيرة وبالمعايير الاجتماعية لمنطقته وما شابه ذلك . ثم تؤسس هذه الأبحاث

ارتباطات معينة بين الجناح وبين عوامل مثل : الأسرة المفككة ، والأم العاملة ، والمناطق المتخلفة ، وعضوية الجماعة ، وعدم النضج العاطفي • ولكن ثبت أن لا واحد من هذه النظريات قادرة على أن تبرهن على كفايتها وكفاءتها بذاتها ، كما أن المنظور الواحد الجانبي الذي نظرت منه هذه النظريات عكّضها حديثاً لأوجه نقد جارحة ، فلقد تبين أن أطفال الأسر المفككة ، وكل أعضاء الجماعات ، وكل أولاد الجيرة الفقيرة ، ليسوا جميعاً آثمين أو جائحين • ان السياقات ذات العلاقات المتداخلة والمركبة يمكن أن تساعدنا وحدها على فهم مشكلة الجناح لدى الأفراد تلك المشكلة ذات الأبعاد العديدة •

وهناك مثال ممتاز آخر عن قصور المدخل المتخصص والنقاط التي يجب أن يصحح بها نستقيه من ذلك البحث الجاد الذي نجده في كتاب « الشخصية المسيطرة » وفي المجلد الذي يعقب نفس هذا الكتاب والذي يحتوي على عدد من التعليقات وأوجه النقد • لقد تناول الباحثون بحشهم هذا من منظور سيكولوجي ، لكن حينما واجهوا بأمانة تعقد موضوعهم المختار ظنوا أن الصعوبات التي واجهتهم انما تتصل بدراسات علم المناهج •

استخدم الباحثون تقنيات مختلفة ، وكانوا يغيرون أدوات البحث في ضوء ما يظهر لهم باستمرار خلال عملية بحثهم ، كما استخدموا عدداً من الاستبيانات ، وغيروا فيها وبدلوا ، واستعانوا بتحليل نقدي للكتب والمقالات والعبارات التي تعبر عن التعصب ، وعمقوا بحثهم بمجموعة من المقابلات Interviews وبالوعي بالموضوع ، وبالاختبارات المخططة • ثم قاموا بترجمة ما جمعوه الى معادلات وتقديرات احصائية ، وغذوا اطار بحثهم بافتراضات مستقاة في معظمها من نظرية التحليل النفسي •

بدأ هذا البحث بمشكلة التعصب ، وانتقل الى مجموعة من النظريات التي تم اختبار كل منها : لقد قررت أول نظرية منها أن الناس الذين يتعصبون ضد جماعة معينة ( كاليهود مثلاً ) يميلون الى التعصب ضد جماعات أخرى ( كالزنوج والكاثوليك مثلاً ) كما يميلون الى تعظيم جماعتهم أو موطنهم الخاص ، ويسلمون بذلك تسليماً أعمى . وفي المرحلة الثانية من هذا البحث ربط الباحثون بين التعصب وبين نظرية سياسية عامة تقرر أن المتعصب يميل الى أن يكون محافظاً ورجعياً وأن غير المتعصب يكون ليبرالياً ويسارياً وتقدمياً . أما الفرض الثالث الذي ثبت بالدليل فهو أن المتعصب والرجعي يتشاركان في عدد عريض من الاتجاهات الاجتماعية : انهما يميلان الى اتخاذ مواقف سخرية وانتقاد تجاه الجنس الآخر ، ويعتقدان بتفوق الرجال على النساء ، ويمعجان بالنظام والقيادة ، ويؤيدان عقاب الجرائم عقاباً رادعاً . وفي المرحلة التالية من البحث ربط الباحثون بين تلك الاتجاهات وبين السمات الشخصية ، فالمتعصب من الناس يميل الى التمسك بالتقاليد ، والجدية في التفكير ، والاشادة بالآداب والأخلاق ، والاعتقاد بالخرافات . أما المرحلة الأخيرة من البحث فكانت بمثابة محاولة لربط هذه السمات الشخصية بعلاقة طفولة المتعصب بوالديه من مثل الأب الجاف أو القاسي الذي يخمد أو يستأصل في ابنه أي علامة من علامات التمرد أو الاستقلال .

لم يستطع البحث أن يحيط - مع ذلك - احاطة كاملة بشراء المواد المقترحة والمقدمة من عدة أنحاء ، وبالطبع فأنا لا أريد أن أخضع هذا الى اعتبارات نقدية ، فما أريده الآن هو أن أعود الى المشكلة الخاصة التي كان على الباحثين أن يواجهوها وهي مشكلة قصور المدخل السيكلوجي وحده على معالجة مسألة التعصب ، هذا القصور الذي

بدى أمامهم في المساهمات النقدية التالية التي ظهرت في المعجم الملحق بالكتاب .

لقد تمثلت المشكلة فيما تبينوه من وجود حالات لا تتلاءم مع الصورة التي وضعوها . فلقد وجدوا أناسا يساريين وربما ماركسيين ليسوا ضد السامية أو الزوج ولا يمجدون أو يعظمون أمريكا ، ومع ذلك يظهرون نفس السمات الرئيسية لشخصية الرجعي المعادي للسامية . ترى ما هو الخطأ في معامل الارتباط هذا ؟

ان الذوق الشائع العام يقترح بلا شك الاجابة التي أعطاها E. Shils بصورة منظمة وهي أن الأذكاء من علماء النفس والطب النفسي الذين تعاونوا في هذا البحث العظيم كانوا سذجاً في صياغة مقولاتهم السياسية ، فالانتشار الفعلي مما يسمى باليسار الى ما يسمى باليمين ليس هو ببساطة تقدماً منتظماً من عقلية متفتحة راديكالية الى أخرى محافظة استبدادية . فهناك استبداديون ديمقراطيون في اليسار ، وهناك استبداديون ديمقراطيون في اليمين ، وليس من المدهش اذن أن يظهر الأولون نفس السمات الشخصية التي يظهرها الاستبدادي الديمقراطي اليميني . وبالطبع فإن الاستبدادي اليساري ليس ضد السامية ولا يقبل هذا وسبب ذلك واضح عند طلاب السياسة ، فالماركسية لا تعرف التمييز بين الأجناس ، أو القوميات ، ومن هنا فهي تنفي معاداة السامية ولا تعتبر أمريكا الرأسمالية على أنها وحدها منطقة الله الخاصة . ومن ثم فإن الاستبيانات والمقابلات التي ركزت على تصور الشخص المتعصب على أنه « يميني متطرف » لم تكشف عن تعصب « اليساري الاستبدادي المتطرف » ، ذلك التعصب الموجه ضد البورجوازية ، والذي يعجب اعجاباً لا تشوبه أي شائبة بروسيا . والواقع أن هذه الخصائص لا يمكن

أن تأتي الى النور الا كنتيجة للإجابة على استبيان يؤسس على فهم دقيق بالآطار السياسي الذي يوجه المتعصبين من أعضاء اليسار الى قنوات خاصة •• أنا لا أناقش مسألة ما اذا كان الماركسيون جميعا متعصبين أم لا •• وبالطبع فهناك بعض الاعتقادات مثل الفاشية أو الماركسية الارثوذكسية تلجأ الى التعصب بوجه خاص • وبعض الاتجاهات السياسية يمكن أن يقبل بالخرافات أو القطيعات بصورة أكبر أو أقل ، بل يمكن أن يكون الليبرالي ضيق العقل ودجماطيقي في نقاط معينة ، لكن النقطة الرئيسية هنا هي أن التعصب يتلون أو يصطبغ بالايديولوجية •

ليس من الصعب علينا أن نستخلص الدروس من هذين المثالين بأسلوبنا ومصطلحاتنا الخاصة ، فالتعبير مثل ظهور التعصب هو نقطة تماس سياقات عديدة : تاريخية وسياسية وسيكولوجية ، وهو ( أي التعبير ) لا يمكن أن يفهم بدقة الا اذا تعززت البصيرة المكتسبة من سياق ما ببصائر مكتسبة من سياقات أخرى ، فمثل هذه البصائر الأخيرة تصحح البصيرة الأولى • أنا لم أناقش ملائمة السياقات الاقتصادية والتاريخية لفهم « التعصب » مع أن لهما علاقة كبيرة بهذا الفهم ويمكن أن يدخل ضمن السياقات التي ذكرتها • ومثال ذلك انه اذا وجدت طائفة يهودية قليلة العدد وأخرى أرمنية، ولكن هذه الأخيرة تنافس باقي المواطنين اقتصاديا أو في سوق العمل ، فان التعصب يميل الى أن يتعصب ضد الأرمني أكثر من التعصب ضد اليهودي •

ويمكن أن تتنوع الأمثلة الى ما لا حدود له ، فهناك على سبيل المثال نظريات سيكولوجية عن القيادة تعالج سمات يجب أن تتوفر في القادة، وهناك أيضا نظريات اجتماعية تركز على الدور الاجتماعي للقادة •• ونظريات أخرى عديدة • لكن لا يمكن لنظرية منفردة منها أن تدعى

كفاءتها وكفايتها ، ومن هنا تكون حاجتنا ماسة الى مدخل علمي متداخل لفهم مثل هذه الظواهر الخاصة •

ولما كان تحديد كل علم انما يتم طبقا للتجريدات التي يعالجها ووفقا للمناهج التي يستخدمها ، فان نتائجها لا بد وأن تكون واحدة الجانب • ان علما منفردا من العلوم لا يمكن الا أن يكون اسهاما محددا بفهم بعد واحد لمشاكل لها أبعاد أخرى • وحينما نعتقد أن كل علم انما يكتون نفسه ذاتيا بحيث يبدو مستقلا عن غيره ، فان جانبه الأحادي يصبح أمرا مضللا • ولعل من أسوأ ما يكون أن يتم اختيارنا للمشاكل بسبب سهولتها وامكان اخضاعها لمنهج معين ، دون أن يكون لدينا هدف أو غرض واسع الرؤية ، ان مثل هذا العمل يعد مجهودا ضائعا لا معنى له ، فليست كل ذرة من المعلومات بصالحة لأن تسهم في بناء صرح المعرفة • والواقع أنه اذا كان للدراسات الانسانية أن تتقدم خطوات الى الأمام وأن تقدم اسهاما فعالا في كل من الفهم النظري للانسان والحل العملي لمشاكله الملحة ( مثل مشكلة الجناح ) فمن الضروري لها أن تتخذ لنفسها استراتيجية واضحة تعمل على الربط والتعاون بين مداخل علوم مختلفة ، وأن تعالج كل المشكلات علاجا تكامليا •

## ٢ - المدخل المتعدد الأبعاد •

لا يمكن أن نستعيز عن المدخل المتكامل بتجميع آلي للأنساق العملية ، فمثل هذا التجميع ليس كافيا وغير مرغوب فيه رغم أنه قد يجتمع في فريق بحث واحد ما هو سيكولوجي مع ما هو أنثربولوجي أو ما هو اقتصادي مع ما هو اجتماعي • ان الأمر هنا يماثل أن ننشر في كتاب واحد دراسات سيكولوجية وتاريخية واجتماعية تتناول موضوع

القيادة • ان مثل هذا التجميع يمدنا بالمادة العلمية لكن ذلك لا يعوضنا عن الفهم الشامل للمشكلة الانسانية • ان مدخلا فلسفيا عريضا سيفيد في الاشارة الى الأساس النظري للتعاون والتداخل بين العلوم • واذا كان من الضروري - كما رأينا - أن نعيد فحص العلاقة القائمة بين العلوم الطبيعية وفحص أساس تعاونها فانه يكون من الضروري بصورة أكبر أن نفحص ذلك في الدراسات الانسانية التي لا تمتلك الا اطرار نظرية غير متينة البنيان •

ان الأمر يكون مضللا حين تفكر في التعاون المتداخل بين الأنساق العلمية في ضوء علاقة نسق كلي بأنساق جزئية ، فلا معنى لقولك بأن علم الاجتماع يركز على التاريخ أو على الاثربولوجيا الاجتماعية الا اذا أخذنا ذلك القول باعتباره اشارة مختزلة لنوع جزئي من العلاقة • ولا معنى أيضا لأن ترد سيكولوجية الجناح الى ناحيتها الاجتماعية باعتبار أن الأولى جزء من الثانية ، ان الأنساق المختلفة تتلاءم بينها على مستوى التعبيرات - سواء كانت تلك التعبيرات فردية أم كانت جماعية - التي تتعامل معها • ولأن التعبيرات غير متخصصة فانها تكون بمثابة نقاط التقاء أو تقاطع أو تماس السياقات المختلفة التي تكوّن موضوعات العلوم المتفاوتة ، ولكي نفهم هذه التعبيرات فمن الضروري أن نرجع الى أنساق أو علوم عديدة • والواقع أن متطلبات فهم مواقف معينة تمدنا بالقواعد التي تترابط وتتعاون المداخل المختلفة طبقا لها ، ويمكن أن نفهم التعبير في ضوء سياق قبل أن ندرك أنه ينتمي الى سياق آخر ، ومثال ذلك اذا فهمنا فعلا شخصا على أنه ينتمي الى سياق اجتماعي فهل تكون ثمة مشكلة اذا تلاءم مع هذا الفعل سياق سيكولوجي ؟ •

لقد ذكرنا سابقا أن كل التعبيرات لا بد وأن تقوم لا محالة في سياقات عديدة في نفس الوقت ، فتعبيرات شخص ما تكون جزءا من

حياته الفردية ، كما أنها تنتمي الى السياق التاريخي لأنها لاحقة لتعبيرات أخرى أثرت عليها بالتراكم ، ولما كانت هذه التعبيرات تتأثر بما يسبقها وتؤثر فيما يتلوها من تعبيرات أفراد آخرين فيمكن أن نقرر بأن لها سياقاً اجتماعياً ، وكونها تشابه تعبيرات أخرى ، فانها تقوم أيضاً في سياق تصنيفي ، كما أن لها سياق موضوع حيث أنها تعبر عن فكرة جزئية معينة تتحدد بمصطلحات قانونية أو ملاحظات دينية أو نشاطات اقتصادية . ومن ثم فإن المداخل التاريخية أو السيكولوجية أو الاجتماعية في تحديدها نسقا كالاقتصاد أو التشريع من حيث الموضوع يمكن أن تكون ملائمة من حيث المبدأ لفهم كل تعبير .

ويمكن أن نوضح هذا بمثال « سرقة سيارة » ونعتبره التعبير الذي نريد فهمه ، فحينما ننتبه أولاً الى الخواص الواضحة لهذا الفعل فأننا نضعه مع ما يشابهه ونميزه عما يختلف معه ، أي أننا نضعه في سياق تصنيفي . وإذا كانت السيارة قد اخذت بدون علم صاحبها ، ولم تكن هناك نية في ارجاعها ، فأننا هنا سنتناول حالة سرقة لا حالة استعارة وهاهنا يمكننا تحديد مكان التعبير في سياق موضوع معين . ثم أن تحديد قيمة السيارة هو أمر اقتصادي ، وبيان أن هذه الحالة جريمة أو خيانة هو أمر يتعلق بالقضاء ، ثم علينا أن نعرف بعد ذلك كيف حدثت السرقة . هل حدثت عمداً وبسبق الاصرار ؟ هل للص جنایات سابقة ؟ ان هذا يعد جزءاً مما أسميه بالسياق التاريخي . وحينما نسأل لماذا ارتكب هذا الشخص حادث السرقة فإن هذا يعد موضوعاً سيكولوجياً ، وهاهنا علينا أن نبحث في سياق حياة هذا الشخص . هل هو من أسرة مفككة ؟ هل يشعر بأنه مكروه ؟ هل يريد أن ينتقم من أبيه ؟ . وأخيراً اذا أردنا أن نعرف لماذا أخذ الانتقام من أبيه هذه الصورة ، فإن الاجابة ستكون سوسيولوجية بالضرورة تتمثل في أن هذا الفعل ( السرقة ) يتبع نمطاً سائداً في الجيرة أو المجتمع ، كما



تتمثل في طلب الجاني أن يتصف بالجرأة والجسارة بين أصدقائه ومعاصريه .  
 ان الاجابات التالية « هذه محاولة للحصول على شيء من لا شيء » « هذه خاطئة » « هذا فعل انتقام من أب مكروه » « هذا فعل لرجل جسور جريء » هي اجابات عديدة ممكنة على السؤال « ما هذا الذي حدث ؟ » لكن لا توجد اجابة واحدة منها يمكن أن تدعى أنها وحدها الاجابة الصحيحة ، وذلك لأن الاجابات كلها تصنع معنى الفعل ، كما أنها تعتمد على بعضها البعض ، فلا يمكن أن تكون تلك الحادثة فعل انتقام دون أن تكون خاطئة ، ولا يمكن أن تكون الأخيرة دون أن تأخذ شيئاً له قيمة معينة وهكذا .

ويمكن بالطبع أن نعطي أمثلة أخرى للسعاني المختلفة لأي تعبير آخر . وفي الواقع فان عملية الحصول على فهم للتعبير بربطه بالسياقات المختلفة التي يوجد فيها انما تمدنا بحالة نموذجية مثلي لما يجب أن يكون عليه المدخل الذي ينبغي أن نستخدمه في الدراسات الانسانية .

ويمكن لمثل هذا المدخل المتعدد الأبعاد أن يتقدم خطوة فخطوة ، اذ يجب أن نبدأ من سياق واحد ، ونحدد نسقه المنتمي اليه حسب تدريب الباحث واهتمامه ، وحسب خاصية التعبير ، وحسب الدائرة التي يكون للتعبير فيها أضخم تأثير وأوضحه . ويجب أن يدرك الباحث أن مقياس فهمه لا يرجع وحسب الى مدخله الخاص ( المتخصص فيه ) ولكن يرجع أيضا الى تحقيق الشروط الابستمولوجية للفهم كما ذكرناها سابقا مهما كان من عدم الاكتمال التام لهذا التحقيق ، فخلال الألفة بالطبيعة الانسانية ، والمعرفة بالخلفية الثقافية ، والوعي بالياف الواقعي ، يكون الباحث قادرا على فهم بعض العلاقات التي يتضمنها التعبير ماثا النظر . ان هذا الفهم المبدئي سيتأدى به الى سياق يكشف له عن البناء الأساسي للمشكلة . ليس ثمة نقطة بداية بحتة ومحددة بدقة يمكن أن تبدأ منها

الأبحاث الفردية أو الدراسات الانسانية عامة ، ومن ثم فيجب أن نبدا بتوجيه أنفسنا أولا نحو ذلك الربط المبدئي الذي يربط بين بعض الافكار وبعضها البعض ، فهذا الربط يجب أن يسبق المشروعات المنهجية الدقيقة ويجعلها ممكنة \* واذا تجاهلناه فان هذا التجاهل يعد بمثابة تكذيب الطبيعة الحقيقية للبحث العلمي \*

وبوجه عام يمكننا القول بأن أي مدخل نسقي علمي متعدد الأبعاد يواجه الفهم الواقعي للمشاكل الانسانية يجب أن يركز على تنقية وتنقيح العمليات المعرفية المركبة بصورة تصبح الخبرة اليومية معها ذات معنى لنا \* واذا اتبعنا - بدلا من ذلك - مدخلا واحدي البعد يركز على افتراضات ومناهج علم واحد ويطبق نتائجه - رغم ذلك - على علوم أخرى فاننا نشوه بذلك الواقع ، ونجلب التشكك وعدم التصديق لهذا العلم الجزئي مثار النظر \* ان مصير « التحليل النفسي » مثال على ذلك، فهناك بعض الشك حول فائدة بعض نظريات وافتراضات فرويد التي حصلت على تأثير فذ على حياتنا العقلية وعلى تقدم العلوم المختلفة \* ومما جعل التحليل النفسي عرضة للنقد والسخرية والشك هو ادعاء بعض ممارسيه قدرتهم على تحديد الاجابات النهائية على المشاكل العقلية والثقافية وحتى التاريخية كما شك الناس أيضا في التفسير الماركسي للتاريخ والسياسة ذلك التفسير الذي ادعى لنفسه منزلة علمية لأسباب مماثلة \* فبينما أثمر تأكيد هذا التفسير على أهمية الواقع الاقتصادي فان الفروض التي صاحبه دائما والقائلة بأن هذا الواقع هو الواقع الأكثر أهمية ، أو أنه العامل الوحيد الذي يجب أن نضعه في الحسبان حولت النظرية الماركسية الى دجماطيقية عقيمة \*

ومع ذلك ، فحتى الاعتراف بأن التعبيرات يمكن أن تفهم فقط

وبدقة في ضوء السياقات العديدة التي تقوم فيها ، وأن هذا يتضمن تعاون عدة أنساق أو علوم ، لا يعكس تماما التعاون الداخلي بين المداخل المختلفة ، إذ أن مجرد اكتشاف سياق مفرد واحد قد يتضمن مدخلا تداخلي العلوم وذلك لأن تعميمات علم ما قد توضح روابط قائمة بين تعبيرات تتصل بسياق ينتمي أكثر الى علم آخر يكون قريبا من موضوع تخصصه ، ومثال ذلك قد تمدنا التعميمات الاجتماعية أو السيكولوجية برؤية للطريق الذي تترايط وفقه التعبيرات في سياق تاريخي ، كما أن التقدم في الاقتصاد والنظرية الاجتماعية يساعد في الواقع علم تدوين التاريخ ، تماما كما برهنت التصورات التفسيرية للتحليل النفسي على فائدتها في مجال الاثربولوجيا الاجتماعية •

وبالاضافة الى ذلك يجب أن نذكر أن الخطوط المختلفة للمدخل المتعدد الأبعاد مثل الخطوط السيكولوجية والتاريخية والاجتماعية ليست متساوية في الامتداد أو الانتشار مع الأنساق أو العلوم التي تميزها • ان أي متخصص يميل الى استخدام العديد منها في دائرته الخاصة ، فعالم النفس - على سبيل المثال - يستخدم المدخل التاريخي في تكوين تاريخ الحالة ، وبدون أن يكون مؤرخا أو مستخدما لمواد تاريخية فانه يستخدم مناهج مشابهة لمناهج المؤرخ ، ويمكنه حينئذ أن يتعلم بجهد ومهارته •

وهكذا فأننا دائما ما نصل وتتخطى حدود المدخل واحدي البعد أو العلم المفرد حالما نركز الانتباه الى متطلبات فهم التعبيرات • لكننا حينما نريد أن نصيغ هذا المدخل المتعدد الأبعاد في منهج صارم أو خطة جادة فأننا نخفي أو نحجب الحاجة الى التفتح العقلي والمرونة •



# الفصل المجادي عَشْر

## المعرفة الانسانية

- ١ - السياقات ذات المعنى كموضوع لكل الدراسات الانسانية .
- ٢ - الفهم كعنصر اساسي لمناهج الدراسات الانسانية .



## المعرفة الانسانية

### ١ - السياقات ذات المعنى كموضوع لكل الدراسات الانسانية .

شهدت القرون القليلة الماضية نموا غير متوازن لمعرفتنا بالعالم ، فلقد انتقل الانسان من الانشغال بالمسائل اللاهوتية ومن اهتمامه بروحه الى الاهتمام بالقوى الطبيعية التي تحيطه ، كما أن البحث العلمي أعاد الاهتمام بالقوى الطبيعية التي تحيطه ، كما أن البحث العلمي أعاد الحساب التقريبي لاكتشاف العالم ، وأزاحت النظريات العلمية التأمل الميتافيزيقي ، وهاهنا توقف العالم عن أن يكون لغزا غامضا ، وأصبح الانسان بالمعرفة قويا مسيطرا على قوى عديدة .

لقد أصبح من الطبيعي أن تقوم بمحاولة تطبيق تلك الانجازات العقلية على المعرفة الانسانية ، وأن نستخدم المناهج العلمية التي تكشف عن مكونات العمليات الفيزيائية في السلوك الانساني ، وأن نأمل في أن تلقى الآلة التي صنعت لاقتاج عمليات عقلية الضوء عن كيف يعمل العقل ، وأن يؤدي تمكيننا من معالجة استجابات القران لمنبهات مضبوطة السى تمكننا من تطبيق نفس الأمر على الانسان .

ان المدخل المتعدد الأبعاد أثمر بعض النتائج لكنه خيب الآمال ، لقد عاننا قليلا على فهم بعض المشاكل الانسانية الكبرى كالجنح ،

والاضطراب الاجتماعي ، والأمراض العقلية ، والصراعات الدولية ، لكنه لم يشف غليلنا تماما . لقد طلب منا أن نكون صبورين لأن تطبيق المناهج العلمية على الدائرة الانسانية يشير صعوبات خاصة . ومع ذلك فنحن نشعر بأن شيئا ما قد يظهر . فنحن لا نزال ننتظر نيوتن العلوم الانسانية .

ان تشييد الدراسات الانسانية على غرار العلوم الطبيعية بحيث تكون نموذجا مشابهها لها تماما هو في رأيي ضلال عقلي ، وعقم علمي ، وخطر أخلاقي : هو ضلال عقلي لأنه يتجاهل العمليات المعرفية المألوفة ، وعقم علمي لأنه لا ينتج المعرفة التي نحتاجها ، وخطر أخلاقي لأنه يقبل تصور الانسان على أنه شيء آخر في عالم مادي طبيعي ، والواقع انه يجب علينا أن نعود الى الأسس ، وأن نهتم بالاطار الملائم لمعرفة الانسان .

ان التمييز الأساسي بين نمطي العمليات المعرفية ضروري وهام جدا ، فمعرفة سرعة الضوء تختلف عن معرفة ماذا يعنيه الشخص بتحريك يده ، تتضمن الحالتان ادراكا لوقائع فيزيقية : قراءة لوحات الآلة في الحالة الأولى ، ورؤية يد تتحرك في الحالة الثانية ، كما تتضمنان أفكارا ، لكننا ندرك في الحالة الأولى واقعة فيزيقية بواسطة الفكرة ، وندرك في الحالة الثانية الفكرة بواسطة واقعة فيزيقية . اني اسمي النوع الأول من المعرفة بالادراك أو الاستيعاب Comprehension واسمي النوع الثاني بالفهم Understanding .

وحيثما نعطي الاطار النظري لكل من هاتين العمليتين المعرفيتين اللتين تحدثان دائما في الحياة اليومية ، فان هذا يعني أننا نقيم نظرية المعرفة على قدميها . وهذا يمكننا أيضا من اقامة تمييز واضح بين العلوم التي تهتم بالادراك أو الاستيعاب وبين الدراسات الانسانية التي تركز



على الفهم • ان النوع الأخير ( الدراسات الانسانية ) هو النوع الوحيد الذي تفهم من خلاله الواقع التاريخي المركب والاجتماعي المعقد للحياة الانسانية •

وعلى الرغم من أن للانسان خواصا فيزيقية هي موضوع العلم فان صفته الحاسمة أو الفاصلة هي أنه عاقل : انه يفكر ويفعل ويتعقب الغايات، انه يبدع العلم والفن والدين والمدن والآلات والقانون والنظم ، وكل هذه تكون سياقات ذات معنى يمكن بل ويجب أن تفهم • ومن ثم فلا يمكن أن تقتصر فقط في وصف الانسان على وقائعه الفيزيقية وحدها ، بل يجب أن ندخل في ، وأن نفهم العمليات العقلية التي يعطي بها الانسان لعالمه معنى • نحن لا نستطيع أن نعرف لماذا أصبح شخص ما « جانجا » بدون أن نفهم مخاوفه وتطلعاته واهتماماته وعاداته ومقاييسه الأخلاقية للمجتمع، ان مثل هذه الموضوعات الأخيرة تمثل موضوعات للدراسات الانسانية •

ان كل العلوم المهتمة بالانسان تتعامل مع أفعال واعية وأفكار وقيم وأهداف : فالتاريخ يعيد تكوين الماضي كقصة ذات معنى بواسطة اعادة القبض على الأفكار التي أثرت على الناس وعلى الأهداف التي تعقبوها، والفيلولوجيا تعالج تطور اللغات ، والفقه يعالج القواعد القانونية التي فرضها الناس على أنفسهم ، والاثربولوجيا الاجتماعية تهتم بالأفكار والتقييمات والقواعد التي تحدد السلوك في المجتمعات البدائية • نحن لا يكفي أن يلقي الناس الماء على بعضهم البعض ، اننا نقنع فقط حينما نفهم أن ذلك يعد جزءا من التعميد أو طقوس التطهير •

ان علم النفس أيضا يجب أن يكون دراسة انسانية اذا أسهم اسهاما حاسما في معرفة الإنسان وفي حل مشاكله ولأن العمليات الواعية تدخل في أغلب ما يفعله الإنسان فان استجاباته لا يمكن أن

تفسر كما لو كانت ردود فعل آلة ذات طريقة واحدة في الاستجابة للدوافع • ان على النظرية التعليمية أن تأخذ في اعتبارها وجه الاختلاف بين تذكر رموز لا معنى لها وبين تعلم مادة ذات معنى ، كما أن على نظرية الادراك أن تعرف الدور الذي تلعبه التوقعات والأفكار التي لم يتم تصورها بعد • ان أي نقاش حول الشخصية يجب أن يضع في اعتباره اللغة والأفكار والأحكام المسبقة والمبادئ الأخلاقية ، وعلى علم النفس الاجتماعي أن يعالج موضوعات الدعاية والقيادة والعمل سواء بصورتها التقليدية أو غير التقليدية ، ولا يمكنه اذن أن يتجاهل الأفكار والقيم والأهداف •

ولا يمكن لعلم الاجتماع أن يقتنع بملاحظة الناس وذكر نتائج منتظمة عن سلوكهم ، ان على علم الاجتماع أن يبحث عن الأسباب المعقولة التي تقف وراء ذلك، فحينما نقرر أن عدد المنتحرين من الطلاب الكاثوليك أقل من غيرهم ، وأن نسبة المواليد ترتفع عادة بعد الحروب ، أو أن الناس ينفقون أموالهم بطريقة معينة ، فأننا لا نستطيع أن نستخلص مسائلتنا الاجتماعية •• اقنا نحصل فقط على مادة محتاجة الى دراسة أكثر • ان في استطاعتنا دائما أن نبين لماذا يفعل الناس ما يفعلونه بالاشارة الى المعتقدات الدينية أو الطموح الاجتماعي أو القواعد والأعراف •

اني اعتقد بأن الاقتصاد أيضا دراسة انسانية ، حيث أنه يعالج علاقات ذات معنى ، ونظرا لأنتم ذكرت ذلك من قبل فيجب أن أفسّر رأيي الآن بصورة أكثر اكتمالا : اني أرى أن موضوع الاقتصاد هو التعبيرات ذات المعنى ( كالأفعال القصدية ، وكالأشياء المنتجة ، وشرائها، والمنافسة في الأسواق، ونتائج ذلك كله ) والتي تتضمن أهدافا أو أغراضا بالنسبة للأفراد والنقابات أو للأمم في حالة التخطيط المركزي • ان

الأفعال والأهداف التي تقف وراء التعبيرات الاقتصادية وتأثيراتها على الناس يمكن أن تفهم ، ومن ثم تكون بمثابة موضوع للدراسات الانسانية •

يمكن تحديد الاقتصاد بأنه علم منفصل في ضوء السياقات التي تعالج تعبيراته ، وهذه تتكون من العلاقات القائمة بين الإنتاج والتسويق والعمالة ، كما أن الجمعيات والمصانع تتكون سياقات وجودية ووظيفية ، والصناعة ككل تتكون سياق موضوع • ومع ذلك فإن الاقتصاد شأنه في ذلك شأن الدراسات الانسانية الأخرى لا يمكن أن يحقق الفهم الكامل في ضوء التعبيرات التي يعالجها في ضوء سياقه وحسب وذلك لأن هذه التعبيرات لا تقوم في الاقتصاد وحده بل وفي السياقات الاجتماعية والنفسية أيضا ، فحينما نسأل لماذا يعمل الناس ؟ ، ولماذا يطلبون أشياء معينة ؟ أو لماذا يتعقبون نظاما خاصا في البيع ؟ فإن ذلك قد يتطلب تفسيرات نفسية واجتماعية بنفس الدرجة التي يتطلب فيها تفسيرات اقتصادية • وهذا يؤكد الحاجة الى وضع الاقتصاد في سياقات دراسات انسانية أخرى •

ان هذا القول يصبح غامضا اذا قبلنا بعض فروع الاقتصادية على أنها مماثلة لعلوم الطبيعة في تجريدها للارتباطات العلية القائمة بين الوقائع أو الحوادث عن السياقات الانسانية المركبة ، فالاقتصاد الصناعي على سبيل المثال يمكن أن يعالج العلاقات القائمة بين الآلة والعمالة بدون أن يحاول فهم الأسباب الآلية أو فهم اتجاهات العمال الذين تم الاستغناء عنهم • وبالمثل فإن النظرية الاقتصادية تعالج الارتباطات العلية بين كيانات مجردة مثل : الأثمان والربح ، والسعر ، والعرض والطلب ، دون أية اشارات تفسيرية للناس الذين يشترون وينتجون ويستهلكون •

ان عوامل تناول الحياة الاقتصادية في ضوء آليات عليا ، يمكن أن تحقق نتائج مفيدة • لكنها تكون محدودة القيمة ، ومضللة ، اذا لم ترتبط بدراسات أكثر شمولاً من الدائرة الاقتصادية • ان فروعاً اقتصادية مثل علم الاقتصاد التطبيقي ، ودراسة العلاقات الصناعية ، تضيف الى النظرية الاقتصادية الواحدة الجانب السياسات الاقتصادية القومية ، وبواعت العاملين ، وآمال العمال • وعلى الرغم من قبولنا واعتبارنا لبعض فروع الاقتصاد على أنها علوم كعلوم الطبيعة ، فانه لمن الهام أن نفكر في الاقتصاد على أنه دراسة انسانية • وهذا يجعلنا نقرر بأن القوى الاقتصادية لا يمكن أن تفهم بدقة الا من خلال سياق النشاطات والآمال الانسانية •

## ٢ - الفهم كعنصر أساسي لنماذج الدراسات الانسانية •

لقد رأينا أن الاقتصاد وسائر الدراسات الانسانية تعالج السياقات ذات المعنى ، وأنه ليس ثمة أسرار تغلف الطريقة التي يقربنا بها الفهم من تلك السياقات • ان الفهم ليس لعبة عجيبة تجلب الحظ للناس ، كما أنه ليس مشروعاً اخترعه علماء الاجتماع • • انه عملية مألوفة يمكننا من توجيه أنفسنا في الحياة العامة • • انه يكشف عن المعنى كما يكشف البصر عن اللون • وحتى ان قيل بأن البلهاء نادراً ما يفهمون ، وأن الاطفال يكونون في بداية طريق الفهم ، فالتنا جميعاً نفهم العالم الانساني لأننا جزء منه •

ويجب على الدراسات الانسانية أن تعمق بصيرة الرأي العام ، وأن تجعلها منظمة ، اذا كان عليها أن تحقق هيكلًا رئيسياً من المعرفة الموضوعية عن الانسان • ولكي تحقق تلك الغاية يجب عليها أن تربط الفهم بالعمليات

العقلية المختلفة ، وبتكنيك البحث ، وهما يؤلفان في مجموعهما المنهج العلمي . وعلى الرغم من اشتراك العلوم الطبيعية والدراسات الانسانية في المنهج ، الا أن هذا المنهج يواجه في الدراسات الانسانية بصعوبات عدة خصوصاً حينما تكون هناك أحياناً استحالة في اجراء التجارب ، أو حينما يعترض في أحيان أخرى على اجراء مثل هذه التجارب لأسباب أخلاقية ، أو حينما يتعذر التوصل الى الموضوعية أو فصلها ، أو حينما تستعصى المشاكل على التحليل بسبب تعقدها ، أو حينما يتعذر احالة الكيفيات الى كميات تخضع للمعالجة الرياضية . ولأجل هذه الأسباب فإن الضبط الصوري المتحقق في النظريات العلمية يصعب الوصول اليه في الدراسات الانسانية . ومع ذلك فإن استخدام الفهم يقدم تعويضا له قيمته الكبرى عن هذا القصور ، وذلك حينما يمكننا من فهم الارتباطات القائمة بين حوادث الدائرة الانسانية ، ذلك الفهم الذي لا يستطيعه العلم الطبيعي في اقتصره على الملاحظة والتعميم فلا معنى لأن نسأل لماذا تسقط الأجسام وفقاً لقانون الجاذبية ؟ ولكننا يمكن أن نسأل لماذا ينتحر الناس ؟ ولما ينجبون أطفالاً ؟ أو لماذا ينفقون أموالهم في لعب القمار ؟ ومن خلال الفهم وحده يمكن أن نجد الاجابات على تلك الاسئلة أو على تلك المشاكل . ان الاعجاب الأعشى بالعلوم الطبيعية أفقد الباحثين قدرتهم على رؤية تلك الميزة التي تميز الدراسات الانسانية ، فالمدرسة السلوكية على سبيل المثال لا تستخدم منهج الفهم في نظريتها المعرفية بدعوى أن مثل هذا المنهج لا يوجد له نظير في العلوم الطبيعية .

ان الفهم ليس فقط عملية معرفية لا يمكن تحاشيها ، تمكن من خلاله معرفة وقائع الدراسات الانسانية ، انه أيضاً وسيلتنا في تفسير هذه الوقائع . العالم الفيزيقي موجود ويمكن ادراكه أو معرفته ، والعالم

الانساني له معنى يمكن فهمه \* ان استخدام المعرفة الانسانية المركزة على فهم المعنى هو الخاصية الرئيسية لكل الدراسات الانسانية وهي تضعنا أمام تحديات معينة وفرص خاصة \*

واذا لم نواجه تلك التحديات ونقتنم تلك الفرص فان البحث أيا ما كانت دقة أدواته، سينتهي بنا الى قنوات عمياء ، ولقد رأينا سابقا أن أي جهد يبذل في العلوم الانسانية كالاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ويكون مرتكزا فقط على جمع المعطيات ووضعها في صور احصائية واستخلاص النتائج من الارتباطات القائمة بينها هو جهد ضائع تماما ما لم يكن تصنيف المعطيات مرتكزا على فهم معناها ، وكانت النتائج مفسرة تفسيرا مبنيا على معنى \* ولقد تأكدت هذه النقطة في كتاب السيدة / بربارا ووتون B. Wooton المسمى « بعلم الاجتماع وعلم الأمراض الاجتماعية » حيث ذهبت الى أن مجموعة كبيرة من الأبحاث عن « الجناح » غير مقنعة وغير قاطعة أو باثة على الرغم مما تحتويه من ثراء في التفاصيل الاحصائية ، وذلك لأن تصنيف الأفعال الجانحة يرتكز عادة على خواص ظاهرة وأخرى باطنة ، ومع ذلك فنحن نبحث في النتيجة عن تفسير عام لحالات غير متساوية \* وأعطت السيدة « ووتون » مثالا هاما تناولت فيه ما يسمى بجريمة « السرقة المصحوبة بالعنف » وبالأخص حالة طفل صغير دفع آخر من على « عجلته » واستولى منه على عشرة شلنات \* ولقد برهنت أيضا بالاشارة الى مقتطفات خاصة من عدة أبحاث على سهولة استخلاص نتائج مضللة من الأدلة الاحصائية ، وأعطت على سبيل المثال شرحا من بحث قام به جلوكس Gluecks حول تأثير الامهات على الجناح جاء فيه :

« ان أمهات الجانحين والبالغة نسبتهن ٤٧٪/ تعملن خارج البيت

بينما تبلغ نسبة الأمهات العاملات خارج البيت لغير الجانحين ٣٣٪ « ان مثل هذه العبارة تتضمن بعض الأعمال مثل العمل في « بيت فيه غرف مفروشة للإيجار » وهو عمل ليس خارجيا تماما وحينما نميز بين الأعمال الوقتية والأعمال المنتظمة يظهر أن ٢٠،٤٪ من أمهات الجانحين و ١٨،٣٪ من أمهات غير الجانحين يعملن في أعمال منتظمة ، ومن هنا نستنتج أن الاختلاف الكبير بين أمهات الجانحين وغير الجانحين إنما يرتبط بالحالات التي تعمل فيها الأمهات في أعمال وقتية أو مؤقتة + وفي هذه المجموعة سنجد أن ٢٦،٦٪ أمهات لجانحين أما نسبة أمهات غير الجانحين فهي ١٤،٧٪ + ومن هذا انتقل جلوكس Gluecks في قفزة واحدة مدهشة الى النتيجة التالية : « سواء أكان مدخلنا منتما الى التحليل النفسي عن التأثير الضار بتطور الشخصية أو كان ببساطه مدخلا منتما الى الملاحظة العادية والتجربة العامة ، فإن اهمال الأمهات وعدم عنايتهن بالأطفال هما المنبعان الرئيسيان لسوء التوافق وللجناح + وبوضوح فإن أمهات الأطفال الجانحين كمجموعة يتراخين أو يهملن العناية بأطفالهن أكثر من أمهات غير الجانحين » + ان المعطيات الاحصائية في مثل هذه الحالة لا تحدث عن نفسها ، اذ علينا هنا أن نفهم الوقائع حقيقية +

واذا أهملنا ذلك « الفهم » فأننا نميل الى أن نصل الى نتائج مضللة، وعلى سبيل المثال لا يمكن أن نصل الى تعميمات صادقة عن « السارقين » اذا صنفنا ببساطة أولئك الذين يسرقون دون اعتبار لما يعنيه فعل سرقتهم، فالبعض يسرق من أجل الغنى ، وقد تنجم السرقة في بعض الحالات عن أخرق أو معتوه لا يدرك معنى الملكية ( وهناك مثال عن ذلك نجده في كتاب Burt المسمى Juvenile Delinquent ) وقد تنجم في بعضها الآخر عن الرغبة في الانتقام + وفي كتاب Searchlight on Delinquency نجد حالة طفل يسرق استاذته لأنه يحبها + وليس من المدهش

أن نجد المجهودات الأصلحية المرتكزة على نظريات الاجرام التي لا تأخذ في اعتبارها تلك الاختلافات والتميزات غير مؤدية الى نتائج مفيدة.

ومثال آخر عن الفشل في اعتبار معنى الفعل يرتبط باستخدام الاستبيانات . نعم ان عددا من الناس يجيبون اجابات عديدة ولكن أن تستخلص من تلك الاجابات نتائج نهائية حاسمة فهو أمر غير ممكن بل وخطر ويقودنا الى الخطأ . ولكي تؤمن أنفسنا ضد هذه الكوارث علينا أن نسأل لماذا أجاب الناس على نحو معين دون نحو آخر ؟ هناك ببساطة من يريد أن يسعد الباحث القائم بالاستبيان ، وهناك من يريد أن يظهر بمظهر الاحترام أو السفسطة ، وهناك ما هم خداعون بطبيعتهم .

ان هذه الامثلة وتلك التوضيحات تؤكد - مرة أخرى - على الحاجة العريضة للفهم في الدراسات الانسانية ، وعلى أن التقدم في المعرفة الانسانية يعتمد على الاستخدام النقدي الهادف . والواقع أن نظرية الفهم يمكن أن توضح الطريقة التي تتمكن بها من تصعيد الاهتمام بالمشاكل الانسانية ، وبيان كيفية حلها . ويمكن الحكم على القيمة العملية لنظرية الفهم بالاستناد الى ممارستها والى طلبه العلوم أو الأنساق الانسانية المختلفة . والحق أن التنظير الفلسفي، وابتكار الطرق التصورية لا يمكن أن يحلا محل البحث المبدع ، ففي خلال تعقب العلوم تعقبا واقعيا يمكن فقط أن نكتشف الارتباطات الهامة ، وأن نصيغ الفروض المثمرة ، وأن نطوّر المناهج ، وليس من واجب الفيلسوف أن يعلم عالم الاجتماع عمله . . ان ما يمكن للتصورات الفلسفية أن تفعله هو أن تجعل الافتراضات غير المنطوقة بنية الممارسات الناجحة ، وان تجعل الأساس النظري لهذه الممارسات واضحة .

اتتهى بعون الله



# LIST OF BOOKS REFERRED TO IN THE TEXT

- Adorno, T. W. and others, *The Authoritarian personality*, pp. 65, 123 (New York 1950).
- Aron, R. C. T., *La Sociologie allemande contemporaine*, p. 24 (Paris 1936) (trans.) *German Sociology* (London and New York 1957).
- Berlin, I., *Historical Inevitability*, p. 72 (Oxford) 1954).
- Burt, C., *The Young Delinquent* p. 137 (London 1944).
- Christie, R. and Jahoda, M. (eds.), *Studies in the Scope and Method of the Authoritarian Personality*, p. 123 (New York 1954).
- Descartes, R., *Discourse on Method and Meditations*, p. 12 (London 1960).
- Dilthey, W., *Gesammelte Werke*, spec. Vol. VII, p. 24 (Stuttgart 1958). Trans. of relevant passages: H. P. Rickman: *Meaning in History* (London 1962).
- Eissler, K. R. (ed.), *Searchlight on Delinquency*, p. 137 (London 1949).
- Freud, S., *Zur Psychopathologie des Alltagslebens*, pp. 57, 109 (Frankfurt 1907). Trans. *The Psychopathology of Everyday Life* (London 1960).
- Freud, S., *Die Traumdeutung*, p. 57 (Frankfurt 1900). Trans. *The Interpretation of Dreams* (London 1955).
- Freud, S., *Ges. Werke Vol. I*, (Paper of 1896), p. 57 (Frankfurt 1924). Trans. *Complete Works* (London 1951).
- Ginsberg, M., *Sociology*, p. 77 (Oxford 1934).
- Hayek, F. A., *The Counter Revolution of Science. Studies in the Abuse of Reason*, pp. 31, 41 (New York 1964).
- Hempel, C. G., *The Function of General Laws in History*, p. 32. Contained in *Theories of History*, ed. P. Gardiner (New York 1958).

- Hobbes, th. *Leviathan*, p. 70 (London 1957).
- Hughes, H. S., *Consciousness and Society. The Re-orientation of European Social Thought*, p. 24 (London 1959).
- Kant, I., *The Critique of Pure Reason*, pp. 8, 24, 45 (London 1934).
- Lundberg, G. A., *Foundations of Sociology*, p. 25 (New York 1964).
- Mises, R. Von, *Positivism. A Study in Human Understanding*, pp. 25, 32 (New York 1956).
- Maciver, *Society*, p. 31 (London 1950).
- Nagel, E., *The Structure of Science*, pp. 29, 32, 41, 113 (London 1961).
- Nagel, E., *The Logic of Historical Analysis*, p. 101. Contained in *Theories of History*, ed. P. Gardiner (New York 1958).
- Parsons, Talcot, *The Structure of Social Action*, p. 24 (London 1949).
- Pyke, M., *The Boundaries of Science*, p. 121 (London 1961).
- Roback, A. A., (ed), *Present-Day Psychology*, p. 111 (London 1956).
- Spinoza, B., *Ethic*, pp. 8, 70, in *Chief Works of Spinoza Vol. III* (New York 1951).
- Weber. Max, *Ges. Aufsätze - Zur Wissenschaft - slebre*, p. 24 (Tübingen 1951). 3 essays from it trans, the methodology of social sciences. (New York 1950).
- Weber, Max, *Wirtschaft und Gesellschaft*, p. 24 (Tübingen 1956). Trans. *The Theory of Social and Economic Organisation* (New York 1957).
- Weber, Max, *Die Protestantische Ethik und der 'Geist' des Kapitalismus*, pp. 77, 102 (München 1964). Trans. *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (London 1930).
- Wootton, B., *Social Science and Social Pathology*, p. 136 (London 1959).

## الفهرست

الصفحة	الموضوع
٩	— تقديم الترجمة العربية : ماكس فيبر واسهامه في تطور النظرية والمنهج .
٧٩	— الفهم ومقولة المعنى .
٨٩	— تصدير بقلم دونالد ماكري .
٩٣	— مقدمة المؤلف .
	<b>الفصل الاول</b>
	الدراسات الانسانية والفلسفية
١٠٥	— مفهوم الدراسات الانسانية .
١١٢	— المدخل الفلسفي .
	<b>الفصل الثاني</b>
١٢١	— نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى .
	<b>الفصل الثالث</b>
	الفهم
١٤١	— بعض صعوبات مصطلح الفهم .
١٤٥	— نحو تعريف لمصطلح الفهم .
١٥٠	— دور الفهم في الدراسات الانسانية .
	<b>الفصل الرابع</b>
	الشروط الاستمولوجية للفهم
١٦١	— مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها .

## الموضوع

- ١٦٤ - الشروط الاستمولوجية الثلاثة للفهم .
- ١٧٥ - ملائمة الشروط الاستمولوجية لمنهج الدراسات الانسانية .

## الفصل الخامس

### التعبيرات

- ١٨١ - طبيعة التعبيرات ووظائفها .
- ١٨٤ - تصنيف التعبيرات .
- ١٨٩ - المضامين المنهجية لتصنيف التعبيرات

## الفصل السادس

### الفهم والمنهج العلمي

- ١٩٩ - المنهج العلمي في الدراسات الانسانية .
- ٢٠٦ - وقائع الدراسات الانسانية .
- ٢١١ - العلاقات القائمة بين الوقائع العقلية ( العلل والاسباب ) .
- ٢١٧ - الموضوعية والدائمة .

## الفصل السابع

### التخصص وملائمة العلوم الطبيعية للدراسات الانسانية

- ٢٣١ - أساس التخصص والعلاقة بين العلوم .
- ٢٣٨ - ملائمة الوقائع الطبيعية للدراسات الانسانية .

## الفصل الثامن

### سياق التعبير

- ٢٤٩ - السياقات المختلفة للتعبيرات وكيف تميز بين العلوم .
- ٢٥٧ - كيف تتكون السياقات .

## الفصل التاسع

### التاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع

- ٢٦٧ - المدخل التاريخي .

الصفحة	الموضوع
٢٧٥	— المدخل السيكلوجي .
٢٨٥	— المدخل الاجتماعي .

### الفصل العاشر

التعاون الداخلي بين العلوم .

٢٩٧	— الاعتماد المتبادل بين العلوم .
٣٠٤	— المدخل المتعدد الابعاد .

### الفصل الحادي عشر

المعرفة الانسانية

٣١٤	— السياقات ذات المعنى كموضوع لكل الدراسات الانسانية .
٣١٨	— الفهم كعنصر اساسي لمناهج الدراسات الانسانية .
٣٢٣	— مراجع الكتاب .





